

DL

396
A96mA

~~DEC 1 '59~~

~~DEC 25 '60~~

~~DEC 1 '61~~

~~DEC 1 '62~~

~~DEC 1 '63~~

~~DEC 1 '64~~

~~DEC 1 '65~~

~~DEC 1 '66~~

~~DEC 1 '67~~

J. Lib.

~~1 AUG 1985~~
~~1 AUG 1985~~

~~29 MAY 1974~~

JAFET LIB.

~~1 JAN 1968~~

JAFET LIB.
~~FEB 1978~~

~~1 SEP 1988~~

JAFET LIB.
~~30 MAR 1982~~

JAFET LIB.
~~1 DEC 1982~~

~~25 JUN 1988~~

JAFET LIB.
~~1 JUN 1982~~

~~JAFET LIB.~~

المراة في الإسلام

مكاتها وجهادها ، وحقوقها وواجباتها
وطريق نهضتها ، ونهضة الأمة بنهوضها

بقلم

كمال حميد عيون
منع مناء الأزهري

والمدرس بمعهد طنطا الثانوي

(حقوق الطبع للمؤلف)

١٣٧٤ - ١٩٥٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمه

بسم استاذنا الجليل فضيلة الشيخ محمد فوزي حبه



(المؤلف)

وتنصم الأذان عن الاستماع إلى الآيات التي هي من موهب الله تعالى
الكتاب القيم بين يديك ، وكشف عن مدى ما كان الإسلام من فضل لم يسبق
إليه ، ولن يلحق على مدى الأيام ، في التوسل بالمرأة ، والاعتراف بها ، والمحافظة
عليها ، والتمسك بإعدادها ، وتربيتها تربية ناضجة صالحة تجعل منها إنساناً مستقلاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بقلم أستاذنا الجليل فضيلة الشيخ محمد فوزي خشبه

أستاذ البلاغة والأدب بمعهد طنطا

... مسكينة هذه المرأة ، ومسكين معها نصف هذا المجتمع الكادح المكافح في سبيل إعداد الأبناء والبنات ، ليعد من أولئك وهؤلاء آباء وأمهات ..
وكم من الأجيال والحقب تحاملت خلالها الأوضاع ، وتحامل المشرعون على هذه المرأة ، فازورت عن انصافها ، وانصرفت عن الأخذ بيدها ، والاعتراف بما لها من حق أو وجود .. وها هو ذا التاريخ يسجل بين ثناياه ما نالها من من حيف لدى الإغريق والرومان ، وغير الإغريق والرومان ، من هذه الدول الغالبة ، التي لم ترع للمرأة حقاً يذكر ..

ثم جاء الإسلام وجاء معه تشريع الخالد ، فسميا المرأة سموا لم يكن لها على بال وقد تسألني أيها القارئ العزيز كيف مكّن الإسلام للمرأة ، وكيف أخذ بيدها وأنصفها ، وما نزال نقرأ لبعض الأقلام اتهام الإسلام بالجور ، والحيلولة بين المرأة وبين ما ينبغي لها من منازل ومنازل !! أما أنا فلن أكلف نفسي مهمة إقناعك بسخافات هذه الأقلام ، ولا بتحمل أصحابها رغبة في الشهرة ، وإرضاء للشهوة ، والشهوة الجاحذة التي تعمي العيون عن رؤيا الحقائق ناصعة واضحة ، وتصم الآذان عن الاستماع إلى الآيات البينات - ولكني سوف أدع هذا الكتاب القيم بين يديك ، يكشف عن مدى ما كان للإسلام من فضل لم يسبق إليه ، ولن يلحق على مدى الأيام ، في النهوض بالمرأة ، والاعتراف بها ، والحفاظ عليها ، والعناية بإعدادها ، وتربيتها تربية ناضجة صالحة تجعل منها إنساناً مسئولاً

شاعرا بماله من حقوق ، وما عليه من واجبات ...

حسبك أن تقرأ هذه الفصول الممتعة في هذا البيان الأخاذ، لتؤمن معي برسالة المرأة في الإسلام ، ورسالة الإسلام في النهوض بالمرأة ، وسوف يزداد يقينك وأنت تنتقل مع المؤلف من روضة موزقة يانعة ، إلى أخرى مشرقة باسمة ، بأن الإسلام لم يدع مجالا لمجدد ما ، كائنا ما كان نبوغه أو تقصيره ، ولا لباحث ما ، كائنا ما كان إخلاصه أو خضوعه لهواه ، مجالا لنقد أو ماثرا لنزید ، اللهم إلا أن تنكر العين ضوء الشمس من رمد ، أو ينكر الفم طعم الماء من سقم ثم مالى أذهب بعيدا وهذه فصول الكتاب بين يديك ، تتحدث بعناوينها عما تحمله بين ثناياها من تفنيد وتحميص لهذه البحوث المحدثثة والقديمة ، المتعلقة بالمرأة في أسلوب رصين جزل ، وتحليل جيد مشرق ، وتوفيق في إصابة الهدف ... ولولا ما عرفته للأؤاف مذ درست له وهو طالب في السنة الرابعة الثانوية من زهده في المدح ، ورغبته عن الثناء والحمد ، بينما كنت ولا أزال أمس فيه تعلقه بالتوجيه ، وحببه للنقد ، أملا في التوفيق ، ورغبة في الكمال ... لولا هذا ولولا أن أشق عليه وعليك اكنت قد استعرضت معك فصول الكتاب وبحوثه فقرة فقرة . لتراها معي متراسة متساندة آخذة حيزها بحجز بعض نحو الهدف ، وما كنت أرى بأسا - والإعجاب يملأ قلبي - أن أتلو معك البحث ، ثم أدعك تقرأه وحدك ، لتعرف معي أن كثيرا من فصول الكتاب - بله الكتاب كله - من حقها عليك ؛ ومن حقك على معارفك وثقافتك أن تقرأها مرة ومرة ليزداد إيمانك بجلال الفسكرة ؛ ويربو يقينك بعناية الإسلام بالمرأة والسموبها ، وبإعدادها إعدادا جامعيا في دراسة حرة طليقة تتناول فيها مع الحاكمين شئوننا المتعلقة بها ، وشئوننا عامة كثيرا ما تتصل بشئون الحياة العامة . وسوف تجد من باب

« المرأة والمسجد » هذه الصورة الحية الصادقة للدراسة الجامعية ، التي كان الاسلام أول من شرعها للمرأة ، وأول من اهتم بشقيفها أولا ، والاخذ عنها والاستتارة بأرائها ثانيا .

ثم هذا الموضوع الشائك ، موضوع تعدد الزوجات للمسلمين عامة ، ولرسول الإسلام عليه السلام بنوع خاص ، سوف ترى الكاتب ، وقد طوف بنواحي الموضوع على تشعبها ؛ وألم بفقرها وعناصرها ، إماما يزيل الشكوك وينير الطريق ، بتمحيص الروايات ؛ وتزييف المدسوس منها . ثم لا يدعك إلا وقد آمنت إيمان الدارسين الباحثين بجلال الفكرة وسمو ذلك التشريع ، وأنت بين يدي هذه الفذلكة الحلوة الأخاذة عند قوله : « ولعل أصدق دليل في هذا الصدد صحة الحياة برجل مع نساء ، وضياعها بامرأة مع رجال ،

وستجد نفسك مقبلا بعد على هذا الموضوع القيم الدسم ، موضوع الطلاق - والطلاق ففرقة أباحها الإسلام على بغض لها ، فأحاطها بسياج وأى سياج ؛ ! سوف تقرأ هذا الفصل الممتع ، وسوف لاتمالك نفسك أن تكبر وتهمل ، فلم يكن كانت في نفسك أثارة من عتب ، وأثر من قلق ، لما يبدو في هذا التشريع من قسوة قد تسىء إلى هذا الجنس اللطيف .

ولكنك إذ تفرغ من قراءة ذلك الطلاق مع الأستاذ دكال ، ستذهب عنك أحاسيس العواطف الحارة وتستقبل المنطق والعقل ، وفلسفة الإصلاح وهدى العلاج الناجع ، وقد يكون آخر ذلك العلاج الكي كما يقولون . وأن تعجب أيها القارئ الكريم فعجب أن تجد نفسك وأنت ترتاد هذه الروضة الحافلة بأنواع البحوث الشيقة — قد وقفت أمام لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، وهي لجنة لها قداستها وهيبتها ممثلة في هؤلاء الفحول من علمائها ، وإذا

بالمؤلف يخاصمها في شجاعة ، ويتناول آراءها فيما يختص بالمرأة ، ثم يتناول آراء المرأة وماتريده لنفسها من حقوق ، وما يريده لها بعض الكتاب من هيمنة على شئون التقنين والتشريع ، أو قل المشاركة في هذه الهيمنة ، ثم يجد شخصية المؤاف أبت إلا أن تكون حرة طليقة ، تجول وتصول ، في دقة وحذر ، ثم تراه يدلي برأيه مؤيدا بالأدلة ، موثقا بالبراهين ، وسواء لديه أن يصادف هذا الرأي الذي رآه هوى هؤلاء ، أو يتبرم به بعض أولئك . . .

ومهما يكن من شيء فأنا إذ أحدثك عن توفيق الأستاذ دكال ، في كتابه أعتقد أن الكمال لله وحده ، وأنه سوف يعود إلى قراءة كثير من فصول كتابه ، ليفصل بحملا ، أو يستدرك نقصا فاته ، ويرحم الله العباد الأصفهاني حين كان يقول :
« إنى رأيت أنه لا يكتب لـنسان كتابا في يومه إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن . . . »

وإن رأيت أن ترجع إلى المؤلف معترضا ، أو ناقدا ، أو مستفسرا ، فسوف تجد من صدره رحوبة ، ومن عقله نضوجا ، ومن خلقه ما يمكن لك من إبداء الرأي ؛ فيبادلك حجة بحجة ، وبرهانا ببرهان ، رغبة في الحق ، وتحريا للصواب وبعد : فهأنذا وقد امتلأت إعجابا وتقديرا لهذا البحث القيم ، في هذا العرض الموفق ، يسرنى أن أبارك هذا الغرس الكريم ، راغبا إلى الله أن ينسأ في أعمارنا ، حتى نرى هذه الآمال التي علقها المؤاف على الأزهر المعمور ، قد آتت الثمر شهيا ، في تخرج البنات مثقفات بتلك الثقافات الدينية المختارة ، على أيدي أساتذة مختارين .

وما هي ذى تحياتي العطرة ، بمزوجة بأطيب الأمانى له ولك أيها القارىء العزيز ، وسلام من الله ورحمة
محمد فوزى خشبة

الإهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ،
ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشدا ،
وصل اللهم على النبي الأمين ، خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ،
وعلى آله وصحبه والتابعين . وبعد :
فألى من تهمه قضية المرأة ، ومن ورائها الأسرة والمجتمع
إلى كل بنت وأخت ووالدة
وكل ابن وأخ ووالد .
إلى كل من يرى في نفسه خيرا لإحقاق حق وإزهاق باطل ، من
العاملين لبلائهم ، والساعين لخير أوطانهم .
إلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله
وأولئك هم أولوا الألباب ،
إلى هؤلاء جميعا أهدى هذا الكتاب راجيا من الله سبحانه أن
ينفع به كفاء ما بذل فيه من جهد ، وصاحبه من إخلاص ، وفوق ذلك
من فضله إنه سميع مجيب .

كمال أحمد عوده

طنطا : { جمادى الثانية سنة ١٣٧٤ هـ
يناير سنة ١٩٥٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ،

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، ...»

قضية خالدة ما خَلَدَتِ الإنسانية ، باقية ما بقى الدهر ، قديمة العهد ، جديدة الذكر ، يَهْتَمُّ الرجل بالمرأة ، وتهتم المرأة بالرجل ، ويهتم كلاهما بالحياة حتى يُقَدِّمَ لهما ما تفرضه عليهما من مادة جديدة ، يبقى بها النوع ، ويكثر النسل ، وتعمر الأرض «فطرة» الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، لم تَقُمْ الحياةُ بالرجل وحده ولن تَقُومَ ، ولم تقم المرأة وحدها ، وما ينبغي لها ، بل نفس واحدة من روح الله ، خلق منها زوجها ، فإذا الزوجان أزواج ، وإذا النفسان عالم ضخم يموج بالأنفُس ، ويزخر بالحياة ، يسير ما قدَّرَ له السير ، ويمضي إلى غايته وأهدافه ، يعين بعضه بعضا ، ويُسَكِّمُ شطره الشطر الآخر ، على نسقٍ عجيب ، فيه آيات للناظرين ، وهدى للبُصَّيرين .

وما أبدعته يدُ القدرة في عالم الإنسان ، أبدعت مثاله في عالم الحيوان ، بل في سائر الأحياء على السواء «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلَّكم تذكرون» ، تمنى قضية الرجل والمرأة ، وموضع كلٍّ من الحياة ، وموضع كلٍّ من صاحبه في الحياة ، سائرة مع الزمن ، متأثرة به ، مؤثرة فيه ، فإذا اعتدل الميزان اعتدلت الحياة ، وتعاون الطرفان على سنن قويم لا عوج فيه ، ولم يكن ثمة

ما يدعو إلى تسلّح أو مقاضاة ، فقد عرف كلّ مكانه ، ورعى واجبه ، وأدى رسالته ، فاستقام أمر الأسرة ومن ورائها الجماعة .

وإذا انحرف طرف عن سوائه ، آذن بانحراف يسلمهم بالجميع فيذيقهم من عواقبه وآثاره ما يذوقه كل منحرف عن الفطرة السليمة ، والمحجة القويمة ، حتى يرجع إلى الجادة ، أو يؤذن بالعفء .

« سنة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ،

لا يقل أثر المرأة في الحياة عن أثر الرجل بحال ، فلم تكن يوماً عاملاً ثانوياً ، ولا كانت مجرد متعة الرجل ، وموضع شهوته والترفيه عنه ، وكيف ؟ وما يخلق الرجل إلا من المرأة والرجل معا ، وما تخلق المرأة إلا من الرجل والمرأة كذلك ، وما كان لبشر أن يبرز إلى الوجود من غير هذا الطريق سوى من شاءت إرادة الله ، واختصه الإعجاز الإلهي من آدم ، ثم حواء وعيسى عليهم جميعاً صلوات الله .

لقد حملت المرأة الرجل جنيناً ، ووضعت وليداً ، وسهرت عليه في مهده وغذته بلبانها ، وصنعتة على عيناها ، فهي صانعة الرجل ، وهي بذلك صانعة الحياة ، سواء سيطرت على الحياة ظاهراً ، أو دبّت إلى السيطرة ديباً ، أو هاضت الحياة جناحها فتسحيّفتها وتنسكرت لها .

وخلق بمن كانت هذه منزلها ، أن تجد ما هي جديرة به من العناية والرعاية والتكريم ، وأن تحصن بالترية والتهديب من آفات الانحراف الخلقي والروحي وأن تصان بالعلم والمعرفة والقودة الحسنة من زيف الآراء ، وضلال الأهواء ، حتى تؤدي رسالتها على خير وجه ، وأكمل حال ، وتزق ثمرتها الطيبة في خلق جيل سليم قوى ، يحمل رسالة الحياة ، ويحسن خلافة الله في الأرض .

والإسلام وهو دين الفطرة السليمة قدّر المرأة قدرها، ووضعها مكانها وأعطاهما كل ما لها، وكلفها بكل ما عليها، فهو يخاطبها كما يخاطب الرجل، ويثق بها ويعوّّل عليها، ويحوطها بعنايته ورعايته كما يحوط الرجل، بل لعلّ حظها من ذلك أجلّ وأعظم، فلا عجب أن تسبلي المسئلة الأولى في نصرة الإسلام ورفع شأنه مثل بلاء الرجل، وإن تجعل من التاريخ سجلّ حمد، وصفحة ثناء وتبجيل.

قضية المصرية الحديثة :

والدارس لقضية المرأة المصرية في العهد الأخير يرى أمراً عجيباً، هو في الواقع نتيجة منطقية لسير هذه القضية .
ولن يُغنى الأسف الشديد شيئاً إذا ما قررنا — ونحن آمنون من الخطأ — أنها مضت تمشي برجل واحدة، وسعت تطير بجناح، فكان أمرها أشبه بالطائر يثب وثوب الأعرج، ويضرب الأرض بجناحه ليطير فلا ينهض .
فزد دعا صاحب المرأة الجديدة، وتحرير المرأة دعوته، والمعارضون المشفقون على أخلاق الأمة وآدابها وتقاليدها كأمة شرقية إسلامية يقفون موقفاً سليماً من هذه القضية، مكتفين بالنصح والتحذير، أو التجريح والتشهير، لم يتقدموا لعمل إيجابي، وإصلاح حقيقي يدفع بقضية المرأة إلى الطريق المستقيم، والمنهج القويم، وكان في وسعهم لو شاءوا أن يجدوا ذلك واضحاً في نور الإسلام، وهدى رسوله الكريم .

لقد كان للمرأة على عهد رسول الله ﷺ حظها من المسجد والجمعة والجماعة تشهد من ذلك ما يشهد الرجل، وتعلم منه ما يعلم، وكان لها حقها في مجالس الوعظ ومواقف الإرشاد مستزيدة من ذلك بطلب أوقات خاصة بها فوق ما يتاح لها

شهوده مع الرجال ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه لا يرضن عليهن بوقت ولا مجهود ، عارفا لمن أثرهن الأثر في نشأة الأسرة ، وصلاح الأمة ، ومجد الإسلام ، حتى سجلت المسئلة في العصر الأول أنصح ما خلد التاريخ للمرأة من صفحات ، وأروع ما شاهد من بطولات وتضحيات ، بل شهدا التاريخ غير مقصرة عن الرجل المسلم في علم أو عمل أو جهاد وتضحية ، حتى عز الإسلام بأبنائه من الرجال والنساء ، وارتفع لواؤه خفاقا ، وعلت كلبته في العالمين .

لم ينهج المعارضون الذين عرفوا بالمحافظين نهجا عمليا ، وملا الخوف والأشفاق الأفئدة منهم والقلوب ، فكانوا سلبين متشائمين ، لم يعودوا بالمرأة إلى المسجد لتعلم من دينها ما يجب أن تعلم ، واتسمو بروحها وأخلاقها وآدابها بما في الدين من سمو ورفعة وتوجيه سليم .

ولم يحاولوا أن ينشئوا من المدارس الدينية للبنات ما ينبغي أن ينشأ ، فخرمت المرأة المثل الصالح من بنات جنسها علما وعملا وخلقا ، فاضطرت ساعية لا تجد أمامها إلا دعاة الحضارة الغربية ممن تغربت عقولهم وأرواحهم ، وتفتحت عيونها على رائع من المدنية ، وخلاب من الحياة العصرية ، فاندفعت تعوض بعض مافات ، واستمعت طويلا ، وقرأت كثيرا عن دعاوى الظلم الذي حل بالنساء فيما مضى من عهود ، فكانت شديدة الحساسية فيما يتصل بقضيتها في الحياة .

وأولع بترديد هذه المعاني على أسماعها رجلان ، متكلم ديني يريد أن يعرض فضل الإسلام على المرأة وأنصافه لها ، ورفيع شأنها في جسم أنواع ما كانت فيه من ضيم ، وما لحقها من أذى ، ليجعل من ذلك إطرأ لما جاء به الإسلام تاركا ما كان للمرأة العربية في جل القبائل من مكانة رفيعة ، وعزة منيعة ، وما

بلغته في بعض الدول من رتبة الملك وعرش السلطان . وما أغنى الإسلام بحقائقه وأجاده وروائعه عن المبالغة والإطراء .

وكانت اجتماعي ملكت عليه حياة الغرب له وفؤاده ، فهو يدعو إلى حرية يهاها ليست في الحقيقة إلا تحللاً وإباحية ، فتراه يثير مشاعر المرأة وأحاسيسها بأقاصيص الظلم الذي نالها ، وأفانين الحيف الذي قاسته ، وصور الاستعباد الذي عاشت فيه ، زاعماً أنه من أنصارها والمدافعين عنها ، وكأنه يقول لها حذار حذار من دعوى الفضيلة والاحتشام ، ان هي إلا الدعوة المقنعة للذل والاسترقاق ، الذي جاهدت للخلاص منه ، والرجل يحن إليه ، ويحرص عليه ، فإن تراجعت قليلاً فهو القضاء على ما عليه تحرصين . إن دعوى الاحتشام رجوع بنا إلى أكرم من ألف عام ، إن التصون والعفاف والستر نكوص إلى عهد الحريم . بهذا وغيره كانت المرأة شديدة التأثير والحساسية في هذه الناحية ، ترى أقل مظهر من مظاهر التفرقة نوعاً من العبودية حتى ولو كانت أوفر بهذا التفرق حظاً ، وأرجح نصيباً ولعل تلك الظاهرة غير خاصة بالمصرية ، بل لعلها شائعة في نساء القرن العشرين .

خطبت قانونية مصرية في مؤتمر القوانين العالمية بتورنتو من مدن إيطاليا ، تبين حقوق المرأة المصرية ، فذكرت من حقوقها الصداق يقدمه الرجل آية على صدق مودته ، وبرهاناً على اعتزامه القيام بآعبائه وواجباته ، وانتوانه التضحية من أجل شريكة حياته ، فقاطعتها فرنسية من القوانين قائلة : إذا فالرجل عندكم يشتري المرأة بالصداق ، فكانت المصرية حكيمة موفقة إذ ردت المغالطة بما أخذ عليها السبيل حيث قالت :
إن ذلك على أي حال خير من أن تشتري المرأة الرجل فتدفع له

رأينا المرأة — إلا من عصم الله — بتأثير (الأفلام) المنخرقة والأقلام المسمومة (٢) انحرفت عن سواء السبيل ، وصار ما كان يدعو إليه قاسم أمين من تخفيف الحجاب الى الحد الإسلامى الذى يسمح للمرأة بكشف الوجه واليدين ، والذى يبيح لها الخروج لحاجتها من علم وعمل ، عرياً وتكشفاً وتهتكاً وانطلاقاً ، يزرى بالمرأة والرجل ، ثم يتمخض كل يوم عن مآسٍ مريعة تزلزل من الأسره كيانها وتصيب من الأمة سويداءها .

ونحن فى عهدنا الجديد الذى اعترفنا فيه ببناء الأمة على أساس وطيء من الخلق المتين ، والتربية الجادة أجدر بتبين طريق الصواب ، واستهداء وجه الحق . وهذه فصول فى قضية المرأة متساقطة ، يمد أولها لآخرها ، وينعطف آخرها على أولها ، تصح من حقائق التاريخ مازيفه المبطلون ، وتكشف من واقع الحياة ما أضله المخطئون ، وتهدى إلى نور من الإسلام يهتدى به المؤمنون ويعشى من ضيائه الجاهلون ويعي دون فهمه المتغربون وأتباع المتغربين . قد استقيتها من مصادر الأصيل ، فلم أكتف بمنقول إليه عن المنقول منه ولا بالفرع القريب عن الأصل المأخوذ عنه .

فصول حاولت بها أن تكون قضية المرأة فى وضعها الصحيح ، بعيدة عن حيف من يحيف ، ومحابة من يحابى . لم أبغ بها وسطاً بين رأيين ، ولا تقريباً بين متباعدين إنما الحق وحده قصدت ، ومن ضاق به الحق فالجور عليه أضيق . وعسى أن تكون هذه الفصول داعية إلى خير ، ومرشدة إلى برٍّ ، كاشفة عن جانب من عظمة الإسلام فى شأن المرأة ، وهادئة لضلال كثير حول قضيتها

(١) انظر فصلى المرأة فى الميراث والشهادة ، والمرأة والحياة السياسية .

(٢) انظر فصل المرأة والأقلام المسمومة .

أخذة بيدها عن طريق المسجد (١) والأزهر إلى ما نرجوه للسلمة الحديثة
من عزة وكرامة ، وعفة ومجد ، واحتشام وترفع ، كي تستعيد في الحاضر المرجو
أجنادها الأولى ، وفي الغد المأمول عظمتها الخالدة في صدر الإسلام .
تأليف هذا الكتاب :

لعل حظي من اختيار هذا الموضوع لم يكن بقدر ما دفعت إليه دفعا ، فقد
احتدمت المعركة الكلامية سنين واشتد لظاها حول مطالب المرأة السياسية ،
وكنت شاهداً أقرأ ويسمع وأحيانا باحثا في الأمر بحثا عارضا ، وفي أكثر من
مرة ولمناسبات تكررت في غير عام كان ضمن مواضيع الإنشاء للفرقة الرابعة
الثانوية الموضوع الآتي :

هل ترى المرأة المصرية حقوقا سياسية من الخير أن تمارسها ؟ وجّه ما
تقول ، وفنّد رأى الآخرين . .

وكان جمهور الطلاب وهم شباب في أواخر العقد الثاني وأوائل الثالث يفيض
قوة وحيوية ويتدفق نشاطا وتوثبا ويصغي لما حوله من الآراء ويشدو إلى
علومه الأزهرية طرفا من الآداب ويطلع أشتاتا من الصحف اليومية والمجلات
الأدبية والسياسية ، كان جمهورهم عادة ضد ما ترى المرأة لنفسها من حقوق وإن
كان علاج الموضوع كما توحى صياغته يفسح جوانب من القول ويدعو الطلاب
إلى مناظرة فيها حرية البحث كاملة يمحّص الرأى فيها ويقلب على شتى وجوهه
ثم يمضى كغيره من الموضوعات .

حتى بلغ الأمر ذروته وتساءل كثيرون عن رأى الدين فيه وصدرت
الفتوى الرسمية من الأزهر الشريف بمنع اشتغال المرأة بالأمور السياسية

وعدم جواز دخولها البرلمان لأنه ولاية عامة ، وبمنع اشتراكها فيما يكون طريقا إليه من إعطاء صوته في الانتخاب (١) ولست أكنتم القارىء أنى أحسست عند صدورهما بحلقة مفقودة فيها ، مع إعجابى بلجنة الفتوى واجلالى لأصحابها .

وجدت الحوادث وتوالت وقررت لجنة الدستور الفرعية بأغلبية ثمانية أصوات إلى ستة مطالب المرأة السياسية

وكما لاحظت في الفتوى جانباً يحتاج الى بيان ، لم أر ما قررته اللجنة رأياً سديداً ، وعملاً حميداً . ذلك أن تجاهل الرأى الدينى الرسمى للبلاد أمر لا تسخغه الأمة ، ولا يقع منها موقع القبول ، وليس يكفى ان تقرر لجنة مهما علا شأنها مطالب المرأة السياسية محتجين لقرارهم بان الدين لا يمنع ذلك ، فيؤمن الناس بما تقول ، ضاربين صفحا عن فتوى لجنة الازهر .

وقد سقط دستور ودستور لانها لم يقوما على الحق الصريح ، فأما الزيد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكنك في الأرض ،

واقترحت في كلمة حملتها الا هرام مشكورة أن يجتمع السياسيون والدينيون ويتفاهموا على رأى سواء جمعاً للكلمة ، وحفظاً للوحدة ، وتوفيراً للجهد ، وليحتكم الجميع إلى الحكيم العليم ، والله يقول : « فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً » .

ولم أكن مسرفاً في الظن الحسن كى أعتقد بأن كلمة او كلمات ممن لا يملك سواها تجمع الجبهتين المتعارضتين في صعيد واحد ، ذلك ان الجانب الدينى يرى انه بلغ وبرا ذمته ، وأن الجانب السياسى غالباً يتخذ الغرب قبلته ، ثم وجدت امور وظهرت كتب ، تحمل طابعاً خاسماً لم تشف منى غليلاً ، ورأيتنى مدفوعاً الى درس هذه الناحية دراسة وافية وبدأت أدرس وأبحث ، وأراجع وأتقضى ، وأقرأ في القديم والحديث ، والعربى والمغرب ، وأطالع قضية المرأة ، ومكاتها

« ١ » انظر الفتوى ومناقشتها في فصل المرأة والحياة السياسية .

في التاريخ وميزانها في الاسلام ، ومالها من حقوق وما عليها من واجبات ، مستجلبا ماضيها الحديثه ، ومكانها في الحياة العامة وفي الشؤون السياسية ، متابعا ما ينشر عنها في الصحف والمجلات . لم ادع من ذلك شيئا يفيد في الموضوع . استطعت . الا اطلعت عليه ، حتى اكتمل الدرس او كاد ، فكان من ثماره هذا الكتاب ، وها هو ذا أقدمه لكل باحث منصف يطلب الحق أنى وجده ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

مصادر الكتاب :

لم أشأ ان أثبت في صدر الكتاب أو آخره سجلا حافلا بمصادره كما هي عادة البحث العلى الحديث ، ذلك أن هذه المصادر كثيرة تحتاج الى ثبت طويل عدا أن منها الكتب العديدة يؤخذ منها الشيء الواحد ، ومنها الكتاب الكبير يراجع فلا يؤخذ منه سوى القليل فكان اثباتها جميعا أشبه بالتزيد والمغالة حيث لا رغبة لنا فيها ولا حاجة بنا اليها ، بيد أنى لم أغفل منهج البحث العلى الدقيق فأشرت الى المراجع التي آخذ عنها في ثنايا البحث وهامش الصفحات ليسهل الرجوع اليها لمن شاء ، مالم يكن ذلك من الشهرة بحيث لا حاجة فيه الى انتساب . وبصفه عامة :

فالمراجع الاول في الناحية الدينية كتاب الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم وفهما على وفرة التفاسير المرجوع اليها ، ثم سنة نبيه ﷺ في منابعها الاولى . ومصادرها الاصلية ؛ اذ هي شارحة القرآن الكريم ، ومبينة لاحكامه ، ومفصلة لمجمله ، على أن ما نقلته عن البخارى ومسلم والموطأ فيها بلا واسطة ، ومن بقية الصحاح والمسانيد فقد اعتمدت فيه غالبا على نيل الاوطار للشوكافى ، وطرح الثريب للعراقى . ورياض الصالحين للنووى ، والترغيب والترهيب للمنذرى .

وفي الناحية الفقهية راجعت مجموعة من كتب الفقه، وفي مقدمتها بداية
المجتهد لابن رشد، وزاد المعاد لابن القيم، وبعض موسوعات الاحناف لما
عرف عنهم القول بتولية المرأة القضاء في غير حديث وقود وكذلك جملة القوانين
الخاصة بالطلاق والزواج المعمول بها الآن في المحاكم الشرعية. ومنذ كراتها
التفسيرية وانتفعت في ذلك كله بجهود الأئمة الاعلام الذين خدموا القرآن
الكريم والسنة النبوية المطهرة من القدامى والمحدثين، وما حرره العلماء والفقهاء
جزاهم الله عن دينه خير الجزاء على ان النصوص الدينية من الكتاب والسنة هي
مقطع الصواب في ذلك غير متعصب لقول خاص، ولا امام بعينه، فكلهم من
رسول الله ملتزم، ومن بحر القرآن مرششف، أتحرى ما أراه أقرب وأمثل،
وأضئ مع الحق اينما كان.

وفي الناحية التاريخية كان اهم المراجع القديمة سيرة ابن هشام، واسد الغابة
والكامل لابن الاثير، والاصابة لابن حجر، ومروج الذهب للسعودي،
ومعها كذلك الكتاب المقدس.

ومجموعة من الكتب الحديثة في علم النفس والتاريخ والاجتماع ووظائف
الاعضاء، منها الخاص بالمرأة، ومنها ما يجيء ذكرها فيه مع غيرها، ولم أنقل
شيئا من ذلك خاصا الاشرت الى مصدره، أما الرأي العام الذي ليس وقفا على
أحد فليست اشير اليه الا ان يكون اقتباس تعبير بعينه أنسبه لصاحبه

فان كنت وفقت فيما اليه قصدت فذاك فضل الله منه واليه، وان كانت
الأخرى فما ألوت الصواب جهدا، ولا الحق ابتغاء وقصدا.

وأرجو أن اكون خالص النية في القول والعمل، والله حسبي، وهو
سبحانه نعم الوكيل.

المرأة في التاريخ

« وكيف عولجت مكانتها فيه »

يذكر كثير من الباحثين ان المرأة غابت في عصور التاريخ القديمة منذ قبلت أن تدخل شريكه في الأسرة ، وتنزل عن بعض حرياتهما للرجل ، حيث لم يقنع منها بذلك ، بل استبد بها وبالعالم أحيانا في ذلك الاستبداد ، حتى كان له أن يتصرف فيها تصرف المالك في ملكه ، وينزل بها الى دركة الحيوانات فيبيعها إن شاء ، فهي عنده ليست انسانا كالرجل .

ولاذ « بلغ الأمر هذا الحد » ، فليس بعجيب ما يذكره عالم فرنسي كبير (١) من « أن يجمع ما كون في القرن الخامس الميلادي بحث في : هل للمرأة نفس كالرجل ؟ ولم يكن جوابه على هذا السؤال بالإيجاب إلا فيما يخص مريم العذراء والدة الله »

ويقول المرحوم قاسم أمين رأس الداعين الى تحرير المرأة المصرية في كتابه « المرأة الجديدة » (٢) « وترتب على دخول المرأة في العائلة حرمانها من استقلالها ، لذلك نرى رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكا لزوجته ، وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق البيع والشراء ، بمعنى ان عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء ، وهذا أمر يعرفه كل مطلع على التاريخ الروماني ، ورواه (السائحون) المعاصرون لنا ، يشتري الرجل زوجته من ابها فتنتقل اليه جميع حقوق الأب عليها ، ويجوز

(١) هنري ماريون من الاخصائيين في تربية البنات بكلية الآداب بفرنسا في كتابه خلق المرأة ترجمة أميل زيدان (٢) فضل المرأة في حكم التاريخ

ان يتصرف فيها بالبيع اشخص آخر ،

ويقول في موضع آخر من الفصل السابق

هذا هو مجمل تاريخ المرأة نلخصه في كلمتين : عاشت المرأة حرة في العصور الأولى ، حيث كانت الانسانية لم تزل في مهدها ، ثم بعد تشكيل العائلة وقعت في الاستعباد الحقيقي ، ثم لما قامت الانسانية على طريق المدنية تغيرت صورة هذا الرق ، واعترف للمرأة بشيء من الحق ، ولكن خضعت لاستبداد الرجل الذي قضى عليها ألا تتمتع بالحقوق التي اعترف لها بها ، ثم لما بلغت الانسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة ، وتساوت المرأة والرجل في جميع الحقوق او على الأقل في معظمها — أربعة أحوال يقابلها أربعة ادوار من تاريخ التمدن في العالم . ١٥

وغير العالم الفرنسي والمرحوم قاسم أمين ينحون في معالجتهم لمكانه المرأة في التاريخ هذا المنحى ، وهو رأى شائع ، تراه كثيرا في الصحف والمجلات ، وبعض المؤلفات وتسمعه على المنابر ولن يُغوز هؤلاء الباحثين الاستدلال على ما يقولون ببعض الحوادث التاريخية .

ونحن لانرد هذه الحوادث متى كانت في مصادرها المحترمة ؛ ولكننا نلاحظ أن اعطاءها الصبغة العامة الشاملة ، والحكم بها على مكانة المرأة في جميع العصور السالفة ضرب من المبالغة والغلو ينقصه التحقيق العلمي ، لانا اذ نقرأ هذه الحوادث التاريخية نقرأ الى جانبها كذلك للمرأة صفحات بيضاء من الأعمال المجيدة ، والمكانة الحميدة ، فهي فضلا عن مضيا في وظيفتها الأولى من إنسال الذرية واحتضانها لعامة الكون غير متوانية ولا مقصرة ، ولا باخلة بما يصحب ذلك من جهد ومشقة وتضحية ، تشارك الرجل في جسام الأمور ان

اضطر الى معوتها واسعافها كمواقف الحروب والقتال .

بل ان من النساء في الزمن القديم من تربغن على كراسي العروش والممالك ، وليس ذلك على ندرة او شذوذ ، فتاريخ مصر شهد عدة ملكات علون عرشه ؛ كذلك ملكت المرأة في روما ، وملكّت المرأة في الفرس الاولى ، وملكّت امرأتان من بنات كسرى قبيل الفتح الاسلامي ، وملكّت امرأة في بعض جهات العراق أربعين سنة ، وهذه بلقيس التي حكى القرآن الكريم شأنها مع سليمان ، ووصفها بأنها « أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، ملكت باليمن كذلك ملكت الزّباء في تدمر .

وكان بعض اولئك النسوة يبدین حكمة وحذكة وبصرا بتدبير الأمور . بل هذه هي المرأة الرومانية التي حدثوا عنها بأنها كانت في وصاية الرجل وكان له قتلها بيده ان شك في سلوكها (١) وله ألا يعترف بأبنائها قد خرجت من خدرها ، وشاركت الرجل في سياسة الدولة ، وتغلغل نفوذها في كل مرفق من المرافق العامة « وساد سلطانهن حتى صار لهن الصوت الاول في تعيين رجال السياسة وخلعهم » (٢)

كذلك من النساء من احتفظت بشخصيتها في أروع بيئة وأقواها ؛ فلم تلبس صفاتها ، ولم تغمز قناتها ، وانما مالت باختيارها حيث شاءت ، فقد تكون البينة بيئة النبوة التي تملأ الأفراد هبة وروعة ، ثم تختار المرأة دين قومها ، وإن كانت في كنف النبي زوجها ، وقد تكون بيئة الملك وصولته وجبروته ، فلا ينخلع قلبها ، ولا يشغف عليها فؤادها ؛ فتقف إلى ملكوت السموات ، وتنتظر

(١) هنري ماريون في كتابه خلق المرأة السابق

(٢) دائرة معارف المرحوم وجدي الجزء الثامن ص ٦١٨

وكتابه المرأة المسلمة ص ١١٧

الى الملا الاعلى وتقول : « رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ،

ذاك ما يقصه القرآن الكريم حيث يقول : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما . » وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ،

وتذكر التوراة فى مواضع كثيرة شئون الرجل والمرأة فلا تفتقص المرأة بمثل ما ذكره السكاتبون وتقرأ الاناجيل كذلك فترى الدعوة الدينية للمرأة والرجل على السواء ، وترى انصارها من الجنسين كليهما ، وتجد الثناء عليهما ان قدما ما يجعلها اهلا للثناء ، والذم لهما ان كانا بالذم جديرين

ذكرت التوراة ان المرأة تكهنات ، واستطاعت طلع الغيب وأن من النساء من بلغت مرتبة النبوة وكانت بالفعل نبيه ، وأن منهن من اختيرت فجلست مجلس القضاء السنين الطوال ، ثم اشتركت القاضية فى بعض المعارك الحربية بعد اذ أبى القائد المضى حتى تصاحبه ، وبفضلها انتصر الجيش على الاعداء (١) كذلك تقوم امرأة حكيمة بمهمة كبرى اذ تفاوض قائد الجيش المغير ، وتحذره من فوق سور المدينة ، وتقنع قومها بتسليم السلاجىء الغادر وينجو بذلك الحصن ومن فيه (٢) .

وأعجب من ذلك أن توصى التوراة بان يكرم المرأة السبئية سابياها ، ويبنى لها أباهما إن اراد اتخاذها زوجة ، او يطلقها حرة ان لم تحظ فى عينه ولم يرد زواجها ، فلا تباع ولا تشرى كفاء ذلها السابق بأسرها (٣) .

(١) الفصل الرابع من سفر القضاء ص ٣٩٨

(٢) سفر الملوك الثانى ، الفصل العشرون ص ٥٣٩

(٣) سفر تثنية الاشتراع الفصل ٢١ ص ٣٢٢

ونحن لانورد هذا لنقول : ان اليهود قد التزموا بكل ما فيه ، أو انهم حافظوا على دين الله فلم يغيروه ، وحسبنا ان تكون هذه نظرة دينية في الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى ، لنرى ان دعوى الاطباق على ظلم المرأة وهضمها في الامم السابقة والعصور السالفة الى ان جاءت المدنية الحديثة ، والاستشهاد على ذلك بالحوادث الجزئية التي اعتاد الناس ان يسوقوها بل يتلقفوها في مثل هذا الموضوع أمر لا يسيغه البحث التاريخي ، ولا التحقيق العلمي

فاذا اتفق لانيسان أو جماعة بدافع من حماقة جاهلية أو قسوة اقتصادية أن اعتبروا المرأة متاعاً أو سائمة ، أو حسبوها جسداً بلا روح ، أو روحاً نجسة خلقت لخدمة الرجل - إن جاز تحسين الظن بامثال هاتيك الروايات التي اولع بها قوم - فما اخل ذلك أمراً عاماً يتعارفه جيل أو قبيل ، وما هو - إن صح - الانزوة عارضة ، ومرض طارئ يتداركه عقلاء الناس بالتغيير والتبديل .

على أن بعض مساويع من الحيف للمرأة ، وقع مثله للرجل كذلك ، وها هوذا الرق في العالم القديم شمل الرجال والنساء على السواء ، بل كثيراً ما وقعت المحن للرجال من دون النساء .

فاذا كان البعض يقتل المرأة خوفاً من الفقر أو العار ، فلقد كان الرجال يقتلون في بعض العهود خوفاً من سطوتهم وبأسهم . أولئك هم الذكور من بني اسرائيل تعمل في رقابهم سيوف آل فرعون ليبيدوا وينجو من ذلك النساء ، وفي القرآن الكريم : « واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ؛ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم »

ومثل هذا حدث للولدان زمن نمرود بن كنعان ، وقد ولدت ابراهيم عليه السلام أمه بعيداً ، وتركته بمغارة في فلاة من الأرض حتى كبر وشب ، ورأى

في الكواكب مارأي وكملت نبوته (١)

كذلك زمن ولادة عيسى عليه السلام ؛ وقد أمر (هيردوس) أن يقتل الصبيان ببית لحم ؛ فخرج يوسف به وبامه الى مصر ، حيث أقام سنتين ثم رجع بعد موت (هيردوس) (٢)

بل من تعاليم التوراة اذا كان الابن عاقلا لاييه وأمه غير سامع لقولها ، فليقبضنا عليه ويخرجاه لشيوخ المدينة ليرجموه حتى يموت (٣)

فأحر هذه المظالم التي تنسب للرأفة ان تكون فردية أو وقتية ، وفي عصرنا هذا وانه لشديد الفخر والاعتزاز بمانال من حريات وحقوق توجد مظالم من هذا النوع ، وان اختلفت مقاديرها وأسلوبها

فتلك عصابات تتاجر في الرقيق الأبيض وأولئك آباء يبيعون اولادهم تحت سمع العالم المتمدن وبصره . واليك مثالا واحدا من كثير

نشرت المصري بعددها الصادر في ٣ / ١١ / ١٩٥٣ مانصه :

اليابانيون يبيعون اولادهم :

طوكيو في ٢٢ — يؤخذ من بعض الاحصاءات الرسمية التي اذيعت اليوم أن أكثر من ألف وخمسمائة من أبناء اليابانيين قد باعهم أهلهم خلال هذا العام ، ومعظم هؤلاء الأبناء من الفتيات اللاتي تتراوح اعمارهن بين السادسة عشرة والسابعة عشرة ؛ وكان متوسط سعر الفتاة أو الغلام ١٠.٠٠٠ عشرة آلاف فرنك

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٣٢٠ (٢) المصدر نفسه ص ١٤٦

(٣) سفر تثنية الاشتراع ف ٢١ ص ٣٢٢ (٤)

العدد تضاعف

ويلاحظ أن عدد الأولاد المبيعين هذا العام قد تضاعف عما كان عليه في العام الماضي وتمعزى هذه الزيادة الى القحط الذى ساد عدة مقاطعات يابانية ، على أثر الخراب الذى أحدثته الامطار والسيول والاعاصير ١ هـ .
فأين هذا مما يقوله شاعر النيل حافظ ابراهيم فى اعزاز اليابانيين وشجاعتهم بلسان غادة اليابان :

نَبْتُونِي بِرَحِيلٍ عَاجِلٍ لَا أَرَى لِي بَعْدَهُ مُنْقَلَبًا
وَدَعَانِي مُوْطِنِي أَنْ أَغْتَدِي عَلَّيْنِي أَقْضَى لَهُ مَا وَجِبَا
قَلْتُ وَالْآلَامُ تَفْرَى مَهْجَتِي وَكَيْكَ مَا تَصْنَعُ فِي الْحَرْبِ التَّظْبَا ؟
أَحْسَبْتُ الْقَدَمَ مِنْ عَدَّتِهَا أَمْ ظَنَنْتُ اللَّحْظَ فِيهَا كَالشَّبَا (١)
فَأَجَابْتَنِي بِصَوْتِ رَاغِي وَأَرْتَنِي الظُّبَى لَيْثًا أَغْلَبَا
إِنْ قَوْمِي اسْتَغْذَبُوا وَرَدَّ الرَّدَى كَيْفَ تَدْعُونِيَ إِلَّا أَشْرَبَا
أَنَا يَابَانِيَّةٌ لَا أَثْنَى عَنْ مَرَادِي أَوْ أَذْوَاقِ الْعُطْبَا (٢)

ماذا يصنع كاتب التاريخ بعد ، ان هو نظر الى جانب واحد فقط ، وان كان فى جانب آخر امرأة هندية ترأس هيئة الأمم المتحدة عامًا كاملاً ، واخرى زعيمات وقائدات وسفيرات . لئن اقتصر فسوف يذكّر بعض الحق ويهمل بعضه الآخر ، وهو فى ذلك من القاصرين بل من الخاطئين .

فاذا كان الرجل حيناً يعامل المرأة بالعسف ، ويغتصب منها بعض حقوقها فذلك من نقص الرجل فى نفسه ، وكما حدث فى القديم ، فانه لا يزال يحدث كل

(١) مفردة الشبابة وهى حد كل شئ كالسيف مثلاً (٢) ديوان حافظ

يوم، وليس التظالم قاصرا على الرجل والمرأة . فكما نقرأ كثيرا أخبار من قتل زوجته أو بنته أو أخته ليدفع العار عن نفسه فكذلك نقرأ أخبار من قتل صديقه أو قريبه أو أخاه من أجل الشرف والكرامة .

ونستطيع ان نقول باطمئنان هذا هو القرآن الكريم يحدث ان الله سبحانه خلق آدم ونفخ فيه من روحه وخلق منه زوجته وبث منها رجالا كثيرا ونساء ، وهو في ذلك مصدق للتوراة والانجيل ومهيمن عليهما ، وقد اوحى ربك إلى الانبياء السابقين بالهدى والنور كما اوحى الى رسوله محمد ﷺ وكانت رسل الله تترى الى البشرية؛ ولكل أمة رسول؛ وإن من أمة الا خلا فيها نذير ، ومكان المرأة من الرجل مكان الفطرة السليمة كما أباتها الآية الكريمة : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

فلا بدع أن يعرف عقلاء الرجال للمرأة منزلتها وكرامتها ؛ كما يعرفون ذلك لانفسهم ، بل لالعجب ان يعرف ذلك الفطريون والهمجيون ، وكيف يستعبدونها من يعلم أنه بضعة منها وأنها بدورها بضعة منه ؟

قال رجل لمعاوية : كيف أنت وقد ملكك نصف رجل ؟ قال يابن أخى : انهن يملكن الكريم ، ويملكن اللئيم ، وهو لاشك قد انتفع بقول الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه : ما أكرم النساء الا كريم ، ولا اهانهن الا لئيم أما مكانة المرأة العربية فاليك الحديث عنها في فصلها الخاص .

المرأة العربية

، ومكانتها في قومها ،

وهل للمرأة العربية من مكانة في نفوس العرب وقلوبهم ؟

وما ظنك بمن كانت مكانته في التراب ، وعيشه في الرغام ، يورث كالانعام ،

ويدس في الثرى ان شاء مولاه ؟

هذه فكرة سائدة ، ربما ساعد عليها النظر السطحي في الآية الكريمة ، واذا

بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء

ما بُشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألساء ما يحكمون

يقرأ القارئ هذه الآية فيظن لأول النظر أنها تحدث عن العرب قاطبة

وعن فعلة فيهم شائعة فيأخذ منها مكانة المرأة عند العرب ، ومنعرض للآية

الكريمة بعد ، بما يتبين منها انها لا تساعد على ما يظنون .

وترى كثيرا من الكاتبين يُعَمِّمُونَ الحكم ، والتعميم غير سليم ، لايسلم

من ذلك بعض كبار الباحثين ، فهذا كاتب كبير ، له مكانه المرموق في مصر

والشرق كالاستاذ العقاد ، وكتاباته الاسلامية من أجل وأقوى ما كتب في بابها

يحدث عن المرأة العربية في كتابه المعروف «عبقريه محمد ، ﷺ فيقول :

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة في الجاهلية

وبعد ما صارت اليه بعد رسالة محمد ﷺ

« كانت متاعا يورث ، ويقسم تقسيم السوائم بين الوارثين ، فأصبحت بفضل

الاسلام ونيه صاحبة حق مشروع ترث وتورث ، ولا يمنعها الزواج أن تتصرف

بمالها وهي في عصمته كما تشاء وكانت وصمة تدفن في مهدها فرارا من عار وجودها

او عبثا تدفن في مهدها فرارا من نفقة طعامها فأصبحت انسانا مرعى الحياة
ينال العقاب من ينالها بمكروه ، (١) .

هذا كلام أدبي جميل . ولنا عليه ما أخذناه على سابقه . فهو إجمال يحتاج الى
تفصيل ، بل هو تعميم يجب فيه التخصيص ، فلم تكن المرأة في جميع احياء العرب
وشعوبهم وقبائلهم متاعا يورث . او عارا يدفن في التراب وإلا فكيف جاءت
الجحافل الجرارة ، والبطولات النادرة التي دكت المعازل . وثلثت العروش
وغيرت وجه التاريخ ؟ أمن تلك التي دفنت في التراب أم من هذه الذليلة
الحقيرة المستهجنة ؟

والحق أن المرأة العربية عند الكثرة الساحقة من العرب لم تكن بمنزلة
كريمة عند الرجل فحسب . بل كانت شريكه حياته ، وربة بيته ، وموضع احترامه
وإمراده أنسه . ومهوى فؤاده (٢) .

ترى ذلك جليا في أشعارهم وأخبارهم وتواريخهم تزخر به أسفار الأدب وكتب
التاريخ وهاك بين يدي البحث نماذج من كلام العربي الصميم في خطابه ومعاملاته
ونظراته الى امرأته حيث نراه يفتديها بنفسه ويخوض الغمرات صيانة لها ،
وغيرة عليها وفي ذلك يقول :

على آثارنا يبض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقن جيانا ويقلن لستم بعولتنا اذا لم تمنعونا (٣)

١ ، للاستاذ العقاد في كتابه الصديقة بنت الصديق كلام أوفى بموضوع المرأة
العربية مما ذكره في عبقرية محمد (٢) من خير المؤلفات التي عرضت لهذا الموضوع
باستيفاء محاضرات الاستاذ محمد سليمان بدير ، بكلية أصول الدين . وهي مطبوعة .
٣ ، معلقة عمرو بن كلثوم

يناديه نداء التكريم ، ويكنيها بكنى التعظيم ، ويخاطبها بأجل الخطاب :

ياربة البيت قومي غير صاغرة ضمي اليك رجال القوم والقربا

ويستشيرها في الذي يعنيه من أمره ، وفي كيفية نزول الضيفان به

ماذا تترين أندينهم لأرحلنا بجانب البيت ام نبنى لهم قبا (١)

ويستدر عطفها ورضاها ، ويتطلب فيه جميل رأيها :

صبات الكاس عنا أم عمرو وكان الكاس مجراها اليمينا

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لاتصبحينا (٢)

ويسألها الثناء عليه والشهادة له .

اثني على بما علمت فاني سمح مخالطتي اذا لم أظلم

.....

هلا سألت الخيل يابنة مالك ان كنت جاهلة بما لم تعلني

يخبرك من شهد الواقعة أنني أغشى الوغي وأعف عند المغم (٣)

بل انه ليستنكر ضربها ، ويعده غير لائق بكرام الرجال ، ويطلق لها التصرف

في بيتها ثقة برجاحة عقلها ، وحسن تصرفها :

وما انا بالساعي الى ام عاصم لا اضربها في اذا لجهول

لك البيت الافينة تحسنينها اذا حان من ضيف على نزول

وليس ذلك بالنزر اليسير في آداب العرب وأشعارهم ، ولا هو من خلائق

بعض أفرادهم بل انك لتقرأ الوفير الغزير من شعر العرب وقصائدهم ومطولاتهم

فقلها تجد قصيدة تخلو من وصف المرأة واطراء محاسنها وخلالها .

١، الحماسة لابن تمام ، ٢، معلقة بن كلثوم ، ٣، معلقة عنتره

وتقرأ تاريخ العرب فترى من ملوكهم واشرافهم من ينسب لأمه ، ويعرف بها كما عرف بأبيه ويمدح بها فلا يجد في ذلك غضاظة عليه ، بل انه ليزداد شرفا الى شرف ، فهذا عمرو بن المنذر بن ماء السماء الملقب بعمرو بن هند ، وأبوه المنذر غلب عليه لقب امه ماء السماء لصفاتها وبهاثها ، أو لجمال حسنها ، وهؤلاء ملوك غسان يمدحون بأهمهم مارية ذات القرطين ، ويقول فيهم حسان بن ثابت رضى الله عنه

أبناء جفنة عند قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
وليبد بن ربيعة يفتخر بين يدي النعمان بامه أم البنين :

نحن بنى ام البنين الأربعة ليوث حتف وجفان مترعة

ومدركة جد النبي ﷺ وأخواه طابخة وقعة أبناء الياس بن مضر غلبت عليهم النسبة الى أهمهم فقيل ابناء خندف (١) ومزينة وباهله وبجيلة قبائل من العرب عرفت بأمامها

وضرب المثل بالمرأة في العز والمنعة كما ضرب بالرجل ، فكما قيل أعذر من كليب وائل ، قيل أمتع من أم قرقة (٢)

١. ذكره صاحب القاموس

٢. أم قرقة امرأة مالك بن حذيفة بن بدر الفزاري وكان يعلق في بيتها خمسون سيفاً كل سيف لذى محرم لها .

وتكهنّت المرأة العربية كما تكهن الرجل ، واحتكم الرجال اليها ، (١)
وتنبأت كما تنبأوا ، فالى جانب مسيلة ، وطليحة الاسدى ، كانت سجاح التى انقاد
اليها قومها من بنى تميم

وفى الفصل السابق رأينا بلقيس العربية ملكت فى اليمن بالجنوب ، والزباء
او زينب ملكت فى الشمال ، وسيمون كما يذكر المسعودى فى مروج الذهب
ملكّت فى بعض جهات العراق اربعين سنة .

وتقرأ أيام العرب وحروبهم ووقائعهم فكثيرا ما ترى الحرب هاجت بكلفة
منها ، أو لحادثة مستها ، كما قد تهدأ رحاها عن رأيها ومشورتها ، فحرب البسوس
وقد دامت بين بكر وتغلب اربعين سنة قامت انتصافا لجار امرأة وحرب ذى
قار وفيها انتصف العرب من العجم بسبب مقتل النعمان من اجل رفضه مصاهرة
كسرى فى خبر طويل (٢) وتخرج المرأة كثيرا الى المعارك الحربية ، فتأسو
جراح المجروحين ، وتنزل الثبات على قلوب المتهبين وتشعل نار البسالة والاقدام
فى صدور المستبسلين ، كما كان فى موقعة ذى قار ، وكما حدث فى حرب الفجار
ولقد كانت أحيانا تجير على القوم ، بل يتفق لها ان تكون من قبيلة نسابو فى

١٠ ، واحتكم الرجال اليها من ذلك ما رواه ابن اسحاق فى حفر عبد المطلب زمزم
ومعارضة قريش له ، واحتكامهم الى كاهنة بنى سعد هذيم باشراف الشام ، وما حل بهم
من العطش المميت ببعض الطريق وانبعث الماء من نبع تحت ركبة بعير عبد المطلب
فسقوا جميعا ، وانصفه قومه وقالوا والله لانخاصمك فى زمزم ابدا ان الذى سقاك
هذا الماء فى هذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم فارجع الى سقايتك راشدا - ولم
يصلوا الى الكاهنة .

راجع القصة بطولها ص ١٥٥ ج ١ .

٢٠ ، الاغانى ج ٢

أخرى صهرا ، فتكون ملاذ الفريقين في البأساء ، يلوذون بحماها ، ويحتمون
بخبأها ، فيُجار من تجير ويصان من تصون كما حدث لسبيعة بنت عبد شمس
في حرب الفجار (١)

وكانت تستشار في زواجها كهند بنت ربيعة ، وكان من النساء من تملك
عصمتها ، ويكنيها لفراق زوجها ان تشعره بانصرافها وتحويل باب خباتها
وكانت ام عبد المطلب فيمن ملكن عصمتها (٢)

وينبغ من العرب الشاعرات والخطيبات ، وكن يردن الاسواق الأدبية كعكاظ ،
فينشدن الأشعار ويخطبن على الرجال ، ويساجلنهم أفانين القول ، وضروب الكلام (٣)
أما حرمانها من الميراث فكان ذلك في رأيهم لانها معفاة من كثير مما
كلف به الرجال فهي لا تبأشر الحرب كما يباشرون ، ولا تفتح بيتها للضيفان فتبظهرها

١٠، الاغانى ج ١٩ فى ذكر ايام الفجار ان مسعود بن معتب الثقفى ضرب
لزوجته سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف القرشية خباء وقال لها من دخله من
قريش فهو آمن فجعلت توصل فى خباتها ليتسع لمن يلوذ بها من قومها ثم دارت
الدائرة على قيس فلاذوا بها فامضى جوارها حرب بن اميه القرشى وقال لها يا عمة
من تمسك باطناب خباتك او دار حوله فهو آمن فخرج زوجها مسعود منهزما
لا يعرج على شىء حتى اتاها فجعل انفه بين يديها وقال لها انا بالله وبك ،
فقال: كلا - زعمت انك ستملا بيتى من اسرى قومى اجلس فانت آمن .

٢، السيرة الحلبية ص ٧ نقلا عن الهاشمية

٣، الاغانى ج ٣ ص ٢٦ فى اخبار بشار وقد سئل عن عريته وعدم لحنة: فقال:
ومن اين يأتينى الخطأ ولدت ههنا ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل
ما فيهم احدي عرف كلمة من الخطأ وان دخلت الى نساءهم فمساؤهم أفصح منهم وايفعت
فأبديت حتى بلغت فن اين يأتينى الخطأ ؟

واجبات الكرم وضرورات الشرف ومن حرما فقد حرم الصغير لذلك
رهي لا تخترم التملك ، أو التصرف فيما تملك ، والارتزاق والاتجار ان
شاءت ، غير أنها غالباً تكفى ذلك بمن يليه لها من الرجال ، على ان تكفيه
البيت وما فيه .

أما وأد البنات في الجاهلية فلم يكن ذلك عاما في العرب ولا فاشيا فيهم ، وإنما
كان في بعض قبائلهم خوف العار وخشية الفقر .

ذكر المؤرخون انه في بني تميم ثم استفاض في جيرانهم ، وسبب ذلك
ان بني تميم وحلفاءهم كانوا يؤدون الاناوة الى النعمان ملك الحيرة . ثم منعوها
في بعض السنين فجرد عليهم جيشا هزمهم وساق انعامهم ، وسبي ذراريتهم ، فأرسل
بنو تميم يطلبون السبايا من النساء والاموال فأبى ، فسأله النساء ، فقال كل
امرأة اختارت اباه ردت اليه ، وان اختارت صاحبها تركت عليه ، فكلن اختارت
أباهن الا ابنة لقيس بن عاصم سيد بني تميم ، فانها اختارت عمرو بن المشمرج
وآثرت البقاء معه على الذهاب مع ابها ، فغضب قيس ونذر ألا تولد له بنت
الا قتلها ، وغضب القوم لغضبه من أجل الشرف ، وقلدهم بعض الناس في ذلك
وساعد عليه لدى بعض الاحياء غلبة الفاقة وخشية الفقر كما روينا مثله عن
اليابان في أيامنا هذه

حتى اذا تاب القوم لرشدكم ، استنكر عقلاؤهم هذه الفعلة الشنيعة
وأذكروا على قيس عمله ، ورأوه أمرا مائدا (١) ، وقام بعضهم يناهضها ، ويفتدى
البنات من أهلها ، وشهر بذلك صعصعة بن ناجية جد الفرزدق الشاعر المشهور
وقال في ذلك يشتر:

ألم تر أنا بني دارم زارة منا أبو معبد

(١) الامر الإد بالكسر ، وتفتح الهمزة : المنكر

ومنا الذى منع الواثدا ت وأحيا الوئيد فلم تؤاد
ومجد بنى دارم دونه مكان السماكين والفرقد (١)

هذا :

والآية الكريمة ليس فيها دلالة على ان جميع العرب كانوا يصنعون ذلك
وبقليل من التأمل فى سياق الآيات قبلها يستبين لنا انها تتحدث عن فريق زادت
شناعة جرمهم ، وكفروا بأنعم ربهم يلجأون اليه فى الشدائد فإذا كشف الضر
عنهم أشركوا به ، وجعلوا الكفران بديلا من الشكران وما بك الا أن تدعيتك
الى كتاب الله فتقرأ فيه من سورة النحل وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم
الضر فإليه تجأرون ، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون
ليكفروا بما آتيناهم فتسمتّعوا فسوف تعلمون ، ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم
ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من
القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ،
والآيات بعد جلية فى أن الحديث عن فريق من المشركين لاعتن جميع
المخاطبين ، وهذا هو مورد النهى فى قوله تعالى ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق
نحن نرزقهم واياكم ، وان كان اللفظ عاما ، لان اوامر الله ونواهيها تشمل جميع
المكلفين .

وبعد :

فاذا كنا نحاول وضع قضية المرأة العربية فى أطوارها الحقيقى ، فليس معنى
ذلك الدفاع عن العرب ، او نكران ما كانوا عليه من نقائص ومساو ، فالعرب
قوم لهم حسناتهم وسيئاتهم ، كافح الاسلام سيئاتهم وقضى على كثير منها ، وزكى

(١) الكامل للبرد ج ١ ص ٢٨٣ وما بعدها

حسناتهم وانتفع بها اكبر انتفاع في حمل دعوته الى العالمين ، والله اعلم
حيث يجعل رسالته ،

العرب امة من الامة فرضت عليهم معيشتهم وبيئتهم خلائق من الخير
والشر ؛ ولم يكونوا جميعا يكرمون المرأة ويحفلونها ، كما لم يكونوا جميعا
يحتقرونها ويستهيئون بها ، وكانت لهم أنظمة في النكاح والطلاق ، منها الصالح
ومنها الفاسد فما كان صالحا ابقاه الإسلام وما كان شرا محاه .
وحياة العرب في ظلال الحرية الكاملة التي لاحكومة فيها ولا سلطان
غالبا الا ما تعارفوا عليه وارتضوه غلبت عليهم الطباع الفطرية التي لا نفاق
فيها ولا التواء ، والتي قد تصل بأحدهم إلى أبعد مدى من المروءة والكرامة
والنجدة ، كما قد تنزل بالبعض إلى مهاوى الرذيلة والشراسة ، وقلبا تجد من بينهم
وغندأ خسيسا يقبل الضيم ويرضى بالهون ، وكثيرا ما تجد الفاتك المتقمصهم يركب
الشطط ويخوض الغمرات :

إذا هم لم 'تردع' عزيمة همه ولم يأت ما يأتي من الأمر هائبا
إذا هم ألقى بين عينيه همته ونكسب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا
لا يبالي أهدم روحه أم هدم داره

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا على قضاء الله ما كان جالبا
وأذهل عن دارى واجعل هدمها لعرضى من باقى المذمة حاجبا (١)
هذا العربي قد يصل به العفاف والتكرم إلى حد قوله :

(١) ديوان الحماسة قائله سعد بن ثابت شاعر إسلامي أموي .

وَأَغْضُ طَرْفِي حِينَ تَبْدُو جَارِقِي حَتَّى يُوَارِي جَارِقِي مَخْبَاهَا
وَقَدْ يَسِفُّ إِلَى حَدِّ أَنْ يُكْرِهَ إِمَاءَهُ عَلَى الْبَغَاءِ تَكْسِبًا بِأَجُورِهِمْ ، حَتَّى
وَلَوْ أَبْنَيْنَ ذَلِكَ .

ولو داخلك العجب من أمر كهذا فلا بأس أن تذكر أنا منذ قليل ونحن
أهل الإسلام ، وفيما كتاب الله يُتلى ، وتُدرس آياته وعظاته ، ومصرُّنا
العزيزةُ بلد الأزهر ، وزعيمةُ المسلمين ومع كل هذا فكان البغاء رسميا
وكانت له دوره ومواخيرُ ونظمه ، بل ولا يستحي أقوام أو أشباه أقوام أن
يطلبوا إعادته بعد إذ قضى عليه .

أما البيئة العربية فكانت بما تيجش به من قوة وحيوية ، وما تزخر به من
خير وشر ، وما يفسهاها من ظلام دَامِسٍ وضلال مبین ، أنسَبَ اليثا لنور
الإسلام يمحوظا لها ، وصلاحه يزيلُ فسادها ، وهُدَاهُ ، يكشف ضلالها
فاذا هي في نورها وصلاحتها وهداها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف
وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وهي في ذلك تحمل مشعل النور والهداية
إلى الناس أجمعين .

وقبل أن أمضي في الحديث عن هذا النور الإلهي الأَكْبَرِ ، ونصيب المرأة
فيه ، أراني مضطرا إلى فصل أقدامه بين يديه ، يتحدث عن المرأة والرجل في ذات
أنفسهما قبل الحديث عن آثارهما وأعمالهما .

هل تساوى المرأة الرجل في القوة الجسمية؟..

هذه قضية ما كان أغنانا عن الحديث فيها ، فللرجل مكانه من الحياة . كما للمرأة مكانها ، وإذا كانت المرأة لاتغنى غناء الرجل ، فليس يُغنى الرجل غناءها ، ولن يقوم أحدهما بدون الآخر ، فهما معا مادة الحياة .

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ،

وإذا كانا متكاملان ويتعاونان على مقتضى الفطرة وشرعة الله فليس يعنى ذلك أنها حتما متساويان .

وإن مجرد النظر إلى كل منهما وقد أبدعته القدرة الإلهية التى أحسنت كل شيء صنعا ، يرينا اختلاف جانب الرجل من الحياة عن جانب المرأة ، فخلقه على ماهو عليه يؤذن بواجباته التى هدى إليها منذ الخليقة ، كما أن صورة المرأة وخلقها يوحى بما هو منسوط بها من الواجب الأقدس فى الحياة فكما خالفت الرجل فى جسمه خالفته فى وظيفته وعمله .

ومن هذا التنوع فى الواجبات والأعمال تكمل ضرورات الحياة ، ويتم به العمران .

هذه حقائق واضحة ومحسوسة ، يراها الناظر العادى ، كما يراها الباحث الفلسفى ، ولكن قوما لا يعجبهم التسليمُ بهذا الواضح البين فتراهم يمارون فيه زاعمين أن الطبيعة وهبت المرأة والرجل مواهب متماثلة ، ويحاولون التدليل على ذلك بإثبات مساواة الأنثى للذكر فى عالم الحيوان ، وتفوقها عليه فى بعض الأنواع ، وينسبون هذه الفروق الظاهرة بين الذكر والأنثى فى القوة والجلد إلى العادات والقوانين التى ظلمت المرأة وألزمها القرار فى بيتها ، وحرمتها أنواع

النشاط الخارجى وكثرة التجارب والخبرة فى الحياة حتى عاد الرجل قىما عليها
يسلبها حقها ويتصرف فى جميع شئونها ، فوهن لذلك جسمها وحدث الوهن
من تفكيرها ، وأضعف شخصيتها .

يقول المرحوم قاسم أمين (١) : المرأة وما أدراك ما المرأة ؟ لا تختلف عنه
فى الأعضاء ، ووظائفها ، ولا فى الأحساس ولا فى الفكر ولا فى كل ما تقتضيه
حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان إلا بقدر ما يستدعيه اختلافهما فى الصنف
ثم يزيد هذا المعنى تقريراً فيقول بعد :

« فإذا فاق الرجل المرأة فى القوة البدنية والعقلية فذلك إنما لأنه اشتغل بالعمل
والفكر أجيالاً طويلة كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين
ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط فى الشدة والضعف على حسب الأوقات
والأماكن ، .

وينقل فى كتابه المرأة الجديدة (٢) عن جملة من العلماء الأوربيين ما يؤيد
وجهة النظر هذه ، ويذكر عن أحدهم وقد وصفه بأنه العلامة « ماتتجازا ،
المدرس لعلم الإنسان والعضو فى مجلس الشيوخ الطليانى فى كتابه ، فسيولوجيا
المرأة ، قوله : « ما أ كفر الرجل ألجأه كبره أن يزور حتى فى علم التشريح
فلم يكتف بأن يغتصب المحل الأول فى العالم ، بل أراد أن يبرهن أن
المرأة أقل منه فى الإنسانية وأنها فى مرتبة بين القرد والانسان ، ولهذا
فيكون له الحق فى أن يجردها عن الحقوق التى منحها نفسه ، وكأنه نسى أن
الذات التى يريد أن يحط منها هى أمته . والحقيقة أن المرأة أمام علم التشريح
ليست أقل من الرجل ولا أرقى منه ، وإنما تختلف عنه لأن لها وظائف تقوم

(١) فى كتابه تحرير المرأة فصل تربية المرأة

(٢) تحت عنوان : حرية المرأة

بها غير وظائف الرجل ، ثم علق عليه بقوله : وقد بين هذا العالم الاختلافات الدقيقة التي توجد بين الرجل والمرأة بالنسبة للإحساسات والعواطف .

وهذا الكلام لا يرد علينا معشر المسلمين شيء منه ، فلم تكن المرأة في نظر الإسلام يوما أقل إنسانية من الرجل فضلا عن أن يعتبرها منزلة وسطا بين القرد والإنسان وليس هناك شخص في الإسلام له مثل واجب الأم من الرعاية والعناية والتكريم (١) ولئن كانت المرأة أمام علم التشريع ليست أقل ولا أرق وإنما تختلف عنه لاختلاف وظائفها فذلك لا يجافي الإسلام ، بل هو برهان له وتأييد ، فإذا زاد عقل الرجل وزخرت عواطف المرأة فذلك فيهما معا من كمال الفطرة وحظ النوع البشري ، ولو كان الرجل عاطفيا فأني له أن يثبت في صراع الحياة وقراع الخطوب ولو نضبت عواطف المرأة وغلبها عنصر التقدير والتفكير فما الذي يغريها بذلك الحمل كرها والوضع كرها حتى تشارف الموت وتنتظره ، ويهون عليها ما يلي ذلك من آلام النفاس ورعاية الولد ؟

اللهم لا شيء إلا عواطف الأمومة الزاهرة حيث تحتل الأم الآلام في سبيل وليدها ، وتستعذب العذاب من أجل رضيعها ، واجدة في مناغاته أجمل الألحان وأعذب الأمانى شاعرة بأن حياته من حياتها ، وبأن سعادته من سعادتها هذا : والعالم الإيطالي الذي يرمى الرجل بالتزوير في علم التشريع هو نفسه يثبت الاختلافات بين الرجل والمرأة .

ولو تجاوزنا عن تجارب العلماء وموازينهم ، ومقاييسهم وتشريحهم لا يمكن أن نلاحظ بعيدا عن المعامل والخباير بالأعين المجردة فروقا بما بين الرجل والمرأة لا يرتاب فيها عاقل فصغر الرأس في المرأة واضح جلي يعمله العالم والجاهل

(١) وفي الحديث من أحق النساء بحسن صحابتي قال أمك ، قال ثم من ؟

قال: أمك ، قال : ثم من ؟ قال أمك قال ثم من قال : أبوك

وسرعة نمو الفتاة عن الفتى، ونضوجها المبكر، وميلها إلى بناتها الصغار، واعتبارها كل صغير بنتا لها أمر مشاهد كذلك، دع عنك اختلاف الأعضاء الخاصة بكل نوع .

أما الزعم بأن هذا من أثر العادات والتقاليد والحياة التي عاشتها المرأة سجيئة فقير سليم، لأن هذه الفروق تشاهد عند المتمدنين الذين درجوا حينا على حجب المرأة كما تشاهد عند القرويين والبدويين حيث المرأة شريكة الرجل كثيرا في الاعمال، بل عند المتوحشين الذين يكلفون نساءهم الحرث والسقى والزرع والذين لا يعرفون عادة حجب النساء كما يرويه الباحثون .

ولو صح ما يدعون فماذا تعلل هذه العادات والتقاليد والقوانين، وكيف نشأت وبقيت كل هذه الأزمان الطويلة منذ الخليقة الأولى، وكيف لم يتسن تغييرها في زمن من الأزمان حتى توافق الحق والعدل ولو في بعض الأحيان؟ وكيف لم تؤثر المرأة على الرجل كما تأثرت طبقة على أخرى حتى يفرض الرجل إلى الاعتدال؟ ما لنا نشاهد المرأة لا تعجب إلا بالفحل من الرجال، ذلك الذي تحس بالضعف بين يديه، ألا أنها خلقت لتثور عليه، أم لتركن إليه؟

لا شك أن بعض العادات والشرائع المتبعة عند كثير من الأقوام قد ضمنت الفروق بين الرجل والمرأة فتبع ذلك اجحاف بحقوقها من جانب الرجال ولكنه ولا ريب - لولا وجود الفوارق الطبيعية، والمميزات الجسمية والعقلية لما نشأت هذه العادات وتلك التقاليد واليك طرفا مما أثبتته العلم الحديث في الفروق بين الرجل والمرأة سواء في البدو أو الحضرة، والمدنيين أو المتوحشين .

يذكر الباحثون : (١)

« ١ » من أهم الكتب التي انتفعنا بها في هذا البحث « خلق المرأة والمقارنة بينها وبين الرجل له نرى ماريون » دائرة المعارف للرحوم و جدى ، وكذلك كتابه المرأة المسلمة

أن قامة المرأة في جميع الاجناس أقصر من قامة الرجل ، وذلك منذ المهد فالذكر يولد أكبر من الأنثى ، ومعدل الفرق بينهما عند تمام النمو ١٠ سم - وكذلك الوزن ويظهر جليا في الهيكل العظمى فهيكلك المرأة اخف وزنا من هيكل الرجل ليس في ذاته فحسب ، بل كذلك بالنسبة لوزن الجسم ، وتركيب الهيكل يجعلها أقل قدرة على الحركة والانتقال . وعضلاتها أضعف من عضلات الرجل بقدر الثلث - وتفضله هي في النسيج الخلوى الذى يحوى كثيرا من الاوعية الدموية والليمفاوية والاعصاب الحساسة ويسمح باخزان طبقة دهنية وعلى هذا النسيج بما فيه تقف استدارة شكلها ، ورشاقة قدّها .

فاذا أتينا الى الرأس وجدنا ان مخ الرجل يزيد في المتوسط عن مخ المرأة بمقدار مائة جرام - وليس ذلك راجعا الى اختلاف حجم الجسمين لأنه قد شوهد أن نسبة مخ الرجل الى جسمه كنسبة $\frac{1}{4}$ ، أما نسبة مخ المرأة الى جسمها فهي $\frac{1}{4}$ ، وفرق بين النسبتين ، وغير هذا فان مخها أقل ثنيات ، وتلافيفه أقل نظاما ، كذلك يوجد اختلاف بين المخين فى الجوهر السنجاني الذى هو النقطة المدركة من المخ ، فهو عند النساء أقل منه عند الرجال بدرجة محسوسة . ولكن فى مقابلة ذلك نجد مراكز الاحساس والتهيج عند المرأة أحسن تركيبا منها عند الرجل (١) فاذا انتقلنا الى الجهاز التنفسى رأينا المرأة متخلفة عن الرجل فى سعة الصدر والرئتين . والتنفس لديها أسرع ولكنه انقص من الوجهة الكيماوية فالرجل اكثر امتصاصا منها للأوكسجين واطلاقا للحمض الكربونى ، ولذلك نجد المرأة دون الرجل فى درجة الحرارة .

أما القلب فهو في المرأة أصغر منه في الرجل ، ونبضه لدى المرأة أسرع ،
واكثر بما يتراوح بين ١٠ ، ١٤ مرة في الدقيقة ، ويشاهد مثل ذلك الفرق بين
انثى الحيوان وذكره .

وإذا كان بعض هذه الفروق مما يختلف فيه آراء الباحثين ، فإن مجموعها
ثابت لاسبيل الى جحده او الشك فيه ، وهي بعد ليست سبيلا لا تنقص قدر
المرأة او توهين شأنها ، وليست شهادة بتركيز الرجل واعلاء قدره ، وانما
هي فقط دليل قاطع على تنوع الاعباء والواجبات في الحياة بما يناسب الفطرة
ويزكها ، ويضمن استغلال المواهب الانسانية على احسن حال واكمل
وجه ، وكل ميسر لما خلق له ،

هذه هي المرأة وقد كتب عليها في الحياة ان تكون والدة تحمل الجنين
وتضعه وترضعه في حولين كاملين أو أكثر ، وتقوم على شئونه لتدفعه للمجتمع
عضوا عاملا ينفعه وينتفع به ، فمن لها وتلك حصتها اذا لم يكن على الرجل
تعاهدها ورعايتها والحنو عليها ؟

من يقوم بغذائها وكسائها وعلاجها وقد شغلها الطفل حتى عن نفسها ؟
اليس هي في حاجة ماسة الى معونة الرجل حينذاك ؟

أليس المجتمع يكون ظلما إن ترك امر عيشها اليها ، فكلفها بذلك ضعف
ما يكلف به الرجل ؟

يقول الاستاذ هنري ماريون (١) :

قلله در هكسلى القائل : « مادامت الأمومة حصّة المرأة فانها حمل ثقل
عليها في ذلك السباق الذى يسمى الحياة » فواجب الرجل ان يخفف عنها ذلك

الحمل ، او على الأقل ألا يضيف اليه اثقالاً أخرى فيزيد الحيف الذي نالها من الطبيعة .

ويقول : ان في حياة المرأة على الخصوص في العارض الابتدائي (بين سن ١٢ ، ١٤) وفي العارض الهائي (حوالى سن ٤٥) جملة اخطار تجعلها عرضة للضعف والعطب ...

ان المرأة في اجمل دور من حياتها — حتى اقصى النساء وارزهن عقلا وجسدا عرضة لمشاق وشدائد متفاوتة في الخطورة ، فقد كتب لها ان تعرف ايام تعب وضعف تتكرر في اوقات معلومة ، وان تكون شديدة التأثر والانفعال من أتفه الاسباب ، كثيرة التعرض للغم والكرب والتخوف والتوجس ، ميالة الى العزلة والهدوء ،

ذلك هو الجعل المفروض عليها تكبده للاحتفاظ بالجنس ، ولهذا كانت ضرورة التكافل بين الرجل والمرأة قاضية بالتعاون التام بينهما القائم على اساس تخصص كل في اعماله واعبائه بحيث يحىء من مجموعهما وحدة كاملة في حياتها وعيشها واهدافها على اساس وطيد من النظام والانسجام .

والإسلام وهو دين الفطرة الذى أنزله مبدع الكائنات ، وبارئ السمات ، لم يكن منه الا رعاية هذه المفارقات لخير الطرفين على السواء ، فسان المرأة ورعاها فتاة وزوجة وأمّاً ، وأوجب لها من الحقوق الشيء الكثير على الرجل والمجتمع ، فرضا لازماً ، وحقا مقضيا ، لاصدقة ولا تفضلا ، كفاء ما تقوم به من اعباء ، وما تنهض به من تبعات لا ينهض بها الرجل ، ولا تكون بغيرها الحياة .

المراة والدعوة

ظهرت المرأة في ساحة الإسلام منذ اللحظة الأولى عاملاً إيجابياً له أثره البالغ فيه ، ثم لم يزل ذلك الأثر واضحاً بارزاً حتى أتم الله دينه ، وأكمل يقينه ، وارتفعت راية الإسلام وعلت كلمته في العالمين .

وإذا كانت المرأة المسلمة لها سجلها الحافل في تأييد هذا الدين ، ورفع قواعده ، فللمراة الكافرة موقفها الإيجابي في مناوآته ومعاداةه منذ كان دعوة ناشئة ، الى أن صار أمة ناهضة تحمل المهند في وجوه الصادين عنه ، حتى شرح الله صدرها للإسلام فاجتذب قلبها فيمن اجتذب ، أو تمادت في عنادها فقتضى عليها فيمن قضى وستتابع هذا الجهاد في مراحلها المختلفة .

وأول ما يلفت النظر في هذا السبيل ، بل ويملاً القلب إعجاباً وروعة ، هو الموقف الجليل من سيدة الإسلام الأولى ، تلك التي استقبلت الدعوة فجراً صادقاً لم ينبجج نورهُ ؛ ولم يستبن بعد ضياؤه ، بل لم يطمئن الرسول نفسه الى هدف ذلك النور ومبتغاه ؛ فها هو ذا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وقد أتاه جبريل بحراء يبلغه آيات من القرآن الكريم ويتلو عليه قول الله سبحانه « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، فيرجع بها وفؤاده يرجف ، يقص على زوجته ما رأى ، ويقول : « والله لقد خشيت على نفسي ، فتبش له وتبش ، وتبصر بظهر الغيب ما يمكن أن يكون لمثل ذلك الرجل الذي اصطفاه مولاه فصفاه ، وأدبه فأحسن تأديبه وصنعه على عينه ، وجمله بالخلق العظيم والخلق الرسيم والحكمة البالغة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته تقول له : « كلا والله لا يخزيك

الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتعين على نواب الحق ، أبشر يا بن عم واثبت ، ثم لم يكفها ذلك حتى تنطلق معه الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان امراً كبيراً مجرباً ، تنصر وقرأ من الكتاب ما شاء الله فقالت يا بن عم اسمع من ابن أخيك ، فسمع ورقة منه ، ثم بشره بأنه النبي المنتظر ، وأن هذا هو الناموس الاكبر الذي انزله الله على موسى ، وتمنى أن لو امتدت حياته لينصر النبي .

بل مالنا لانمد أبصارنا وقلوبنا الى ما قبل ذلك لنعلم أن موقف خديجة أعمق من ذلك في حياة الاسلام وأبعد . لقد كان ربك يُعد نبيه أكمل الاعداد لحمل الأمانة العظمى ، والرسالة الخاتمة ، وكانت خديجة أكبر معين للرسول في هذه الفترة الهامة ، ترعى له بيته وولده ، وتهبى له الجواهر الهادية السعيد ، وتعد له زاداً ليخلو بغار حراء ، يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، ثم يرجع لاهله فيتزود لمثلها ، الى أن جاءه الملك . فكانت رضى الله عنها أول من آمن به ﷺ وكانت سكنه وملاذه من جهاد قومه ، وكانت سند الدعوة بما لها وجاها حتى استحققت أن يقرئها جبريل السلام من الله الكريم مبشراً اياها ببيت في الجنة من قصب (١) الى ان اختارها الله لجواره .

يدعو الرسول الى ربه ، ويعلن على قريش دعوته ، ويؤمن بها من شرح الله صدره للاسلام من الرجال والنساء ، وتفقت قريش في الصدق عن دين الله ، وتبلغ من أذى المسلمين ما يبلغ الحياة نفسها ، ويشاء الله ان تكون المرأة أول الشهداء في الاسلام ، فهذه ام عمار بن ياسر في يد جلادها ليفتنوها عن دينها ، فتأبى حتى تقضى نحبها ، وتفارق الحياة مؤمنة برب الحياة .

(١) البخارى وغيره - والقصب هنا هو الدر الرطب المرصع بالياقوت

١ ه قاموس .

تلك وغيرها من المسلمات كثيرات يحتمل العذاب الوانا ؛ فلا يصدهن ذلك عن دينهن . ويفيض الأذى حتى يتجاوز كل حد ، ويحزن الرسول اشفاقا على اصحابه ، ويُشير عليهم بالهجرة قائلا : « لو خرجتم الى الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد... حتى يجعل الله لكم فرجا مما انتم فيه... فيخرج المسلمون بدينهم مهاجرين ، يبلغون نيفا وثمانين ومن بينهم ثمان عشرة امرأة .

وهذه الفترة من الدعوة ، فترة الصبر والتحمل والثبات ، لاتقف المرأة المسلمة الموقف السلبي صابرة محتسبة فحسب ، بل تكون داعية ومؤيدة ، فذا ان بطلان من ابطال الاسلام اقاما على دين القوم حينما حتى اذا شاء ربك أن يُعزهما بالاسلام ويُعزّيهما الإسلام هيا لهما المرأة لتدفعهما اليه دفعا .

أما أولها فصقر قريش وعم الرسول حمزة بن عبد المطلب

حدث ابن هشام وغيره ان أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ فأذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ، ثم انصرف عنه ، فعهد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحا قوسه ، راجعا من قنص له ، وكان اذا رجع من قنصه لم يصل إلى اهله حتى يطوف بالكعبة ؛ وكان اذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم عليه وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله ﷺ الى بيته فقالت له : يا أبا عماره لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفا من ابن الحكم بن هشام !! وجده ههنا جالسا فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته فخرج يسعى ولم يقف على أحد

مُبعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضر به بها فشججه شجة منكرة ثم قال له : أنشتمه فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد على ذلك إن استطعت . فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل دعوا أبا عماره فإني والله سببت ابن أخيه سبا قبيحا ، وتم حمزة رضى الله عنه على اسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله من قوله .

قال ابن اسحق : فلما اسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه . وأما ثاني البطلين فعمر بن الخطاب ، وكان من أشد الناس إيذاء للمسلمين ، فلما أراد الله له الهدى جاءه ذلك على يد امرأة من خاصته .

حدث ابن اسحاق قال : خرج عمر يوم متوشحا بسيفه - وذلك بعد خروج من هاجر الى الحبشة - يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه ذكروا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من اربعين من بين رجال ونساء .. وفيهم حمزة وأبو بكر وعلى .. فلقى نعيم بن عبد الله وكان مسلما يستخفى باسلامه فقال له : اين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد هذا الصابي الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غررتك نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركك تمشى على الارض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال وأى أهل بيتي ؟ قال : خنتك وابن عمك سعيد بن زيد واختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلمها وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما - قال : فرجع عمر الى اخته وخنته وعندهما خباب بن الارت معه صحيفة فيها د طه ، يقرنهما إياها ، فلما

سمعوا حس عمر تغيب خباب في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الحسينة التي سمعت ؟ قال له ما سمعت شيئا قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه اخته فاطمة لتكفه عن زوجها فضربها فشجها فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه نعم أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدالك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لاخته : اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأون أنا أنظر هذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر كاتبها فقالت له أخته انا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي وحلف لها بآلته ليردنها اذا قرأها اليها ، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه وقالت : يا أخى إنك نجس على شركك ، وانه لا يمسا الا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل فاعطته الصحيفة ، فلما قرأ صدرا منها قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج اليه فقال يا عمر اني لأرجو ان يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فاني سمعته امس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام او بعمر بن الخطاب فآله الله يا عمر فقال عمر فدلتني يا خباب على محمد حتى آتته فأسلم . . . فلما اسلم عمر سبر رسول الله وكبر بتكبيره المسلمون

وكذلك كانت اخت عدى بن حاتم الطائي داعيته الى الإسلام في خبر

طويل (١)

وكان من النساء من تسلم وإن تأخر زوجها ومنهن من تدعو الى هذا الدين تعلن ذلك ان استطاعت او تخفيه

فأم سليم بنت ملحان الانصارية تسلم مع السابقين ، فيغضب زوجها مالك ، ويخرج الى الشام فيموت هناك . ولما خطبها ابو طلحة وكان مشركاً تقول له : أأنت تعلم ان آهلك الذي تعبدت من الأرض ؟ قال : بلى ، فتقول ألا تستحي ؟ أتعبد شجرة ؟ إن أسلمت فاني لا أريد منك صداقاً غيره ، فيقول لها حتى أنظر في امرى ، فيذهب ويحيى مسلماً . فتقول لابنها أنس زوج أبا طلحة (١) وقريب من هذه تلك التي يخطبها الرجل فتأني عليه حتى يهاجر ، وبها عرف وسمى مهاجر أم قيس .

وام شريك القرشيye العامرية وقع الاسلام في قلبها وهي بمكة فجعلت تدخل على نساء قريش وترغبهن في الإسلام حتى ظهر امرها لأهل مكة فأخذوها واوثقوها ، وساموها صنوفاً من العذاب ، قائلين لها لولا مكان قومك لفعلنا بك وفعلنا بك ولكننا سنردك اليهم (٢)

يقابل هذه الصفحة المشركة التي سطرته المرأة المسلمة في هذا الدور من تاريخ الإسلام ، صفحة أخرى للمرأة المشركة في صدها عن دين الله وصرفها الناس عنه وايدائها النبي والمؤمنين ، وأبرز أولئك النسوة تلك الشقية التي برعت في حمل الشوك والأذى تلقيه على منزل الرسول ﷺ وفي طريقه ، وكانت أجدر بمواساته ومؤازرته ، تلك هي زوجة أبي لهب ، عم الرسول ﷺ والتي عبر عنها القرآن بحمالة الخطب في جيدها جبل من مسد وصورة اخف من هذه ، أم تحاول صرف ابنها البار بها عن الإسلام باعتزامها الصيام حتى الممات ان لم يرجع عن الدين الجديد .

(١) الاصابة لابن حجر ج ٨ ص ٢٤٣

(٢) ابن الاثير في أسد الغابة - وابن حجر في الاصابة .

روى ابن كثير في تفسيره عن الطبري بسنده عن سعد بن مالك قال :
انزلت في " هذه الآية " وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا
تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا . . . ، قال : كنت رجلا برا بأبي فلما
اسلمت قالت : ما هذا الذي أراك قد أحدثت ، لتدعن دينك هذا أولا آكل
ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال يا قاتل أمه ، فقلت : لا تفعل يا أمه فاني
لا أدع ديني هذا لشيء ، فكشيت يوما وليلة لا تأكل فأصبحت قد جهدت
فكشيت . . . حتى أمت ثلاثا فلما رأيت ذلك قلت لها يا أمه تعلين والله لو
كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا لشيء فسكيت ، وإن
مشت لا تأكل . فأكلت .

كذلك امرأة رافع بن سنان تحاول صرف بنتها عن الإسلام حيث أسلم
رافع ولم تسلم المرأة فجاءت إلى رسول الله ﷺ وقالت : إن أبا الحكم أخذ
ابنتي ومنعنيها ، فأمر رسول الله ﷺ أبا الحكم فجلس ناحية وأمر المرأة
فجلست ناحية ووضع الجارية بينهما وقال . أدعواها فالت إلى أمها فقال رسول
الله ﷺ اللهم اهداها فالت إلى أبيها فأخذها (١) .

وفي المرحلة الثانية مرحلة الإعداد لترك مكة الضالمة ، بعد إذ طال أمد
الدعوة ولم يعد في البقاء بمكة من رجاء يرتجى ، يجيء ستة نفر من أهل المدينة
فيؤمنون ، ثم يتواعدون العام القابل فيزيد عددهم إلى اثني عشر رجلا فيؤمنون
ويبايعون على ألا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يأتوا بهتان
يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوا في معروف ، فمن وفى فلجنة ومن
أصاب من ذلك شيئا فأمره إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب ،
وتعرف هذه البيعة بعد بيعة النساء لأنها على غرار البيعة المذكورة في سورة

المتحجة: دياها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على ألا يشركن بالله شيئا... ،
 فإذا كان العام الذي يليه حضر كثيرون ، يجتمع مع الرسول منهم ليلا
 بضع وسبعون رجلا وامرأتان من المسلمين فيبايعهم ويباعونه على النصر
 والجهاد (في خبر طويل) ثم تجيء المرأتان تريدان المبايعة ، وكانت للرجال
 مصافحة فيقول لها الرسول قد بايعتكما على ما بايعت الرجال عليه غير أني لا
 أصافح النساء . رواه ابن حجر وابن هشام وغيرهما وتسمى هذه بيعة العقبة الثانية
 قال ابن الأثير : (في الكامل ج ٢) وكانت البيعة في هذه العقبة على غير
 الشروط في العقبة الأولى ، فإن الأولى كانت على بيعة النساء ، وهذه البيعة كانت
 على حرب الأحمر والأسود .

ويقوى ساعد الإسلام بأنصاره الجدد ، فعنف القرشيون
 في مقاومته ، ويضاعفون الأذى والأعنات حتى يأذن رسول الله
 ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة فيكون أول خارج رجل وامرأته وطفلها
 ذاك أبو سلمة وزوجه ، تقول أم سلمة : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة
 رحل لي بغيره ، ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة في حجري ، ثم خرج
 يقودني بغيره ، فلما رأته رجال بني المخيرة بن عبد الله بن مخزوم قاموا إليه
 فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، رأيت صاحبتنا هذه علام تتركك تسير بها في
 البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه ، قالت : وغضب عند
 ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة قالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها إذ
 نزعتموها من صاحبنا قالت : فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق
 به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المخيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى
 المدينة ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني ، فكنت أخرج كل غداة فأجاس
 بالآبطح فما أزال أبكي حتى أمسى ، سنة أو قريبا منها ، فمر بي رجل من بني عبي
 فرحمي ... فقالوا الحق بزواجك ، ورد بنو عبد الأسد إلى ابني فارتحلت

بعيرى، ثم أخذت ابني ووضعتة في حجرى، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة، وما معى أحد من خلق الله... حتى لقيها عثمان بن طلحة فأوصاها المدينة فكانت تقول والله ما أعلم أهل بيت أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة (١)

ويموت زوجها وهى بالمدينة، وتكون خير مكافأة لها على جسيم تضحياتها ان تصير إحدى أمهات المؤمنين.

ويستقر الرسول وصحبه بالمدينة. وتوضع اللبنة الأولى فى صرح الدولة الناشئة ويصطدم الإيمان بالكفر، ويجمع الله بينهما فى صعيد واحد، حيث يلتقيان بدر على غير موعد، «ولو تواعدتم لاختلقتم فى الميعاد، وينتصف الحق من الباطل، وتأخذ سيوف المسلمين برقاب الكافرين، ويكسبون حتى لموت بعضهم كدأ على قتلى بدر ويضمون الصدور على إحن أشد حلوكه من السرار، ويكظمون الغيظ إلى أن يأخذوا بثأرهم، ولنبى فذة كبده بينهم أفلا يشتفون منها؟ لقد كانت زينب بنت الرسول بمكة تحت العاص بن خالتها لم يفرق الإسلام بينهما، فلما همت بالهجرة أخفت أمرها، وأحست بذلك هند بنت عتبة.. وهى الشكلى فى أبيها وعمها وأخيها، فذهبت إلى زينب تعرض عليها العون والرفد من متاع ومال، قائلة إنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال، وتقول زينب: والله ما أراها قالت إلا لتفعل، ولكنى خفتها فأنكرت أن أكون أردت الخروج - ثم خرجت زينب مخفية ومعها حموها، وتتابع رجال يمنعونها فروعت حتى ألقت ما فى بطنها، فجاءت هند مسرعة إلى أولئك الذين خرجوا إلى زينب وأسمعتهم قارص اللوم والتوبيخ وأنشدتهم:

أفى السلم أعياراً جفءاً وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك (٢)

(١) ابن هشام . (٢) الأعيار: الخمر، والنساء العوارك الحيف

ثم تمضى روية الكفاح منشورة ، وتقوم المعارك بين المسلمين والمشركين وتثار قريش من المسلمين في أحد ، وتهاجم الدعوة في مقرها الجديد بغية استئصالها في الخندق فترتد عنها حسيرة ، ويجزى الإسلام اليهود بلؤمهم ونقضهم الميثاق في قريظة والنضير ، ويحجى عهد الحديبية ثم فتح مكة ويليه حنين والطائف ، والمرأة في ذلك كله لم تغب عن مشهد واحد من مشاهد ، بل كان لها في بعضها ما فاق مواقف الرجال ، وُعد في بطولة الأبطال ، وأبرز ما يكون ذلك إذا حزب الأمر ، وفدح الخطب ، وطاشت الأحلام وتكشفت الأمور عن المعادن الزاكية من النساء والرجال .

فهذه موقعة أحد والمرأة فيها تقوم بدورها الطبيعي من سقاية الماء وتضميد الجروح ، وخدمة المحاربين ، ولكن لواء المشركين يسقط فلا يجد من يحمله لكثرة من قتل دونه ، فلم يزل صريعاً على حد تعبير ابن اسحاق — حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلا ثوابه (٢) :

وينكشف ظهر المسلمين بانصراف الرماة إلى الغنيمة ظانين الموقعة انتهت مخالفين وصاة الرسول ﷺ لهم فتسبح الفرصة لخالد بن الوليد في خيالة أن يباغت المسلمين من خلفهم ، فتختل صفوفهم ويضطرب أمرهم ، وتبلغ بهم المفاجأة أن يفروا لا يلوون على شيء ، ويثبت رسول الله ﷺ ونفر من صحبه قليل ، ويعظم الكرب ويهول ، فتقدم أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية وتخوض المعركة وتضرب بالسيف وترمى عن القوس ، وتغنى ما لا يغنى الرجال ويدعو لها الرسول ، ولزوجها ، وولدها ، ويقول : ما التفت يمينا أو شمالا إلا ورأيت أم عمارة ، ولمقام أمك — يخاطب ابنها — خير من مقام فلان وفلان . بل لم تكن المرأة المسلمة التي قعدت في بيتها ، ولم تخرج إلى الحرب بأقل

أثرا ، وأوهن خطرا من هذه التي خرجت ابتغاء مرضاة الله ، فاسمع إلى ما يرويه ابن اسحق بسنده قال : مر رسول الله ﷺ بامرأة من بنى دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد فلما منعوا لها قالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيرا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين ، قالت أرونيه حتى أنظر إليه ، قال فاشير لها إليه حتى إذا رآته قالت : كل مصيبة بعدك جلل تريد صغيرة (١) .

فأى امرأة تلك التي تنصر الإسلام بزوجها وأخيها وأبيها ، وكل ذلك عندها في جنب الله يسير ؟ بل أى عبارة تستطيع الوفاء بحقها من التمجيد والتقدير ؟ وفى الخندق قتلت صفية بنت عبد المطلب جاسوسا يهوديا كان يتسمع على حرم المسلمين .

وحضرت النسوة خيبر ، وأعطاهن الرسول حظهن من الفء ، وشهدت الحديبية ، وقد فدح المسلمين أمر الصلح حتى لم يشاءوا أن يحلوا من إحرامهم بعد أن أمرهم الرسول ثلاثا ، فدخل إلى زوجته أم سلمة ويقول : هلك المسلمون ، ويخبرها الخبر ، فتشير عليه بأن يخرج فلا يكلم أحدا حتى يحلق وينحر أمامهم ، وما أن يراه المسلمون حتى يتوائبوا إلى القدوة برسول الله ﷺ .

وفى الفتح : يقبل الإسلام على مكة فى قوته ووصلته ، ويروع أبا سفيان رئيس قريش ما يرى ثم يرجع بالأمان إلى قومه ، كاشفاهم عن قوى المسلمين قائلا يا معشر قريش : هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فتقوم إليه هند بنت عتبة زوجته ، وتأخذ بشاربه وتقول : اقتلوا الحميت الدسم (٢) قبح من طليعة قوم ، فيقول أبو سفيان ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم

(١) ج ٣ ص ١٥ (٢) الحميت أءله زق السمن تريد تشبيهه به لضخامته

ما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن — قالوا : قاتلك الله ، وما
تغني عنا دارك ؟ قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ،
فتفرق الناس إلى دورهم والمسجد ،

ويفتح الله مكة على المسلمين ويعم الأمان كل من ألقى سلاحه وسالم ،
ما عدا افرادا يهدر دمهم من النساء والرجال لشناعة جرائمهم ، وتجيء هند ثأبة
مستغفرة بعد أن رأت من نصر الله ما رأت ، وشاهدت من عبادة المسلمين ماملاً
قلبا إعجابا ، فيعفو النبي عنها ويصفح ، وتبايع فيمن بايع .

ويهرب فريق من الرجال ، فتأتى نسوة تستأمن لهم ، وتسال الرسول العفو
فيعفو ، وتلحق ام حكيم بنت الحارث بن هشام زوجها عكرمة بن أبي جهل وقد
فر إلى اليمن فتجيء به ثأباً فلما أسلم أقر على نكاحها

وفي الفتح تبرز للمرأة مواقف أخرى جديرة بالتسجيل ، فهذه ذى المرأة المسلمة
تجبر ويمضى الرسول جوارها فقد استجار بأمر هانيء رجل من أحمائها فأجارتها ، فجاء
على كرم الله وجهه يريد قتله فمنعته منه وحاكمته إلى رسول الله ﷺ قائلة له
زعم ابن أمي انه قاتل رجلا قد أجرته ، فلان ابن هبيرة فقال رسول الله ﷺ
قد أجرنا من أجزت يا أم هانيء . رواه البخاري وغيره .

ولم يك جهاد المرأة ذلك خاصا بالعهد النبوي ، فلقد خرجت المرأة مجاهدة
في عصر الخلفاء الراشدين ، خرجت لقتال المرتدين ، تؤدى واجبها في خدمة
الجيش حتى إذا تخرج الموقف ، وعظم الخطب ، وزالت الأقدام ، وقدت الرقاب
وتطايرت الهام ، رأيت من أولئك النسوة من اقتحمت العجاج ، وحاضت لجة
القتال وصارعت الكماة والأبطال ؛ فأم عمارة تكون مع المسلمين في حرب
اليمامة ويقتل ابنها ، فتأخذ السيف ، وتقسم ألا ترجع حتى يقتل مسيلمة أو تموت

دون ذلك ويرى الله قسمها ويهزم الجمع ويصير الكذاب مسيلمة، ويصحبها اثنا عشر
جرحا وتقطع يدها، حتى إذا عادت إلى المدينة يجيئها خليفة المسلمين أبو بكر
يواسيها في ابنها ويدها، فنقول: وأى شيء هذا إنه في رضا الله يسير

وتأتى الفتوح الكبرى في العراق وفارس والروم، والمرأة تؤدى واجبا
أكل الأداء، وتبلى أجمل البلاء، وتذكى عزائم الرجال، وكثيراً ما يضطرها
الحال إلى مباشرة القتال، كما في القادسية واليرموك فتأتى بالعجب العجيب، غير
هيابة ولا وجلّة، ولا مباهية أو مختالة، وربما كانت منتقبة لا يعرف أهى رجل
أم امرأة.

ويمضى عهد أنى بكر، ويحى عهد عثمان ومعاوية على الشام، وتغزو المرأة
فيمن غزا ملوكا على الأسيرة تصديقا لرؤيا رسول الله ﷺ.

حدث البخارى ومسلم وهذا لفظ مسلم: عن أنس بن مالك أن رسول الله
ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان (وكانت إحدى خالاته من الرضاع)
فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله
ﷺ يوما فأطعمته، ثم جلست تنفلى رأسه فنام... ثم استيقظ وهو يضحك
قالت: فقلت ما يضحك يا رسول الله؟ قال: أناس من أمتى عرضوا على غزاة في
سبيل الله، يركبون ثبَاج هذا البحر ملوكاً على الأسيرة، أو مثل الملوك على
الأسيرة يشك أيهما قال، قالت: فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم
فدعأ لها، ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك قالت: فقلت ما يضحك
يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتى عرضوا على غزاة في سبيل الله كما قال فى الأولى
قالت فقلت يا رسول الله: ادع الله أن يجعلنى منهم قال أنت من الأولين.

فركبت أم حرام بنت ملحان البحر زمن معاوية (١) فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت ولم تكن الوحيدة من النساء بل معها كثيرات غيرها .

كذلك لم تنفض المرأة يدها من المشا كل الكبرى والأحداث الجسام، التي أملت بالامة الإسلامية أو آخر أيام عثمان ، وزمن علي ومعاوية ، وموقف عائشة في الجمل معروف ، وموقف غيرها من نساء المؤمنين في صفين ونصرهن عليا معروف كذلك ، وثباتهن على الولاء له بعد انتهاء عهده ، وما جرى بين بعضهن وبين معاوية لما يثير الدهشة ويضاعف الإعجاب .

هذا : وموقف المرأة المسلمة في تأييد هذا الدين وإعلاء رايته ، يذكرك بموقف المرأة المعادية ومساماتها الرجل في الكيد له ، والترصص به ، والافتراء عليه - كما أشرنا إلى بعضه سابقا - فمن نسوة قاومت الدعوة بأيديهن وأفعالهن ، إلى أخريات قاومت بالسنتهن وأشعارهن ، وكما تنبأ رجال وحاولوا التشبه بالرسول واستهوا أقوامهم بحيل وأكاذيب كذلك صنعت المرأة ، فتنبأت وقادت قومها فسيلة الكذاب في اليمامة وطليحة الأسدي في بني أسد ، كذلك سجاح التميمية لم يأنف قومها بنو تميم أن ينقادوا لها ، ويحاربوا تحت لوائها .

حتى قضى الإسلام على جميع مناوئيه ، وانتظم عقده البلاد العربية ، واندفع نوره يسرى بين الأحياء ، ويغمر سائر الأرجاء ، ويدحر فيالق الظلماء ، والمرأة المسلمة في ذلك كله منبع الخير ، ومصدر البركات ، ومصنع البطولات لا تتي تصنع الصناديد ، وتبعث بالأشبال الصيد ، إلى كل جبار عنيد .

١ قال النووي : اختلف العلماء متى جرت الغزوة التي توفيت فيها أم حرام في البحر وهل هي في لاية معاوية على الشام زمن عثمان أو في خلافة معاوية نفسه ؟ وقال ابن الأثير من ترجمتها في اسد الغابة : وكان امير ذلك الجيش معاوية زمن عثمان وذلك سنة سبع وعشرين . وذكر مثل ذلك ابن خلدون في تاريخه .

مكانة المرأة في الإسلام

رأينا في الفصل السابق كيف أن المرأة استقبلت الدعوة الإسلامية في أول عهدها فجرا صادقا لم يشع بعد سنه، وبرزت في أدوار الإسلام كلها مؤيدة وناصرة، أو جاحدة مكابرة، لا تخفى أثرها على الحاليتين، ولا يمحذو خطرها في الجانبيين، حتى تأذن الله لنور الحق بالغلب، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وظهر على الدين كله، ولو كره الكافرون.

ونريد الآن أن نقبين مركز المرأة في هذا الإسلام، ومكانتها منه، وهي التي لم تبخل عليه بجهودها وجهادها، واحتملت من أجله التضحيات الجسام في نفسها ومالها، وبنيتها وآلها، طيبة النفس، راضية الفؤاد، مستزينة من الأعباء، مقبلة غير مدبرة، ترى هل قامت بذلك كله للإسلام عن طيب خاطر، وهو ينتقصها ويمتنعها، ويحرمها بعض حقوقها؟ وهل هو يكرم الرجل ويحاييه إذ يجعل له درجة، ويبيع له من الزوجات مثنى وثلاث ورباع، ويجعل العصمة يده، ويضاعف حظه من الميراث، ويعتبر شهادة الرجل أحيانا بشهادة امرأتين، ويجعل البيت مقرها؟

أيصنع الإسلام ذلك وغيره كرامة للرجل وإيثارا لآله أثر لديه، وأكرم عليه؟

أم نقول في ذلك: إنه أنصف المرأة وأكرمها، ورفع شأنها، وحماها من ضيم كثير كان واقعا عليها ولاحقا بها، فأعلى منزلتها درجات، ورفع عنها إذايات، وأزال شكايات، ثم نذهب نعد ما في المفارقات من حكم عالية، ومعان جليلة، ونقارن بين حالها الجديد وبين ما كانت عليه من قبل، لنعرف التفاوت

الكبير ، وأثر الإصلاح الإسلامى فى الأسرة والمجتمع ؟ .

وفى الحق ليس يعنينا كثيرا أن نقارن بين ما كانت عليه المرأة فى الجاهلية وما صارت إليه فى الإسلام ، وإن كانت الأشياء بضدها تتمايز ، فالأمر كما قال القائل :

ألم تر أن السيف يُزرى بقدره إذا قيل هذا السيف خير من العصا
ذلك أن أية دعوة إصلاحية موفقة ستأتى إلى القائص الموجودة فى المجتمع
وأدوائه المتفشية فيه ، فتعالجها بما ينبغى أن تعالج به ، لتقضى عليها ، وتتخذ
غيرها خيرا منها ولكن الإسلام حينما جاء إلى العرب يضم شتاتهم ، ويجمع
شملهم ، ويوحد قلوبهم وأهدافهم ، ويعالج نقائصهم وأمراضهم ، لم يكن شأنه
شأن أية دعوة إصلاحية أخرى ، يمنع مظالم قائمة ، أو يعالج داء محليا ، أو يقرر
قاعدة مؤقتة ، أو ينشئ أمة على غرار ما نشأ من أمم سابقة أو لاحقة . . . إنما
كان أعمق من ذلك وأقوى ، وكان أعم وأشمل .

الإسلام هو الحق الاول والآخر :

جاء الإسلام يقرر أنه دين الله الذى أنزله إلى الأنبياء جميعا ، وأنه هداه
الذى أوحى به إلى عباده على لسان رسله ، شرع فيه ما وصى به نوحا وإبراهيم
وموسى وعيسى وأخوانهم المكرمين ، فكان مصدقا لما سبقه من كتاب
ومهمنا عليه ، كاشفا ما لحق به من زيف المبطلين وباطل الخاطئين ، راداً
للناس إلى الفطرة الأولى ، فطرة الحق والخير والعدالة .

وفى القرآن الكريم : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من
الكتاب ، ومُهيّئنا عليه ، ويقول سبحانه بعد ذكر طائفة من النبيين
« أولئك الذين هدى الله ، فبهدهم اقتده » .

ويقول الرسول الكريم : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، ويقول أيضا
مَثَلِي وَمَثَلُ الْإِنْيَا ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ ،
فَكَانَ مِنْ دَخْلِهَا فَظَنَرِ الْيَا : قَالَ مَا أَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبَنَةِ ، فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبَنَةِ
خَتَمَ فِي الْإِنْيَا ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . (١)

فَالْإِسْلَامُ يَقَرُّرُ الْحَقَّ الْأَوَّلَ ، وَيُرْدِي النَّاسَ إِلَيْهِ ، وَيُنْقِيهِ مِنْ شَوَائِبِ الْأَوْهَامِ ،
وَيُطَهِّرُهُ مِمَّا لَحِقَ بِهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْبَهْتَانِ ، وَيَكْمُلُ ذَلِكَ الْبِنَاءُ الشَّامِخُ مِنْ دِينِ اللَّهِ
وَهَدَاهُ ، لِيَكُونَ مَقَرَّ السَّعَادَةِ لِلْإِنْسَانِيَةِ ، وَحَصْنِ النِّجَاةِ لِلْبَشَرِيَّةِ ، وَتِمَامِ النِّعْمَةِ
لِقَاطِنِيهِ وَمَجَاوِرِيهِ ، وَكَانَ غَرَّةَ ذَلِكَ كُلِّهِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَنْتُمْ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا .

جَاءَتْ هِدَايَةُ الْإِسْلَامِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، يُخَاطَبُ الرِّجَالُ مِنْهُمْ وَالنِّسَاءُ عَلَى
السَّوَاءِ ، يَصْلَحُهُمْ جَمِيعًا بِأَصْلِ وَاحِدٍ نَشَأُوا مِنْهُ ، وَتَفَرَّعُوا عَنْهُ دِيَارِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا
رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا
كَثِيرًا وَنِسَاءً ،

لَا فَضْلَ لِأَحَدٍ عَلَى آخَرٍ إِلَّا بِعَمَلِهِ الصَّالِحِ وَتَقْوَاهُ ، إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ
وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقُواكُمْ ، .
يَلْفَتُ أَنْظَارُ الْجَمِيعِ إِلَى عِبَادَةِ الْوَاحِدِ الْوَاحِدِ ، وَيَنْعَى عَلَيْهِمْ جَهْلَهُمْ وَشُرَكَاهُمْ
وَضَلَالَهُمْ ، فَيُؤْمِنُ بِهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ ، وَيَكْفُرُ بِهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ ، وَلِكُلِّ نَفْسٍ مَا
كَسَبَتْ ، وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، بَلْ تُوفَى كُلُّ
نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ، وَلَا يُجَدُّ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ

يدخلون الجنة ولا يُظلمون تقيرا ، فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض ...

وفي الحديث : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الأعظم الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهى مسئولة عن رعيته .. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (١) .

وذروة ذلك كله هذا النسق البديع فى كتاب الله سبحانه ، حيث ساوت المرأة الرجل فى أجمل صفاته ، وأكمل حالاته ، فتم لها ماتم له من كرامة وفضل وأجر عظيم . قال الله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » .

إلى هنا قد اكتملت شخصية المرأة فى الإسلام كما اكتملت شخصية الرجل سواء بسواء ، فاذا تفاوتت التبعات ، أو تنوعت الحقوق والواجبات فلتفاوتت الفريقين . ولتنوع الأعباء التى هى لها كل من الجنسين : « وكل ميسر لما خلق له » .

وإذا قرر الإسلام فى عمقه وقوته . وشموله وأصالته ، علاقة المرأة بالرجل وعلاقة كل منهما بالمجتمع والحياة ، فهو قرار الفطرة البشرية بمن فطرها ، وهو منطق الحياة من خالق الحياة لا يزيغ ولا يحيد ، ما دام الرجل رجلا ، والمرأة

مرأة ، سواء في ذلك أن تكون الحياة بدائية يسعى الرجل فيها على قوته وقوت عياله ، والمرأة في بيتها تعمل بمغزها في ثيابها وثياب زوجها وبنيتها ، وأن تسير الحياة أشواطاً طويلاً ، وتقطع من عمرها أجيالاً وأجيالاً ، وتطير المرأة في السماء ، وتغوص في لجة الماء ، وتعلو قمم الجبال ، تلاحق الرجل وتسابقه ، فهي كما هي ، حواء آدم دخلتكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، والإسلام هو الإسلام ، عام وخالد ، لا يتغير ولا ينبغي له إلا أن تتغير الفطر ، وتحول الطبائع ، وتبديل نوااميس الوجود .

لقد وضع الإسلام الرجل موضعه ، وأنزل المرأة منزلتها ، ورسم لها طريقاً واضحاً لا عوج فيها ولا التواء ، وفتح لها معاً أبواب المثل العليا عملياً ، وأخذ بأيديهما سعيًا حثيثاً إليها ليصل بهما إلى ذروة ما قدر لها من سمو ورفعة ونجاح وسنرى بعون الله تفصيل ذلك الإجمال فيما يلي من فصول .

أقامة البيت المسلم

تنشأ الفتاة الصغيرة في رحاب أبويها كما ينشأ الفتى أخوها ، ولها من العناية والرعاية مثل الذي له ، حتى إذا تهيأت لدورها الطبيعي في الحياة ، وكانت قادرة على إنشاء بيت جديد مع زوج لها ، استشارها أبوها في شريك حياتها ، ولم تنتقل حتى تأذن في أمرها ، فإن كانت حديثة السن لا خبرة لها زوجها أبوها بأذنها ، وإن كانت رشيدة عاقلة ، فهي أحق بنفسها من وليها ، وليس له اعتراض عليها ، إلا أن يكون رأياً يديده ، أو نصيحة يبذلها مالم تسرف في حقها ، وتندفع إلى الزوج بمن يشينها ، ويسىء إلى مركزها ، أو مركز أسرتهما كما لو كان الرجل غير مرضى الدين والأمانة ، فلمهم حينئذ أن يباشروا حقهم في حمايتها . بل كان واجبهم أن يصونوها من نزواتها ، ويحفظوها من عواقب شططها .

انظر الى هدى الدين في اقامة بيت الزوجية ، وكيف شرع الرسول ﷺ لمن شاء الزواج من امرأة أن ينظر اليها ، ويرى منها في حدود الصيانة والكرامة ما يرغب فيها او يباعد عنها حتى يكون من أمره على بينة ، فلما جاءته المرأة الواهبة تعرض نفسها عليه صعد فيها النظر وصوبه ثم أطرق . فتقدم لخطبتها أحد الحاضرين في حديث طويل رواه البخاري وغيره . وتولى النبي أمرها . وفي الحديث : « إذا ألقى الله عز وجل في قلب امرئ خطبة امرأة فلا بأس ان ينظر اليها » (١)

بل يطلب ذلك صريحا مبينا الحكمة فيه ، حيث يقول للبخيرة بن شعبة وقد خطب امرأة : انظر اليها فانه أحرى أن يؤدَمَ بينكما ، (٢)

والى جانب ذلك يجعل للمرأة اختيار زوجها ، ويرد نكاحها ان افتات أحد على حقها فيقول : « لا تُنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن ، قالوا يارسول الله وكيف أذننا ؟ قال أن تسكت » (٣) ويقول : الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن في نفسها . (٤)

ولقد علت المرأة هذا جيذا ، على عهد الرسول ﷺ ، وحافظت على حقها كما تحافظ على أداء واجبها ، فلقد روى ابن ماجه واحمد والنسائي أن فتاة جاءت الى رسول الله ﷺ تقول : « إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته . قال : فجعل الأمر اليها ، فقالت قد أجزت ما صنع أبي ولكنني أردت أن أعلم النساء أن ليس الى الآباء من الأمر شيء — تعني ان

١ رواه احمد وابن ماجه ٢ رواه الخمسة الا ابا داود ٣ رواه البخاري وغيره

٤ رواه الجماعة الا البخاري قاله صاحب نيل الاوطار

ليس لهم اكرامهن على ما لم يردن ، (١)

وبهذا جمع الاسلام خير الاسرة بين رضا الآباء والأولياء بغير طغيان أو استبداد ، ورضا الزوجة وعصمتها من الشطط ، وأرشد الرجل الى اختيار زوجته لأنها موضع سره ، وأمانة غيبه ، وحافظة بيته فقال صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم ، وقال شارحا الدوافع المرغبة في المرأة عادة ، مرشدا الى أفضلها وأولها بالتقديم : ' تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولجملها ، ولحسبها ، ولدينها فافزر بذات الدين تربت يداك .

وزيادة في رعاية الاسرة واحتياطاً لامرها جعل لمن غره صاحبه من الزوجين على السواء فاخفى من العيوب والأمراض الخطيرة ما لا يستقيم الزواج معه ، أو تحسن العشرة به ، حق الخيار في النكاح ، فإني شاء ففسخ ، وللزوجة في الحالين الصداق ، ما لم تكن هي الغارة فيترك لها أقل الصداق الشرعي . وعلى هذا الأساس الواضح البين من الثبوت والتفاهم والرضا ، ومن الأمانة والصرامة والإخلاص يقوم البيت المسلم محققاً آية الله ، راجياً معونته وتوفيقه وهدايه ، شاهداً بقوله سبحانه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، بعد المسلمين عن منهج الدين :

وبعيد عن منهج الاسلام في إقامة الاسرة ، وأرساء قواعدها ، ما عليه كثرة المسلمين من إفراط أو تفريط . فمن تضيق شديد يحرم الخطيئين حقهما الشرعي في رؤية كل لصاحبه ، والتعرف اليه . مبالغة في الاحتشام والأدب على ما يظنون الى تحرر وانطلاق يتيح للخطيئين العصريين اختلاطاً كاملاً في المنزل ، وفي

ارتياذ المتزهات ، ودور الخيالة والشواطيء وسواها ، بما يفتح على الشباب أبواب
العواطف المشبوبة ، والحس الملهب ، والنزوات الطائشة ، وكثيرا ما تنتهى
أمثال هذه العلاقات بالفواجع ، والمآسى الأليمة ، وقبلها تكون الضحية هنا غير
الفتاة المسكينة .

فكان موقف الدين كالعهد به وسطا عادلا ، بعيدا عن عنيت المتعنتين ،
واسراف المسرفين ، اذ جعل لكل منهما فى حدود الصيانة والاحتشام أن يعلم
من صاحبه ما يرغب فيه أو ينفره منه ، حتى إذا آثر أمرًا كان منه على بينة .
ولعل من الإسراف ما ذكره صاحب كتاب « المرأة بين البيت والمجتمع » (١)
عندما روى عن رسول الله ﷺ : « إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن ينظر
منها بعض ما يدعوه لنكاحها فليفعل » ثم حملة على ماسماه « محدودا بقيود الذوق
العام وتقاليده أهل البيت » ، فللخاطب على حد تعبيره فى عصرنا الحالى ان يراها
فى الملابس التى تظهر بها لأبيها وأخيها ومحارمها بلا حرج مكشوفة الرأس
والذراعين .

والإسراف هنا اسراف مضاعف لأنه فى الدعوى وفى الدليل معا على عرف
أهل المنطق — فقد رأى ان ظهورها للخاطب بما تظهر به لأبيها وأخيها ، وكشف
الرأس والذراعين . أمر من الذوق العام وتقاليده البيتة . ونحن نسأله وهو الذى
يتكلم فى هذا باسم الدين : أى عموم فى هذا الذوق ، وأى بيتة لتلك التقاليد؟
أى بيتة الريفين التى تضم بضعة عشر مليوناً من المصريين ، وليس ذلك من
فهمهم ولا هو من تقاليدهم . أم بيتة أهل المدن ، وما يزال فيهم المحتشمون
والمتصنون ، وليسوا قلة يُغض عنها الطرف أو تُطرح من الحساب ؟ .

لم يبق لهذا الذوق من عموم فيما نرى الا في بيئة الغريين ومن على شاكلتهم
من المتغربين .

أما اسراف الاستدلال فان الدين الذي قد يسر على النساء في الآباء والأبناء
رفعاً للخرج في أمر مأمون العواقب لا ضير فيه ، لم يلحق الخاطب بهؤلاء
وليس الخاطب ممن يحمل بين جنبيه للمرأة قلباً كقلب الآباء والأبناء . وفي آية
النور ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يُبدين زينتهن الا لبعولتهن
أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو اخوانهن ... ،

وأحق من تحميل الحديث اعتبار الخاطب معتبر الآباء والأبناء أن نحمله
كما حمّله صاحبه وأبانه بالسنة العملية التي رواها البخاري وغيره في حديث
الواهبية حيث جاءت امرأة تعرض نفسها على النبي ﷺ فصعد النظر فيها
وصوبه ثم اطرق . بل هو الحق لا سواه ، فللرجل بهذا ان ينظر لوجه
المرأة وشكلها العام فيرى ما يدعوه لنكاحها ، او يياعده منها على صيانة في
الحالتين واحتشام ، من غير ان نفتح للشر ابواباً عكف عليها الشيطان ، يلجها
كل من حاد عن الدين ، وكان في أمره من المسرفين .

معنى الاسلام بإقامة الاسرة وصيانتها عناية فائقة ، ورغب الرجل أن
يبتغي في زوجته قرة عين ، فالمرأة من الرجل خلقت منه ليسكن إليها ، ويجد
راحة الأنس والمودة والرحمة بجوارها ، وهو منها غذته بلبانها ، وسقته من
دمائها . ونشأته في احضانها ، وأدفاته بحنانها . وزوجة الرجل أقرب شيء إلى
نفسه ، وألصقه بقلبه وحسّه . هن لباس لكم وأتم لباس لهن ، وهى شريكه
حياته ، وأم بنيه وبناته ، تدير مملكته المنزلية كي يتفرغ هو لواجبه ، ساعياً
على رزقه ورزق أسرته ، محتلاً في ذلك ما يحتمل ، حتى اذا أوى الى سكناه

سكن إليه ، ووجد في ظله القلب الحافي عليه ولقى من الهدوء والطمانينة ما ينسيه آلامه ، ومتاعب أيامه ، ومشاق عيشه .

عظم الإسلام حق المرأة على رجلها ، فأوصاه بحسن عشرتها ، وجميل مودتها ، وكامل رعايتها ، وعده خير الرجال خيرهم لنسائهم ، وجعل النفقة على الزوجة والعيال أفضل من نفقة في سبيله ، بل استثار في الرجل كوامن العزة ، ودافع المروءة ، وأريحية الشمم فقال : « ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم » .

كما عظم حق الرجل على زوجته ، فأكد حرمة ، وأوجب طاعته ، وقدمه في ذلك على أقرب المقربين ، بل على الناس أجمعين فقال ﷺ : « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » وجعل رضا الزوج من رضا الله « أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة » .

على هذا النمط العالي من العلاقة الكريمة تمضي صلة الرجل بامرأته ، وصلة المرأة بزوجها ، وقد عرف المسلمون الأولون هذه المعاني ، وقدروها وهاقروها ، ورعوا الحقوق رعاية كاملة ، حتى بلغ الأمر من رجل كابد عباس أن يقول والله اني لأحب أن اتزين لامرأتي كما تتزين لي ، بهذه الآية « ومن مثل الذي عليهن بالمعروف » وكلمة المعروف نور طرقت به « غيرة الحقوق والواجبات ، فليست العلاقة بين الزوجين مبادلة تجارية جافية تقوم على التدقيق والتحقيق والمشاحة ، إنما هي المعروف من الجانبين والرفق والبسر والمساخة .

واللرجال عليهم درجة

تري هل غبن الإسلام المرأة اذ جعل للرجل عليها درجة كان له بها
رياسة الحياة الزوجية ؟ ألم يكن الأقرب الى طبيعة الاسلام دين المساواة أن
يسوى بين الشريكين فيجعلهما في منزلة سواء ؟ فيرضى بذلك الغربيين والمتغربين
في هذا القرن العشرين - ولكن هل المساواة المطلقة من صالح الطرفين ؟ وهل
الطبيعة ساوت بينهما في القوى والمملكات ، وفي الاعباء والواجبات ، حتى نطالب
الإسلام برعاية هذه المساواة .. ؟

أو أن الضرورة قاضية بوجود الرياسة في المنزل ، كضرورة الرياسة في كل
أمر ذي بال ، فللقرية رئيس ، وللمدينة رئيس ، ولكل مصلحة من المصالح
رئيس ، وللوزارة رئيس ، وللدولة رئيس . والاسلام دائما يطلب هذه الرياسة
ويحرص عليها لتحديد المسئولية ، ولو في الأمور العارضة ، فاذا حضر اثنان
أو أكثر لصلاة القريضة ، أمهم واحد منهم ، وإذا خرج ثلاثة في سفر
أمروا أحدهم (١) .

ويقضى العقل والحكمة أن تكون الرياسة لأقدرهم عليها ، وأصلحهم لها
وتفرض أمانة الاسلام ذلك وتوجبه وفيه يقول الرسول : من ولي من أمر
المسلمين شيئا فولي رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله
ورسوله (٢)

ولن تكون المرأة موضع هذه الرياسة ما لم يكن ذلك نقصا في الرئيس الطبيعي ،
لأنها بضعفها الجسماني ، وملكاها ، وغرائزها ، ووظيفتها في البيت تكلف ما
ما ليس في وسعها أن تحسن القيام به إذا أسندت إليها تلك الرياسة .

ثم هذا هو الرجل ، مالك البيت والقائم بنفقته ورعايته وحمايته ، كيف لا يكون صاحب الكلمة العليا فيه . ؟

فدرجة الرجال في الإسلام هي درجة الواقع المحسوس من عالم الأحياء ، وهي درجة تضاعف الواجبات وتزيد في الأعباء ، وهي درجة تفهم موقف المسئولين عن أنفسهم وعن حوّلهم ، وهي درجة تصلح بها الحياة ويستقيم عليها الأمر .

إن خضوع المرأة لشرّيكها الرجل أمر طبيعي لا غبار عليه ، إذ لا بد للأسرة وهي المجتمع الصغير من رئيس مسئول يكون الفيصل فيما يعرض من مشاكل وأزمات . وإن هذه المسألة من الأصالة والوضوح بحيث ترى المرأة السوية لا تسرها هذه الرياسة إن سلمت إليها ، ولا يرضيها من الرجل أن تكون مالكة أمره ، والمهيمنة عليه ، ولدينا الأمثلة من الحياة كما عند الكثيرين ولا ريب ، وهذه كاتبة انجليزية تقول : (١) لا تتعلق المرأة بالرجل الذي تديره كيف تشاء ، وما ذلك إلا لأن المرأة تعلم أنه لا يمكن الاستناد إلا إلى ما كان صلبا متينا ، فلا غرابة إذا احتقرت من كان العوبة في يديها .

ويقول الأستاذ هنري ماريون (٢) في مثل هذا المعنى : فقد تبين لنا الآن ، لماذا خضعت المرأة للرجل ، وأيضا لماذا يتحتم عليها ذلك الخضوع إلى حد ، وإلا انقلب النظام البشري رأسا على عقب ، بل لو أراد البشر خلاف ذلك لكان لهم في طبيعة المرأة : في تركيبها وخلقها ومزاجها ما يحول دون تنفيذ مرادهم .

(١) كانت كتابتها بامضاء جورج اليوت وهو اسم مستعار — خلق المرأة

لهنري ماريون (٢) المصدر نفسه

ثم يقول: إن خضوع المرأة أمر مكروه متى رافقته خشونة الرجل وفظاظته ولكنه طبعى متى عدله تقسيم العمل ولطفته روح العدل والإنصاف ، بل ليس ذلك الخضوع إهانة أو مذلة ، إذا نشأ عن تفاوت ضرورى للتآلف والتوافق ، وكان أساساً لوحدة العائلة ، وهى الجرثومة البدائية فى تكوين الجمعية البشرية ، كما تتآلف الأعضاء ، وتتوافق فى خدمة الجسم البشرى . ١ هـ

فهذا الخضوع إذا كان ضروريا كما رأيت فهو فى الإسلام خضوع الرأى والمشورة والسمع والطاعة لاختضوع الذلة والعبودية ، أو الغنف والاستبداد فالإسلام يوجب على الرجل الرفق والكياسة والعطف ، وينهاه أن يستبد أو يجور ، بل لقد طالبه أن يحتمل من المرأة أخطاءها ، وأن يغفر لها هفواتها ، وأن يحسن إليها ، لافتا نظره الى طبيعة المرأة ، وما جبلت عليه حتى لا يلج فى حسابها طمعا فى اقامتها استوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا ، وفى رواية المرأة كالضلع ، إن أقمتها كسرتها ، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج ، رواهما البخارى ومسلم

فقد جعل الرسول ﷺ من طبيعة المرأة عذرا لها فى الصفح عن هناتها والتجاوز عن أخطائها ، وليت شعرى هل يكون الخير للمرأة والرجل إلا بهذا العوج (١) وهل يستقيم الحال بعقل مثل عقل الرجل ، وعاطفة كعاطفة الرجل وجسم كجسم الرجل ؟ لعل فيما قدمناه آنفا ما يغنى عن إطالة القول ، وإعادة الحديث .

(١) من المؤسف ان بعض الباحثين الدينين يبادرون إلى التشكيك والتشكيك فى الأحاديث الصحاح بدون التريث الواجب فى تحرى معناه وسيافها الذى وردت فيه ، بجمالة أو تورطا .

على هذا المنهج الاسلامي في اقامة الأسرة ، وهذا الادب الرباني في صياتها ، يقوم صرح البناء العائلي متين الدعائم ، قوى الاركان ، شامخ الذرا ، وارف الظلال ، يسكن الرجل اليه ، ، وتسعد المرأة فيه ، ويقدمان للحياة متعاونين متكافلين مادة الحياة من قرة عين ، وبهجة نفس ، وعماد ظهر ، وامتداد أمل في بنين وبنات صالحين وصالحات . وبسلامة الأسرة وصلاحها تسلم الأمة والجماعة .

فلا آن للداعين والداعيات الى مؤتمر الأسرة وحل مشاكلها أن يعللوا أن صلاحها في الشرق لا في الغرب ، وأنه في الدين لا في المدنية ، وأنه في شرع الله لا في قوانين الناس .

٦٦
قل لرجل من تحب أن تزوج ابنتك ؟ قال : ذو الدين إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها ، وفي الحديث : ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة ، ان أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وان أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله . رواه ابن ماجه

والقرآن الكريم يقول للرجال : وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، ويتول في شأن النساء . فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ،

الرجال قوامون على النساء

وتمضي المرأة ناعمة البال ، هادئة الضمير ، تنهأ بذلك الجسود العبق الذي تنفست عنه رياض الاسلام من كرامة كاملة وحرية فاضلة ، بل قد تجاوز بعض

الشيء ما ينبغي أن تقف دونه .

هذه خير امرأة في خير بيئة تعتمد إلى صفحة من الطعام أهديت لرسول الله ﷺ ، فترمىها بفهر يحطمها غشيرة من أهدتها ، تقول عائشة : « ما رأيت صانعة طعام مثل صفية ، صنعت لرسول الله ﷺ طعاما وهو في بيتي ، فأخذني أفكل (١) » ، فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الإناء ، ثم ندمت فقلت : يا رسول الله : ما كفارة ما صنعت قال : إناء بإناء ، وطعام بطعام .

ويقول عمر : صحبت (٢) على امرأتى فراجعتني فأنكرت أن تراجعني ، قالت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لنهجره اليوم كله إلى الليل ، فأفزعني ذلك وقلت لها : قد خاب من فعل ذلك منهن ، ثم يذكر بقية الحديث ، ودخوله على حفصة بنته ، وسؤاله إياها عن مراجعتها للرسول ، ويشهد عليها في ذلك .

وهذه امرأة تغضب زوجها ، حتى يرفع يده ويلطمها فتذهب هي وآلها إلى رسول الله ﷺ تشكو ، ويحكم الرسول بالقصاص ، فينزل الوحي من السماء ويتلو الرسول ما أنزل الله « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا ،

وترجع المرأة بغير قصاص ، ويقول الرسول : « أردت أمرا ، وأراد الله غيره ، ويشاء الله أن تكون مثل هذه الواقعة سببا مباشرا في أن يبلغ الكتاب أجله ، ويخطو التشريع خطوة ، فيحيط بالامر من أقطاره ، فلا نزل الدين

« ١ » بفتح فسكون : رعدة شديدة كرعدة الحمى « ٢ » الصخب : شدة الصوت

لملائكة يمشون في الأرض مطمئنين ، إنما جاء لهذا الإنسان الذي خُلِقَ هالوعاً
إذا مسَّه الشر جزوعاً ، وإذا مسَّه الخير مَنوعاً ، ذلك الإنسان الذي هو في
خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

ويقول عمر مرة ثانية : ذُرت النساء على أزواجهن فرخص رسول الله ﷺ
في ضربهن فأطاف بآل النبي ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن ، فقال رسول
الله ﷺ مخاطباً أصحابه : لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين أزواجهن ، ليس
أولئك بخياركم ، ويقول : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي .

وفي الآية الكريمة توجيه لقوامه الرجل على زوجته ، بينه سبحانه بما أجمل
من سببين رئيسيين : بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم .
فليس التفضيل بين متغايرين ، إعلاء لجنس على جنس ، أو صنف على صنف
إنما هو تفضيل البعض من شيء واحد ، كما تفضل الرأس الجسد ، وشرف البعض
شرف الكل . والرجل وقد كلَّف السعي على زوجته وعياله والرعاية لهم
والانفاق عليهم فكان طبعياً أن يشرف على مصرفه كما جهد في مورده .

ثم النساء تجاه ذلك فطر وطبائع ، منهن صالحات قانتات حافظات للغيب
بما حفظ الله قرّة عين لزوجها ، وبهجة نفس لقرينها ، تبادر في رضاه ، وتسعى
في هواه ، وتصون عرضه وتحفظ غيبه . ومنهن دون ذلك ، لا غنى لهن عن
تقويم وتهذيب ، محتاجات لواحد بما ذكر الله في الآية الكريمة ، على تفاوت
المقامات ، ولكل حالة لبوسها .

هذه الحقيقة الواقعة المشاهدة ينكرها أناس يدعون لأنفسهم رفاهة الحس
ورقة النفس ، ويغمضون أعينهم عن الواقع ودنيا الناس .

يقول واحد من أولئك شارحاً مبدئ النظر في المعاملة الزوجية

لأنكم عن الضرب ، لأن مثل هذا الزوج كان يجب أن يتزوج حمارة (١) .
ونقول لأولئك ما رويناه سابقا من قول معلم البشرية : ليس أولئك
بخياريكم ، وخيركم خيركم لأهله .

ولكننا نقدم إليهم مع ذلك ما يعلمه كل من له إلمام بخلائق النساء ، من أن
الشدة في بعض المواقف خيرٌ حلٌ ، فليقس أحيانا على من يرحم ، وأنها بالنسبة
لبعض النساء من أزواجهن ترضى غريزة الخضوع فيهن ، بل قد تدفع البعض
منهن إلى التعلق بالزوج الشديد إعجابا به — ويشرح لنا عالم نفسى هذه الظاهرة
المعروفة عند علماء النفس ، ويذكر اصطلاحها الخاص بها فيقول (٢) : وتكون
غريزة الخضوع انحرافا في (الماسوشية) حب التعذيب ، وهى لذة أن يكون
المرء متسلطا عليه إلى درجة احتمال الألم أحيانا ، وهى شائعة جدا خصوصا
بين النساء وإن لم يعرفنها ، ومن أجلها اشتهرن بالقدرة على احتمال الألم أكثر
من الرجل ، وضارب زوجته (سادى) محب للتعذيب ، ولكن الزوجة
المضروبة تكون عادة (ماسوشية) تزيدها معاملته الوحشية إعجابا به وحبا
له ، ويستطرد فيقول : ولا شيء يحزن بعض النساء مثل الزوج الذى يكون
رقيق الحاشية دائما ، لا يثور أبدا على الرغم من تحديهن ، ولا يعرف شقاء هذه
العيشة ولا التوق إلى الزوج الذى يستطيع أن يثور ولو مرة واحدة إلا النسوة
اللاتى جربن الحياة مع زوج من هذا الطراز ،

وتنظر فى الحادثة التى كانت سبب الآية الكريمة والرجل وزوجته يرجعان
معا إلى بيتهما ، يعيشان حياة راضية ، ويحفظان بيتا قائما وتخيّل لو أن هذا

(١) سلامة موسى فى تقديم كتاب مدرسة الزواج لفؤاد باسيل (٢) من
كتاب علم النفس والأخلاق تأليف ج ١ هادفيلد ترجمه ابو العزم وراجع القوصى

الرجل الذي حمله الغضب فلطم زوجته ، وجاءت هي وأهلها يشكون ، ونفذ
القصاص كما قضى رسول الله قبل أن يأتي الأمر من السماء ، وقامت هي على ملا
الناس تضربه ، كيف يكون الحال ! أتراه يقبل العيش معها بعد ذلك ؟ ولو
قبله فأى عيش هو ؟

وليس شأنه في ذلك شأن المرأة ، فحالتها النفسية ، وشعورها بأنها في كنفه
وحمايته يجعل ما نالها منه في حال غضبه هنة صغيرة تحتمل .
لقد كان من لطف الله بالرجل والمرأة أن وضع التراحم والتعاطف والود
في قلوبهما ، وجعلهما جزئين من كل ، وجعل المرأة بمثابة القلب ، وجعل الرجل
بمنزلة العقل ، فكان ذلك خيرا كله ، بل لم يكن الخيرا إلا به ، وهل لأحد في
الوجود حياةٌ بغير قلب ينبض ، أو هدى من دون عقل يقود ؟



تعدد الزوجات

يكثُر الجدل حول تعدد الزوجات ، وبخاصة في هذه الأيام بمناسبة إعداد الدستور الجديد ، وتطالب جل الجمعيات النسائية بمنع التعدد ، وحظر الطلاق إلا بإذن القاضي ، تأمينا في نظرهن للمرأة ، وصيانة للأسرة والأبناء .
والموضوع بحق خطير ، يجب فيه الحيلة والحذر ، فهو مسألة الأسرة والمجتمع .

وترى الداعين والداعيات إلى تقييد الزواج والطلاق يستندون إلى الإسلام كما يستند إليه المعارضون فيه ، الراغبون في ترك الأمر على أصله من الإباحة فأى الفريقين أصح نظراً ، وأقوم قیلاً ؟ وهل من طبيعة الإسلام هذا الخلاف ؟ أو ذاك من تقصيرنا نحن في استيعاب أحكامه ، والتهدى إلى غاياته وأهدافه ، والتمسك بشعاره وآدابه ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

وسنرجع بالقضية إلى أول عهدها في الإسلام ، لنستبين وجه الرأى على هده .

يقول الكتاب الكريم في معرض البر باليتامى ورعايتهم ، والنهي عن ظلمهم وأكل أموالهم : **وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان محبواً كبيراً ، وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ،**

ويروى البخارى ومسلم وغيرهما أن عروة بن الزبير سأل عائشة عن هذه

الآية فقالت : يا ابن اختي ، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها ، وتشارك في ماله فيعجبها مالها وجهالها ، فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ، وينسلخوا بهن أعلى سنتهن من الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طالب لهن من النساء سواهن . وهذه هي الآية الصريحة التي تبيح تعدد الزوجات على شريطة العدالة المحققة ، فإن خيف الجور فزوجة واحدة .

وتذكر الآية الأخرى مدى العدالة الواجبة ، وما على الرجل منها حيث يقول سبحانه : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، فلا تملوا كل الميل فتذرؤها كالمعلقة ، ويشرح النبي ﷺ هذه الآية عمليا ، فيسوى بين نسائه في القسم والرعاية ، ثم يقول وقد عرف من نفسه — وعرف عنه حبه لعائشة أكثر من سواها : « اللهم هذا قسمي فيما أملك : فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك » . أي من ميل القلب .

ويقول المرحوم قاسم أمين « لو أن ناظرنا في الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه بعيداً عن معناهما ، لولا أن السنة والعمل جاءا بالإباحة في الجملة ، (١) نعم إن السنة والعمل جاءا بالإباحة ، والله تعالى يقول : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، ويقول « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ، والرسول يقول : « أوتيت القرآن ومثله معه » ، أي السنة ، ولم يعد بعد السنة والعمل خفاء في المراد من الآيتين . ولننظر إلى سنة الرسول ﷺ وهدية ، وعمل صحابته .

أما الرسول فكانت له زوجة واحدة مدى الشباب والكهولة ، فقد تزوج بعد أن نيف عن الخمسين كثيرات مات عن تسع منهن . وتقرأ في كتاب الله : يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك بما آفاه الله عليك ، وبنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك ، وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ، إن أراد النبي أن يستكحها خالصة لك من دون المؤمنين ،

هذا في جانب الرسول ، أما المسلمون فقد أبيع لهم بالنص السابق أن يتزوجوا ما طاب لهم من النساء إلى أربع ، وكانت الجاهلية تبيع أكثر من ذلك ، فقد أسلم نوفل بن معاوية وعنده خمس نسوة ، وأسلم عميرة الأسدي وعنده ثمان وأسلم غيلان الثقفي وعنده عشر ، فأمر النبي كلا أن يمسك أربعة ، ويفارق غيرهن . (٢)

وفقه المسألة يتطلب الحديث في مواقف : موقف الرسول في الدولة الناشئة وموقف الصحابة كذلك ، والموضوع كتشريع خالد .

موقف الصحابة :

ونبدأ الكلام في موقف الصحابة لقصر الحديث فيه كما يقول المصنفون . فنحن الآن أمام دعوة جديدة يغلي بها صدر الحجاز ، وتهتز لها أرجاء البلاد العربية ، ويسمع صداها خارج الجزيرة ، وترى قوما يفارقون ديارهم وأموالهم

٢٠ ذكر الحافظ بن كثير حديث غيلان في تفسيره . وساق رواية الإمام أحمد . قال وهكذا رواه الشافعي والترمذي وابن ماجة والدارقطني والبيهقي وغيرهم وقال في إسناد أحمد رجاله ثقات على شرط الصحيحين وذكر حديث نوفل وعميرة وساق اختلافا في بعض الروايات قائلا إنه لا يضر لما له من الشواهد - وأقول فلا عبرة بإنكار بعض المنكرين

وأهلهم بمكة فراراً بدينهم ليحتموا بالحبشة ، أويقيموا بالمدينة داراً جديدة لهم ، والمرأة في ذلك تعمل بوحى ضميرها كما يعمل الرجل ، فنهن المؤمنات المهاجرات مع الأزواج أو بدونهم ، وتنظر في المسلمين ، فتجد إخوة في الله متحابين متعاونين : وترى بناء أمة ودعاة دين ، قد علوا عن الماديات ، وتزهوا عن الصغار والأنانية ، ووصل حب الأخ لأخيه — فوق ما أحل بيته ، وأكرم وفادته — أن يعرض عليه مشاطرة ماله ، وأن ينظر إحدى زوجتيه ليسرحها فإذا اكتملت عدتها تزوجها ، ويشكر له أخوه فضله وكرمه ، ويأبى أن يرزأه (٢) ماله وأهله ، ويقول : دلني على السوق لأتاجر ، هذا ما رواه البخارى في شأن عبدالرحمن بن عوف وأخيه سعد بن الربيع ، وذلك الحب الذى توثقت عراه بين المهاجرين والأنصار هو الذى أشاد به القرآن الكريم حيث يقول : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ،

وتمضى الدولة الناشئة تمسكاً لدعوتها الجديدة ، وتبسط سلطانها العادل ، وترد عدوان الكافرين ، وتأكل الحرب الرجال والشباب ، وتترك وراءها الأرامل والأيتام .

فمن للمهاجرات اللاتى تركن الأهل والأوطان ؟ أيتركن كما تركت مهاجرات فلسطين للتسول والفقر والضياع ، وربك يخاطب المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهم فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لهنّ حلّ لهم ، ولا هم يحلون

لهن وآتوهن ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن ،

ومن لأولئك الأرامل واليتامى يصونهن ويرعاهن وقد فقدن العائل والنصير ؟ لقد كان بناء الدولة الجديدة يفرض على الجميع تعاوناً وتكافلاً ، وكان تعدد الزوجات أمراً لا مفر منه ، ولا محيد عنه ، كمظهر من مظاهر هذا التعاون الوثيق ، إلى ما فيه من مدد من النسل يعوض ما تأكله الحرب ، ويطحنه الجهاد ، فلم يكن عجباً حينئذ أن يعرض الرجل ابنته أو مكفولته على صاحبه ، أو تعرض المرأة غيرها ، بل قد تعرض نفسها كذلك .

فهذا عمر يعرض حفصة على أبي بكر وعلى عثمان ، وتعرض أم سلية أختها على رسول الله ، وتعرض الواهبة نفسها عليه أيضاً .

موقف النبي في رعايته للدولة الناشئة :

أما رسول الله ﷺ ، فقد تزوج بعد خديجة بكثيرات هن أمهات المؤمنين ، مات عن تسع منهن ، وليس المؤمن في حاجة إلى مبررات لجمع هذا العدد الكثير ، إلا رغبة في العلم ، واستزادة من المعرفة ، أما أعداء الدين فيجدونها فرصة سانحة للنيل من الإسلام ونبي الإسلام ، ويقول الاستاذ العقاد في عبقرية محمد من فصل رائع : قال لنا أحد المستشرقين : « إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية ، قلنا له : إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء ... »

والدارس لهذه الناحية من حياة الرسول الكريم لا يجد في تعدد الزوجات ما يرى عادة من رغبة النسل ، فقد كان أبناؤه ذكورا وإناثاً من خديجة عدا

ابراهيم فمن مارية سريته ولعل كثيرات منهن لم تكن مستعدة للنسل ، ولم يتزوج
بكرآ سوى عائشة . كما لا يجد في جمع هذا العدد ما يعدّه راحة واستقامة بعد
طول جهاد . فلقد كان صلى الله عليه وسلم في بيته في مهنة أهله فاذا سمع الأذان خرج ،
وعن عائشة وقد سئلت هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في بيته قالت : نعم ،
كان رسول الله يخصف نعله ويخيط ثوبه ، ويحلب شاته ويخدم نفسه .

بل لقد بلغ من حسن عشرته وتعاضيه أن لم تكن هيبة النبوة حاجزاً بينه
وبينهن ، فسكن يطالبه بما يطالب النساء بمثله من الزينة والسعة ، ويكثر
عليه في ذلك إلى حد المشقة حتى أنزل الله عليه آية التخيير تأدياً لهن ، وإعلاماً
لهمتهن عن طلب الدنيا ، وهن قدوة المسلمات : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن
كُنْتُنَّ تَرْضْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً
جَمِيعاً ، وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْحَسَنَاتِ
مَتَكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ، فَخُيِّرْهُنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، وَبَدَأَ بِعَائِشَةَ فَاخْتَرْنَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ .

بل كانت الكثرة عبئاً تحمّله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لغيره به طاقة ،
وكان من تغايرهن حيناً وتحزبن ما يؤلمه ، حتى نزل القرآن مقرّراً لثنتين من زوجاته ،
منذراً لجميعهن : « إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ
فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ، عَسَى
رُبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ . . . »

وإذا لم يكن من هذا الزواج طلبُ النسل ، ولا رغبة الحس ، ولا وفرة
الخدمة البيتية ، فليس إلا القصد الصحيح الذي ينبئ عنه النظر في هذه الزيجات
وترى كل واحدة على حدة ، وتستعرضها جميعاً فإذا مقاصدها جليلة جليلة . فاما

قليلة يتألفها بصره أو كرامة وتشریف الكبار أصحابه ، يزوج بعضهم من بناته ويأخذ من آخرين ، أو مجاهدة يرعاها في اغترابها ، أو ذات بلاء جميل يكافئها على حسن بلائها ، أو قضية دينية يحتمل تجربتها من دون المؤمنين . وكلهن مع ذلك مؤمنات صالحات ، ومبلغات واعيات ، ومعللمات للأمة من بعده ، يتبنين ما خفي ، ويحفظن ما ظهر .

أمهات المؤمنين

وهاك طرفا من أمر كل على حدة :

اقترن الرسول الأكرم ﷺ بالسيدة خديجة في سن الخامسة والعشرين ، وظل معها إلى ما بعد الخمسين ، وأنجب منها أبناء وبناته سوى إبراهيم ، وكان لها البر الوفي في حياتها وبعد وفاتها ، حتى تقول عائشة : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة لما كنت أسمعه يذكرها وقالت له مرة : وهل كانت إلا عجوزا أبدلك الله خيرا منها ، فقال لا والله ، ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بما لها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء .

سودة ، وعائشة : ويفرغ بيت النبوة من سيدته الأولى ، وتأتي امرأة مسلمة تشير على النبي بأن يتزوج قالت عائشة : لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم للنبي ﷺ : أي رسول الله ألا تزوج ؟ قال : من ؟ قالت إن شئت بكر أو وإن شئت ثيبا قال فمن البكر ؟ قالت : بنت أحب الناس إليك ، عائشة بنت أبي بكر ، قال فمن الثيب ؟ قالت : سودة بنت زمعة ، آمنت بك واتبعك ، قال فاذهبي فاذهبي فاذكريهما .

وكانت سودة قرشية من بني عبد شمس ، وأمها أنصارية من بني عبد النجار وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها السكران بن عمرو ، ورجع

بها إلى مكة فأت ، وتزوجها ﷺ قبل الهجرة .

أما عائشة فقد دخل بها في السنة الثانية للهجرة ، ولم يتزوج بكراً غيرها ، وروى البخاري غير مرة في صحيحه عن عائشة أن النبي ﷺ قال : « أريتكم في المنام مرتين إذا رجل يحملك في سُرقة حرير فيقول هذه امرأتك ، فاكشفها فإذا هي أنت . فأقول إن يكن هذا من عند الله يمضه ، . ولقد كان من عند الله فأمضاه ، والخير كل الخير فيما أراد الله . وأى خير أبلغ من مثل ما يقول أبو موسى : ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما ، ويقول عروة : ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا خطب ولا شعر من عائشة (١) .

وحفصة بنت عمر : يموت زوجها بعد غزوة بدر ، فلما تنقضى عدتها يعرضها أبوها على أبي بكر فيسكت ، ويعرضها على عثمان بعد موت زوجها رقية بنت رسول الله فيقول ما أريد أن أتزوج اليوم رجاء أن يزوجه النبي أم كلثوم بنته فيسوؤه موقفهما ، ويذكره للنبي ﷺ فيجيبه بقوله : يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة ويرضى صاحبيه معا ، ويعتذر أبو بكر لعمر في صمته بأنه علم أن النبي ذكرها ، ولم يكن لينبيء بأمر رسول الله من قبله ، ويقول : ولو تركها نكحتها .

فكان إصهاره إلى عمر كإصهاره إلى أبي بكر شرفا كبيرا لهما ومعرفة بعضهما ببلأتهما في الدين ، كما شرف عليا وعثمان بالمصاهرة .
أم حبيبة : بنت أبي سفيان تهاجر إلى الحبشة مصارمةً لأهلها ، فيتنصر زوجها ويفارقها . ولم تكن لترجع إلى ذويها فتفتن في دينها ، فيصون لها الرسول

(١) طرح التزيين للعراقي . والإصابة لابن حجر

كرامتها ، ويحفظها في غيبتها ، ويرسل الى النجاشي حيث يخطبها على النبي
ويصدقها عنه أربعائة دينار ، وتصير بين المهاجرين أم المؤمنين ، ويعلم أبو سفيان
وهو رأس المناوئين للرسول بمكة فيرضيه ذلك ويقول : « هو الفحل لا
يقدع أنفه » .

كذلك أم سلمة : تزوجها ابن عمها وكان من السابقين الأولين ، وابن عمه
رسول الله ﷺ وأخاه من الرضاعة ، هاجرت مع زوجها الى الحبشة ،
وخرجت الى المدينة معه مهاجرة ، فابتليت بلاء شديدا سبق ذكره ؛ حتى رق
لها أهلها ، وخلوا سبيلها فلحقت بزوجها بعد عام من هجرته ، ومات عنها
بالمدينة من جرح أصابه في أحد ، وكانت تجله أمما لإجلال . خطبها رسول الله
ﷺ فاعتذرت بأنها مسنة ، وذات غيرة وأم أيتام ، فيقول لها : أما السن فأنا
أسن ، وأما الغيرة فيذهبها الله ، وأما الأيتام فألى الله ورسوله ، وتنال الشرف
الأسنى ، وتكون إحدى أمهات المؤمنين ، وعُرفت بالرأى السديد ، والفسكر
الصائب ومشورتها في الحديبية معروفة .

أما جورة بنت الحارث : فكان أبوها وقومها يبدون لقتال المسلمين
فالتقى الفريقان ، وهزم الله المشركين ، وأخذوا أسرى ، وكانت هي في السبايا
من سهم ثابت بن قيس أو ابن عم له ، فكاتبته على نفسها ، ثم جاءت رسول الله
ﷺ تقول له : يا رسول الله أنا بنت الحارث (١) سيد قومه ، وقد أصابني
من البلاء ما تعلم ، فكاتبني على نفسي وجئتك أستعينك على كتابتي : قال : فهل
لك في خير من ذلك ؟ قالت وما هو ؟ قال . اقضى عنك كتابتك وأتزوجك

١ - وكان اسمها بره فسماها الرسول ﷺ جورة

قالت : نعم يا رسول الله قد فعلت فتضى عنها ، وخرج الخبر إلى الناس أن النبي تزوج جويرية ابنة الحارث . فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ ، وأرسلوا ما بأيديهم ، قالت عائشة : فلقد أعتق بتزويجها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها

وصفية بنت سيد قومها ، أعتقها وتزوجها ووصل صهره بنى اسرائيل وميمونة بنت الحارث الهلالية آخر زوجاته قالت عائشة عنها : أما إنها كانت اتقانا لله ، وأوصلنا للرحم .

أما زينب : ولزواجها شأن . لغط من حوله اللاغطون ، وغلط فيه المتسرعون وهاك آيات (٢) الله ليس بعدها مقال :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ لا مبينا ، وإذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجنا بها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان امر الله مفعولا ، ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله وكفى بالله حسيبا ، ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، وأمكن رسول الله وخاتم النبيين ، .

فزيد بن حارثه مولى رسول الله ﷺ وهبته خديجة له فخدمه طويلا ، ورأى

من عظيم خلق المصطفى قبل مبعثه ما جعله يفضل على عمه وأبيه وقد جاءه
بالفداء ، فلما اختار الرسول ، أشهد على بنوته ، فقرت عين أبيه وعمه . وسمى
بعد يزيد بن محمد .

وكان شأن المتبني في الجاهلية شأن الابن في النسب والميراث حتى إذا
جاء الله بالإسلام ، ونزل قوله تعالى : « أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ،
فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » وأراد الإسلام أن يعنى
على آثار هذه العادة حفظا للأنسب : وأن يقتلع من نفوسهم اعتبار الدعي
كالابن الحقيقي ؛ أمر رسوله بتزويج زينب من زيد ، فلما خطبها عليه انفت ،
وقالت : يا رسول الله لست بنا كحته ، قال : بلى ، فانكحيه ، قالت : أنا خير
منه حسبا ، وأنا أئيم قومي ، وبنت عمك ... فنزل قوله تعالى : « وما كان
لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ،
فلما علمت الآية قالت « إذا لا أعصى رسول الله ﷺ » ، قد انكحته نفسى .
وبقيت معه سنة أو قريبا منها ، وكانت تنعالي عليه ، وزيد يشكوها ، والرسول
يقول : أمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أن الله مزوجه إياها بعد زيد ،
ويخشى في نفسه قول الجاهلين إن محمدا تزوج حليلة ولده ، فعاتبه الله في ذلك
وما كان له أن يخشى في بلاغ الرسالة شيئا .

ويروى بعض المفسرين هنا عند قوله تعالى . « وتخفى في نفسك ما الله مبديه ،
قصة مؤداها أن النبي رآها مرة حاسرة عن ذراعها ، فأعجبه حسنهما ، فقال
سبحان مقلب القلوب فأخبرت زيدا بذلك فطلقها ، ويبررون ذلك بإرادة الله
للتشريع .

وكان الأمر الذي قضاه الله ورسوله ولم يجعل لمؤمن ولا مؤمنة خيرة في
أمرهم . وأنذر العاصين بالضلال المبين ، حتى رضخت زينب وأطاعت ، وقبلت

الزواج من زيد ، كل ذلك لأن قلب الرسول لم يمل اليها ، فلما أعجبه حسنهما أوحى بالطلاق اليهما — سبحانه ربى هذا بهتان عظيم .

ففى كانت زينب غريبة أو بعيدة حتى يكون حسنهما مجهولا لديه . ولماذا أكرهها النبي على أمر ترفضه وتأباه ، وهو الذى ينهى المؤمنين ان يكرهوا بناتهم على تزويج من لا يحبون ، وكيف ينزل القرآن قاضيا ما قضى به رسول الله ؟ إن ما ألج به بعض القصاص والمفسرين يرده العقل والنقل ، وقد أبطله المحققون وكذبوه .

ولذا أخذ على بعض المفسرين عدم التحرز فيما ينقلون ، فأولى ان يؤخذ على كبير من علماء المسلمين ان ينقل هذا ويدافع عنه فى محاضرات عامة على جمهرة من البريطانيين .

يقول السيد امير على الهندى من محاضرات ألقاها فى جامعة لندن : (١)
« وقد حدث أنه عليه السلام زار زيدا مرة فى داره فلما رأى زينب حاسرة الوجه صاح كما يصيح اليوم المسلم الذى يرى صورة جميلة او تمثالا ويعجب بها » الحمد لله الذى له السلطان على القلوب ، وكانت زينب كثيرا ما تكرر ذلك على مسمع من زوجها لثريه أن النبي يعجب بجمالها ، فكان ذلك يؤدى الى استياء الزوج طبعا ، واخيرا قر قراره على أن يفارقها ، فذهب الى محمد .. فأمره بامساكها . بيد أن زيدا لم يثن عن عزمه فطلق زينب على الرغم من أمر النبي ، فاستاء محمد من سلوك زيد هذا ، خصوصا لأنه هو الذى جمع بين الزوجين اللذين لم تتفق أخلاقهما وطباعهما ، فلما طلقت زينب من زيد ذهبت متضرعة

١ — من كتاب مركز المرأة فى الاسلام للسيد امير على الهندى . قاضى الهند سابقا وعضو جلالة الملك ، وعضو وزارة الهند — تعريب على فهمى محمد

إليه أن يتزوج بها ، ولم يرضها الا أن صارت إحدى نساء النبي .
ولسنا في حاجة الى تفنيد هذا الكلام الشعري ، بعد ما قلناه وقاله الأئمة
السابقون ، وما بك الا أن تنظر الآيات الكريمة مجتمعة أو متفرقة فتجدها
واضحة الدلالة في أن الله أمر نبيه بتزويج زينب من زيد ، على كره منها إلا
طاعة لله ورسوله ؛ حتى إذا طلقها زيد ، زوجه الله أياها ؛ لكي لا يكون على
المؤمنين حرج في أزواج أديعائهم إذا قضوا منهن وطرا ، فهذا بذلك عادة
جاهلية ، وأقام سنة اسلامية ، دأعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله .

وأكرمت زينب بما احتملت من التجربة ، وفخرت على أمهات المؤمنين
قاطبة ، وهي تقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات .
هذه هي جملة الأسباب لتعدد زوجات النبي ﷺ لانه لا يخرج عما قلناه سابقا
من صالح الدعوة والدولة في مصاهرة القبائل والاحساب ، ومعرفة الفضل
لكبار الاصحاب ، ورعاية الضعيفات من المؤمنات ومكافأة المجاهدات المحسنات
الى بيان احكام التشريع ، فكان ذلك عبئا من اعباء الدعوة يحمل منه اكبر
نصيب ويرشد أصحابه الى ما يطبقون .

وتقرأ في مثل هذا المقام أن الضحاك بن قيس يعرض ابنته على الرسول ،
ويقول : انها لم تصدع قط فيقول لا حاجة لي بها (١) وتجيء امرأة تهب نفسها
للنبي فيزوجها لرجل بما معه من القرآن ، وتجيء ام كلثوم بنت عقبة بن أبي
معيط ، وتهب نفسها للنبي فيزوجها زيدا ، فتقول هي واخوها : انما اردنا رسول
الله فزوجنا عبده ، فيسمعون الآية الكريمة « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة

إذا قضى الله ورسوله (١)

ويرسل رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى بني كلب، ويقول: «فإن استجابوا لك فتزوج بنت ملكهم»، فلما قدم عليهم دعاهم إلى الإسلام فأجابوا، وتزوج تمار بنت الأصبح (٢) ملكهم وقدم بها المدينة فكان ذلك كله من حسن سياسته في ربط الأواصر، وتآلف القبائل بنفسه وبأصحابه، وكان بحكم إمامته ومكاته يحمل العبء الأكبر، كشأنه في كل شيء، لا يكلف أصحابه ما يكلف نفسه من عزائم الأمور ألم تره يصوم فيوالى بين الأيام، ويمنع أصحابه الموالاة؟ فإذا ألحوا راغبين في الوصال اقتداء به قال لهم، لستم مثلي: «إني أبيت عند ربى يطعمنى ويسقنى، ويقوم الليل الا قليلا». وينهى من قال منهم أقوم ولا أرقد وينهى بنفسه إلى الحرب، ويتخلف أحيانا تخفيفا عليهم ويقول، لو لا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية.

هذا موقف النبي والأصحاب في ظروفه وملاساته.

تشريع خالد : وتنظر في الأمر كله كتشريع خالد عماده القرآن والسنة

فترى الإسلام الذي سلك باتباعه سبل الطهر والعفاف، وأمر بغض الأبصار وحفظ الجوارح، وفرض صيانة الأعراض والأنساب وأوجب على المسلمين أن يكونوا محصنين غير مسافحين ولا متخذين أخذان، هذا الإسلام نظم علاقة الرجل بالمرأة وعلاقة المرأة بالرجل على نحو لم يعهد من قبل، وراعى الضرورات القائمة لصيانة الدولة، وحماية جميع أفرادها ماديا وروحيا حينما أباح التعدد، ومع ذلك فقد حدد القرآن منه، وكأنه يشير إلى أنه الأصل في علاقة الجنسين ما لم تكن هناك الضرورات القاضية وقلما تنقطع.

والبارة القرآنية الكريمة التي أباحت التعدد جزء آية واردة في وجوب القسط لليتامى . « وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ،

والنظر السليم حريٌّ أن يستبين الضرورة القاضية باباحة التعدد في وضوح ويسر ؛ فقد تكون الضرورة شخصية والرجل فيها غير المرأة ، لان استعداده أوفر وموانعه أقل ، فاذا اعتبرنا الناحية الجنسية بأغراضها العليا من عمارة الكون وحفظ النوع ، كان الرجل قادرا على تقديم مادة الحياة في كل وقت ولاكثر من واحدة ولسن أعلى ، لا يثوده في ذلك ما يثود المرأة من حيض ونفاس وحمل ووضع .

ولعل أصدق دليل في هذا الصدد ، صحة الحياة برجل مع نساء وضياها بامرأة مع رجال ، ذلك أمر معلوم لا سبيل الى الشك فيه ، ومتى كان الرجل أقوى من المرأة فقد يشق على كثيرين الاكتفاء بواحدة .

وقد تكون الضرورة اجتماعية لأن المشاهد غالبا زيادة عدد النساء على الرجال في كثير من الدول ، واطراد ذلك اطرادا هائلا في أيام الحروب والثورات ، والإحصاءات الأخيرة - على ما طالعنا الصحف بها - في دول كثيرة تدل على ذلك ، فالنساء في إنجلترا تزيد على الرجال بأكثر من مليون ونصف ، وغير المتزوجات بلغن خمسة ملايين امرأة ، وفرنسا شبيهة بها وألمانيا نسبة النساء فيها إلى الرجال كنسبة ٥ : ٤ ، وروسيا قريبة منها .

فهل نجبر أولئك النسوة على حياة الديوث والترهب صيانة للأعراض والأخلاق ؟ وهل استطاع ذلك لو أريد ؟

وأيهما أكرم للمرأة والرجل علاقة شريفة تصونهما وتصون ما يحى بينهما من النسل ، أم سفاح ومخادنة تسيغها دول الغرب ، يكون للرجل الغنم ، وعلى المرأة الغرم ؟

لقد كان تعدد الزوجات أمرا متعارفا لدى الأمم السابقة ، وذكرت التوراة لسليمان وحده سبعائة زوجة وثلاثمائة سرية (١) وجاء الإسلام ولا ضابط له عند العرب ، فجعله في حدوده الضيقة ، ولم يجعله مطلقا لذاته ولا مندوبا فإذا اعترف الإسلام به فقد أوجبته الضرورات الجنسية والاجتماعية لصالح المرأة والرجل على السواء . وقد أوجب الله على الرجل العدالة المحققة وجاء في الحديث : «أيا رجل تزوج امرأتين فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»

ولن يتوفر عدل في الدواقين والدوافع ، أولئك الذين لا يريدون من الزواج ما أراد الله إذ يقول : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة» ولا يبتغون منه ما جعل الله فيه فيقولون مثل ما يقول عباد الرحمن : «ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين» الغرب وتعدد الزوجات : ولئن تنازل الغربيون هذا النظام بروح السخط

له ، والتعصب عليه ، كشأنهم في كل ما هو إسلامي ، وقلدهم في نقدهم المتغربون فلم يعدم الحق نصيرا من المنصفين بين صفوف المعادين ، والفضل ما شهدت به الأعداء . يقول غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب (٢) منتقدا قومه في الحلة على تعدد الزوجات ، ومشيدا به من فصل طويل : إن تعدد الزوجات على مثال

(١) سفر الملوك ف ٢١ ص ٥٤٧

(٢) نقلا من كتاب دولة النساء للاستاذ عبد الرحمن البرقوقي . والمرأة العربية للاستاذ عبد الله عفيفي الجزء الثاني

ما شرعه الإسلام من أفضل الأنظمة ، وأنهضها بأدب الامة التي تذهب إليه ،
وتعتصم به ، وأوثقها للأسرة عقدا ، وأشدّها لآصرتها أزرا ، وسيله أن تكون
المرأة المسلمة أسعد حالا ، وأوجه شأنا ، وأحق باحترام الرجل من أختها الغربية
أما في الغرب .. فالبقاء على الواحدة نص من نصوص القانون لا أمرا واقعا ،
ولا حكما نافذا — وليس في قدرة أحد أن يعترض ما أقول ، أو ينكر أن
الوقوف دون ذلك السياج — سياج الزوجة الواحدة — أمر لا يستمسك به
إلا الأقلون ، ولست أدري على أية قاعدة يبنى الأوربيون حكمهم بانحطاط
ذلك النظام — نظام تعدد الزوجات — عن نظام التفرد المشوب بين الأوربيين
بالكذب والنفاق ، على حين أرى أسبابا تحملي على إثارة نظام التعدد على
ما سواه .

وليس ذلك الفيلسوف وحيداً بين قومه ، وأهل ملته ، فلقد شاركه
الكثيرون والكثيرات فيما ارتآه ، ودعوا قومهم اليه .

خطب اللورد كرومر خطبة انتقديها الشريعة الإسلامية في تعدد الزوجات
ولإباحة الطلاق ، فرد عليه السيد رشيد رضا ردّا قاطعا ، وجاء في حديثه أن من
كاتبات الانجليز من طالبت في الجرائد بإباحة تعدد الزوجات رحمة بالعاملات
الفقيرات ، والبغايا المضطرات ، ونقل بعض مقالات لأولئك الكاتبات وما
جاء فيها : د لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وعم البلاء ، وقل الباحثون عن
أسباب ذلك ، وإذ كنت امرأة أراني أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع
شفقة عليهن وحزنا ، وماذا عسى يفيدهن شي وحزني وتوجعي وتفجعي وإن
شاركني الناس فيها جميعا ، لا فائدة إلا في العمل بما يمنع هذه الحالة الرجس ،
ولله در العالم الفاضل (تومس) فإنه رأى الداء الكافل للشفاء (وهو أن يباح

للرجل الزوج بأكثر من واحدة) وبهذه الوسطة يزول البلاء لاحالة ، وتصبح بناتنا ربات بيوت ، فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الأوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهذا التحديد هو الذى جعل بناتنا شوارد ، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال ،

وتحدثت عن الأولاد غير الشرعيين وقالت : فلو كان تعدد الزوجات مباحا لما حاق بأولئك الأولاد وبأمهاتهم ما هم فيه من العذاب الهون ، واسلم عرضهن وعرض أولادهن ،

وقالت أخرى بعد وصف الاختلاط ، وتخريب الرجل بالفتاة وتركها بجنيها وذوها : فكم قاست هذه المرأة من مرارة هذه الحياة ، حتى قدرت على كفالهم ، والذى علقته منه لا ينظر إلى أولئك الأطفال ، ولا يتعهدهم بشيء ، ويلاه من هذه الحالة التعسة !!! ترى من كان معينا لها فى الوحى ودواره ، والحمل وأقاله . والوضع وآلامه ، والفصال ومرارته ؟ ، (١)

وإذا كان الذى طلعت به صحف انجلترا على الانجليز فى سنة ١٩٠١ يعد قديما ، وإنه لكذلك ، فإذا جد على صلة المرأة بالرجل فى أوروبا كل هذه السنين ؟ هل حلت القضية حالا عادلا فى مدى نصف قرن من الزمان ؟

لقد رأينا المرأة تشقى بالصلات الجنسية التى لا يحمل الرجل فيها عبئا ما ، فتراه ينسحب ناعم البال ، هادىء الحس ، بعد أن قضى ما أراد ، ولتحمل المرأة عيشها وعيش وليدها . ولتقاس من ذلك العذاب الأليم .

وتسكن الأيام والسنون ، وتهتدى المرأة إلى حل لمعضلتها بعد تفكير شديد

(١) رد عليه فى المنار ، ونقل ذلك فى تفسيره ج ٤ وفى كتابه نداء إلى الجنس اللطيف .

وُجِّعَ المؤتمرات وينتظم عقدها من النساء القانونيات للبحث في اتصال المرأة غير المشروع بالرجل ، ويتفقن على وضع قانون يطالبن فيه بترتيب حقوق للمرأة ولائها غير الشرعي ، قَبْلَ من يتصل بها من الرجال .

نشرت الأهرام في سبتمبر عام سنة ١٩٥٣ نبأ مؤتمر تورنتو بإيطاليا ، الذي عقده اتحاد القانونيات العالميات وسبق عقده من قبل في باريس وجنيف وستراسبورج وغيرها ، ومثلت فيه مصر لأول مرة ، ويعني الاتحاد ببحث حقوق العائلة والأحوال الشخصية للمرأة ، والعمل على وضع القوانين التي تكفل حمايتها وقالت الأهرام : وقد بحث المؤتمر في دورته الحالية مسألتين : حقوق النساء والابن الشرعي ، وما سموه الأم الأنسة ، أي التي أنجبت أطفالا دون أن تزوج - ورأت المجتمعات ترتيب حقوق لكل امرأة قبل أي رجل يتصل بها ، وذكرت رئيسة المؤتمر أن الاتحاد وضع مشروع معاهدة لحماية الابن غير الشرعي ، وعلاقة المرأة بالرجل ،

وقد خطت امرأة انجليزية خطوة إيجابية أعلها من آثار الدعوة إلى هذه المعاهدة ، ورفعت قضية على طيار أمريكي تطلب النفقة لها ولوليدها منه ، فرفضت المحكمة دعواها بحجة أن على فتيات الانجليز أن يحرصن في علاقتهن مع الأمريكان ، وكانت هذه واحدة من سبعين ألفا من الأمهات الأوانس في الأيام الأخيرة ، شغلن الضمير المتمدن في نصف العالم الحر ١١١ بالاستماع لحظة إلى أمريكي مسئول ينادى بعقد معاهدة في شأن أولئك النساء البائسات ، علق عليها رئيس تحرير الأهرام بتاريخ ١٨/٢/١٩٥٤ بقوله في ما قل ودل : « ستعقد بين بريطانيا وأمريكا معاهدة من نوع جديد ، فلا هي سياسية ولا هي عسكرية ، ولا هي مالية ... إنها معاهدة غرامية ... يقول السناتور جرين عضو لجنة

العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي ، إن الضمير الأمريكي يجب أن يتحرك ، وإن معاهدة التصحيح الموقوف يجب أن تعقد .. أما الموقوف فهو خاص بسبعين ألف ابن حرام ، ولدوا بسبب الجنود الأمريكيين .. فلما حاولت إحداهن أن ترفع قضية نفقة حكم القضاء البريطاني ضدها ، وقال القاضي في حكمه إن العبرة تقضى بضرورة أن تحرص هؤلاء الشابات في علاقاتهن مع الجنود الأمريكيين حرصاً أكثر من ذلك ... وبذلك سقطت نفقة ... ٧٠ / ألف فتاة وامرأة . ١ هـ

فليت شعري ما عسى أولئك الكاتبات الانجليزيات يقلن ، لو امتد بهن الزمن فرأين ما وصل إليه حال بناتهن ونسائهن ؟ بل ما عساهن قائلات لأولئك المصريات المسلمات اللاتي انعقد مؤتمرن من ست وعشرين هيئة نسائية في منتصف أبريل (١) لبحث شؤون الأسرة ، وطالبن فيه بمنع تعدد الزوجات . وماذا ستصنع هذه الملايين الخمسة من نساء الانجليز غير المتزوجات ، والملايين سواها من نساء الغرب في نداء الجنس ؟

هل من عجب بعد ذلك إن عضدن القوانين العالمية في المطالبة بترتيب حقوق لكل امرأة قبل أى رجل يتصل بها ، وفي وضع المعاهدة لحماية الابن غير الشرعى — فلو أن ذلك الوالد اللص والزوج السكاذب زوجا والدا شرعيا فضم المرأة والولد قانونا ، كما احتواهما فعلا وقام لهما بواجب الزوج والوالد أكانت تهدر حقوق المرأة ووليدها على هذه الصورة الشوهاء ١٩

ثم هل يكون جهد أولئك المثقفات عندنا بعد ما رأيناه ونراه أن نمضى خلف أولئك الأقوام ، ونفتقى آثارهم ، شبرا بشبر وذراعا بذراع ، ولودخلوا

على أننا في وضع قانون كهذا مقترح لا نكون سوى مقلدين في تقليد سيئات الآخرين حبا في التقليد ، فموضوع تعدد الزوجات عدا أنه ضرورة اجتماعية ، لم يعد مشكلة ذات بال ، فقد رغب الناس عنه ، وصار أمرا نادرا لا يقدم عليه كثيرون وكما قاله رئيس المجلس المختص بالقرية والأسرة : إن تعدد الزوجات أقل بكثير من الماضي بسبب ثقل الأعباء الزوجية بل تكاد هذه الظاهرة تلاشي .

التقييد المحدود : وأخيرا فإن هناك فوق ذلك كله من دقائق التشريع الإسلامي وروائعه ما لو علمته المناديات بالتقييد لطربن له وحسبته حجة لمن ، وهو بعد آية على عظمة هذا التشريع وقدرته على مواجهة ما يعرض للفرد والجماعة من حاجات ، ذلك أن التقييد أجازه الدين لمجازة محدودة ، تحقق الخير الذي يكون فيه ، ولا تعدوه إلى ضرر التعميم ، فللمرأة في نظر الإسلام أن تقدر ما فيه خيرها ، فتشترط على زوجها إن شاءت ألا يتزوج غيرها ، وعليه الوفاء لها ، بل لقد قرر بعض الأئمة أن الأفراد إن كان عادة قوم درجوا عليه ، فليس للزوج أن يقترب غيرها ولو لم تشترط عليه ، لأن المعروف كالمشروط ، وقد أخذوه من أصله الأصيل فقد روى البخاري في عدة مواضع من صحيحه عن المسور بن مخرمة قال : سمعت النبي ﷺ يقول وهو على المنبر : « إن بني هشام ابن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب ؛ فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فإنا هي بضعة مني يربني ما أرباها ويؤذي ما آذاها ، وفي رواية أخرى : « إن فاطمة مني وأنا اتخوف أن تفتن في دينها ، ثم ذكر صهرها له من بني عبد شمس فأنى عليه

في مصاهرته اياه قال : حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي ، وأني لست أحرم
حلالا ، ولا أحل حراما ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله (ﷺ)
وبنت عدو الله أبدا .

ولئن نهى الرسول ﷺ أن تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله ، ولم
يكن ذلك لائقا ، فقد علل الحكم أولا بأنه يخشى أن تفتن في دينها ، وأخذ
العلماء ان الشريفة التي يؤذيها أن يتزوج رجلها بمن دونها لايحل إيذاؤها بالتزوج
عليها ، كذلك إن اشترطته على الرجل ، او كانت عادة قوم فعليه الوفاء .

هذا هو عدل الله بين العباد ، وشرعه الحكيم للناس بوجههم الى ما فيه خيرهم
وعزهم وسعادتهم يعي بصغير من الأمر أو كبير ، ولا بقليل أو كثير ، أحاط المرأة
بالرعاية الواجبة ، وضمن صيانة المجتمع ، ونوع الاباحة والتقييد ؛ ليواجه بكل
منها ما يناسبه ، ولو أراد التقييد عاما لما أعياه ، ولو علم الخير في تعميمه لما
أهمله او جامل فيه .

هذا هو الاسلام يواجه المجتمع الراقى في كل زمان ومكان بمدد من التشريع
الإلهي العادل ، تنزيل من حكيم حميد .

فماذا لو غنيا برفع مستوى الأسرة دينيا وثقافيا وماديا ، وعملنا على إنارة
القلوب ، وملئها بالخير والرحمة والحنان ، وبذلنا الجهد لاهياء الضمائر ، وتنوير
البصائر ، وتركنا مباحا ما اباحه الله ؟ ولئن شكونا تجاوز البعض لحدود الله
فليكن لنا من النظم ما يكفل الخير العام ، ويضرب على أيدي المعتدين الطغام ،
على أن يكون من معينه الصافي الذي لا كدر فيه ، على أن يكون دين الله ،
وفي حدود ارشاده وهداه ، فآله أرحم بالمؤمنين ، وأحكم الحاكمين ، وليجتمع
المسلمون بدينهم على كلمة سواء ، ولا ينفرقوا بين شرع الله واهواء الناس ، فذلك
اجدى على المجتمع الاسلامي ، وأهدى سبيلا .

مشروعية الطلاق

معنى الاسلام بأمر الزوجية عناية كاملة ، عرفانا منه بأن الزواج مادة الوجود ، وسبيل عمارة الكون ليس في الإنسان وحده ، بل في الحيوان والنبات كذلك . ومن كل شيء خلقنا زوجين ، لعلكم تذكرون ، لهذا تراه يقيم البيت المسلم على أساس وطيء من البصيرة والتثبت والرضا ، يتجلى في تخيير الزوجة ، وتقديم رضاها ، وتفضيل ذات الدين والخلق الجميل ، وفي إرشاده إلى رؤية كل من الزوجين لصاحبه قبل عقد الزوجية ، لأن الأرواح جنود مجندة . ما نعارف منها ائتلف ، وما تناكر اختلف .

فاذا قام البيت وتم بناؤه ، دعا الزوجين إلى حفظه وصيافته ، وأرشدتهما إلى ما يقويه ويدعم أركانه ، ويشد أواصره ، فعظم حرمة كل على صاحبه ، وجعل الحقوق والواجبات كفاء ، وأعلمهم أن خير الرجال خيرهم لأهله ، ودعاهم إلى الرفق والمياسرة ، واللفظ والبشاشة وإلى كل ما يثبت الحب في القلوب حتى إن النبي ليغري الزوج بملاعبة زوجته ، ويقول لجابر : « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك » ، بل إنه ليجعل اللقمة يضعها الرجل في فم زوجته قربة عند الله تعالى درجته ، ويدفعه إلى نشدان السعادة والبهجة وقرّة العين في زوجته ، مقدما لها على ذريته ، سالكا إلى ذلك ألطف السبل ، حينما يذكر من صفات الصالحين عباد الرحمن الذين يديتون لربهم سجدا وقياما ، أنهم « يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين ، واجعلنا للمتقين اماما » ، كما يأمر المرأة بطاعة زوجها واحترامه ، ويجعل رضاه سببا لرضا الله سبحانه .

وهو في ذلك لا يجعل الزواج قصورا سعيدة من الخيال والاهوام ، أو

يخفى ما فيه من تبعات وأعباء جسام ، بل تسمع الى الرسول في معرض التذكير والتبصرة بحقائق الأمور يقول : « إن المرأة خلقت من ضلع ، فان ذهبت تقيمه كسرتة ؛ وكسرها طلاقها ، تلك طبيعتها فطرت عليها ، فيجب اكرامها ورعايتها والاحسان إليها ، لا في الرضا فحسب ، بل ولو تغير القلب عليها أو فتر حبه لها ، حيث لا رية ولا نشوز وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .. » « لايفرك » (١) مؤمن مؤمنة ، إن أبغض منها خلقا أحب منها خلقا آخر ، وقد اخبر الله تعالى عن الصالحات بأنهن « قاتات حافظات للغيب بما حفظ الله » هذه حياطة الإسلام للبيت ، حتى تمضي ربحه رقاء لينة . يستمتع الزوجان فيها بحياة سعيدة هائلة وينشئان اسرة كريمة صالحة .

علاج كل من الزوجين لصاحبه

ولكن الحياة ليست كلها ورودا وأزهارا ، بل إن أشواكها من حول الورود ، وسماؤها لا تأمن السحب أو الاعاصير ، فواجب الزوجين في نظر الإسلام الحكمة والتريث والبصيرة والعلاج .

فان بدا من الزوجة نشوز أو تمرد بعد كل ما قدمنا من رعاية الرجل واحسانه ومداراته فلا جُناح عليه أن يقف منها موقف المربي الحكيم بلين القول، وصواب التوجيه والارشاد ، أو بالهجر في الفراش حتى يظامن من كبرياتها عليه — فان لم تفد نصيحة ؛ ولم يغنه إغصاء وهجر ، فقد رخص له في ضرب خفيف ، فان إطاعت المرأة واستقامت على الجادة عاد الرجل اليها على خير ما كان ، وليس له عليها من سبيل . هذا ما يرشد إليه اللطيف الخبير اذ يقول :

والسَّالِقِ تَخَافُونَ نَشُوزَهُنَ فَعُظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَاضْرِبُوهُنَّ ،
فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا .

كذلك إن خافت المرأة من زوجها نشوزا أو فتورا في مودتها ، فلا بأس
أن تحاول ترضيته وإصلاحه بما أوتيت من لطف وكياسه وتخفيض له جناحها
وترفق به في بعض رغباتها وحقوقها . قال تعالى : « وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا
نَشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ،
وَأَحْضَرْتُ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ . وَإِنْ تَحْسَنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ،
وَكَثِيرًا مِمَّا تَرَى ذَلِكَ الْعِلَاجَ الْيَسِيرَ دَافِعًا لَشَرِّ كَبِيرٍ ، وَخَطَرَ جَسِيمٍ يَهْتَدِدُ
الْعِلَاقَةُ الزَّوْجِيَّةُ فَيَدَاوِي أَمْرَهَا وَيَطْبُ لِدَائِهَا .

التحكيم

أما إن تفاقم الخلاف بين الزوجين حتى خيف الشقاق فليس الرجل أن
يغالى في إيذاء ، أو يعتمد إهانة وقسرا ، بل هناك الحكمان ينظران في أمرهما ،
ليصلحا ذات بينهما ، وذلك قول الله سبحانه : « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا
حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ، إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ
عَلِيمًا خَبِيرًا ،

ومن لطف القرآن ، وحسن تهديده إلى غايته ، ورغبته في دوام عسرتيهما
أن يذكر الإصلاح واعداد منحهما التوفيق من عند الله ، ويضرب صفحا عن
ذكر ما يقابله . عن ابن عباس قال : أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلا صالحا
من أهل الرجل ، ورجلا مثله من أهل المرأة ، فينظران أيهما المسيء فإن كان
الرجل هو المسيء حجبا عنه امرأته ، وقصصروه على النفقة وإن كانت المرأة
هي المسيئة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة ، فإن اجتمع رأيهما على أن

يُفَرِّقُ أَوْ يَجْمَعُ فَأَمْرُهُمَا جَائِزٌ ، فَإِنْ رَأَى أَنْ يَجْمَعُ فَرَضَى أَحَدَ الزَّوْجَيْنِ وَكَرِهَ
الْآخَرَ ثُمَّ مَاتَ أَحَدُهُمَا فَالرَّاضِي يَرِثُ الْكَارِهَ ، وَلَا يَرِثُ الْكَارِهُ الرَّاضِيَ .. رَوَاهُ
ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ لِلآيَةِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ

وَبَعَثَ عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابْنَ عَبَّاسٍ وَمَعَهُ أَوِيَّةُ حَكِيمٍ بَيْنَ عَقِيلِ بْنِ أَبِي
طَالِبٍ وَزَوْجَتِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَتَبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ (١) وَقَالَ : إِنْ رَأَيْتُمَا أَنْ تَجْمَعَا فَجْمَعَا
وَأَنْ رَأَيْتُمَا أَنْ تَفَرِّقَا فَفَرِّقَا ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لِأَفَرِّقَنَّ بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ
مَا كُنْتُ لِأَفَرِّقَ بَيْنَ شَخْصَيْنِ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفَرٍ ، فَأَيُّهُمَا فَوَجَدَاهُمَا قَدْ أَغْلَقَا عَلَيْهِمَا
أَبْوَاهُمَا فَرَجَعَا مِنْ حَيْثُ جَاءَا .

هَذِهِ هِيَ الْخُطُوبَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي رِعَايَةِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ وَتَقْوِيمِهَا ، وَاصْلَاحِ
مَا يَطْرَأُ عَلَيْهَا ، فَإِنْ تَبَاعَدَتْ مَسَافَةَ الْخُلْفِ ، وَلَمْ يَجِدْ كُلُّ ذَلِكَ فِي عَوْدَةِ الْمِيَاهِ إِلَى
بَجَارِيهَا ، وَعَجَزَ الْحَكَمَانِ عَنِ التَّوْفِيقِ فَلَيْسَ إِلَّا التَّسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ ، وَإِنْ يَتَفَرَّقَا
'يُغْنِ اللَّهُ كَلًّا مِنْ سَعَتِهِ ،

الطَّلَاقُ عَمَلِيَّةٌ إِنْقَازٌ :

فَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ الطَّلَاقَ حَالِ ضَرُورَةٍ لَا مَعْدَى مِنْهَا ، وَلَا يُحِيدُ عَنْهَا ، شَرْعُهُ عِلَاجٌ
مِنْ خَطَرٍ مُحَقَّقٍ لَا يُقَاسُ الطَّلَاقُ إِلَيْهِ شَيْئًا - خَطَرُ انْهَارِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ انْهِيَارًا يُجْعَلُهَا
جَمِيعًا لَا يُطَاقُ ذَلِكَ الْخَطَرُ الَّذِي نَشَاهِدُ بَعْضَ آثَارِهِ لَدَى قَوْمٍ لَا يُبَاحُ لَهُمُ الطَّلَاقُ
وَنَاهِيكَ بِخَطَرٍ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى الْفِرَارِ مِنْ دِينِهِ وَاعْتِقَاقِ سِوَاهُ ، أَوْ يَدْفَعُهُ إِلَى
الْخُرُوجِ مِنْ إِنْسَانِيَّةٍ بِقَتْلِ النَّفْسِ وَازْهَاقِ الرُّوحِ ، أَوْ يُدْخِلُهُ إِلَى الْكُفْرِ

« ١ » وَكَانَتْ تَذْكَرُ عَلَيْهِ فِي السُّؤَالِ عَنْ أَبِيهَا وَآخِيهَا قَتِيلِ بَدْرٍ ، وَتَقُولُ لَهُ أَيْنَ
عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، فَلَمَّا أَلَحَّتْ عَلَيْهِ قَالَ لَهَا : عَلَى يَسَارِكَ فِي النَّارِ إِذَا
دَخَلْتَ ، فَشَدَّتْ ثِيَابَهَا فَجَاءَتْ عُمَانُ فَذَكَرَتْ لَهُ ذَلِكَ فَضَحِكَ وَأَرْسَلَ الْحَكِيمِينَ

برجولته فيغرى آخر بالوصول الى حليلته لتضبط متلبسة بجريمة الزنا فتتاح له فراقتها
ليس من شك في أن الطلاق علاج ، والعلاج لا يحتاجه الصحيح ، ومن
العلاج ما يكون بترا ، ولن يغض من فكرة التداوى أن يخطئ مريض أو مرضى
في تعاطي الدواء ، أو يسرفوا فيه فيشقوا به . والطلاق بعد ذلك في نظر الاسلام
مُضيق فيه كل التضيق ، مبغض الى الله ورسوله . وقد رأيت كيف تصان الحياة
الزوجية ويصبر على شدائدها ، ويعالج الزوج زوجته ، والزوجة زوجها ثم
الحكمان يعمدان الى الإصلاح .

فان استقر امرهما على الفراق ، وعزما على الطلاق ، فقد جعل الاسلام
حينئذ لمن بيده العصمة عادة وهو الرجل ان يوقع الطلاق في حال لا يتعداه
إلا ظالما ، وهو ما أمر الله به في قوله : يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ،
أى مستقبلات لعدتهن ، وذلك في طهر لم يمسه فيها ، أما إن كانت حائضا أو
طاهرا مسها فلا يجوز له طلاقها .

روى البخارى ومسلم أن ابن عمر طلق امرأة له وهى حائض ، فذكر ذلك
عمر للنبي ﷺ ، فتخبط فيه رسول الله ﷺ ثم قال : د ليراجعها ثم يمسه
حتى تطهر ثم تحيض ، فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسه ،
فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء ،

وفى الحديث على هذا النحو من التقدير لأحاسيس النفوس ودخائلها ، وفيه
من دقائق التشريع وروائعه ما يراه الدارس الفاحص لأى ناحية من
نواحي الاسلام .

فالنبي لم يقر الطلاق زمن الحيض ، وأمره بإعادتها كما كانت وإمسكها ،
لامدة الحيض فحسب ولكن طهرا كاملا بعده ، ثم تحيض مرة أخرى ثم تطهر

فإن شاء أمسك ، وإن شاء طلق ، وتعم النظر في الهدى النبوى فتراه إصلاح ذات
البين إن كان إليه سبيل ، فالمرأة غير مرغوب فيها زمن الحيض ، يسألونك عن
الحيض قل هو اذى ، فاعتزلوا النساء فى الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ،
وقد يكون الرجل نائرا الأعصاب ، ضيق الصدر من حيث لا يشعر ، فلا
يباح له الاقدام على أمر يهدم به بيتا عامرا فى ثورة نفسية عارضة قد يندم
عليها اشد الندم ، فحظر عليه الطلاق اثناءها ، حتى إذا جاء الطهر الاول امره
كذلك بالامساك عسى ان يكون فيه ما يكون بين الرجل وزوجته فيزول
ما بنفسه وتسكن فائزته ، ويعود اليها الصفاء ، وقد تحمل المرأة فيدعوه
حملها الى امساكها .

أما إن أصر بعدد على الفراق فلن يكون ذلك غالبا إلا لحاجة ظاهرة ، أو
ضرورة قاهرة ، فله أن يطلقها مستقبلة لعدتها فى طهر لم يمسا فيه ، ومثل ذلك
ما لو طلقها حاملا قد استبان حملها ، ولم يعطفه ذلك عليها ، دل صنيعه
على تمكن الخلاف والشقاق ، فلا طلاقا تطليقه ، وليتق الله فى معاملتها ، لا يخرجها
من بيتها التى هى فيه ، ولا ينبغي لها ان تخرج ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ،
اى قلعله يندم على تطليق زوجته ، وتندم هى على فراق زوجها ، فيفينا الى باحة
الرضا قبل حلول الاجل .

فاذا أشرف الاجل على الانتهاء وآذنت العدة بالانقضاء ، فقد وجب البت
فى شأن العلاقة المعلقة ، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، وليشهد الامر عدلان
صالحان ، عسى أن يكون حضور الاختيار داعية الخير والرضا قال تعالى :
« يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم ،
لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك

حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ، ذاكم يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وهذا الطلاق الأول هو المعروف بالرجعي - واحدة من ثلاث - لحق الرجل في ارتجاع زوجته قبل نهاية العدة . ومن طرائف المقروء في هذا الصدد ما نشرته صحيفة المصري بعدد الصادر في ٥ / ١ / ١٩٥٤ ونصه : « وضع قانوني انجليزي كبير مشروع قانون يقضى بإيجاد نوع من الطلاق تحت التجربة ، وذلك لكي يتيح للزوجين غير المتفقين فرصة مراجعة أفكارهما ، وتحديد الأسباب التي تدفعهما للطلاق حينما يكونان في حالة انفصال بتي ، وقد أيدت الكنيسة الانجليكانية هذا المشروع » .

في النصف الثاني من القرن العشرين أي بعد نزول القرآن الكريم بقراءة أربعة عشر قرنا من الزمان يهتدي أحد المفكرين القانونيين إلى نوع من الطلاق يكون تحت الاختبار ، ليراجع الزوجان فيه أنفسهما ، ويحدد في هدوء موقفهما النهائي ، فهاذا نقول في هذا الذي « ابتكره للانجليز ، أحد المفكرين ، وباركته كنيسة إن صح ذلك وأخذ به ؟

أنقول إنه الرجعية إلى أكثر من ألف عام ، أم نقول إن هذا التشريع الذي كانت صخور الصحراء ورمالها مهبط وحيه ومشرق صبحه قد أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض والذي وضع في النفوس فطرها وغرز غرائزها ، والذي يحيط بمكنونها ، « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، بلى وربى إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون .

ولنض في الموضوع تمل آياته ، ونستجلي بيناته ، وتنظر في القرآن الكريم
فتراه لم يقطع الزوجية بمجرد الطلاق ، بل أمر المرأة بالنزول والانتظار ثلاثة
قروء ، فإن كانت حاملا وجب إعلانها للحمل عسى أن يتعاطفا ، ورجلها أحق
بها إن أرادا صلحا ، وذلك قول الله سبحانه والمطلقات يتربصن بأنفسهن
ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يسكنن ما خلق الله في أرحامهن إن كن
يؤمنن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ،
وليس له أن يراجعها لمضارها ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل
ذلك فقد ظلم نفسه ، وكان الرجل في الجاهلية يطلق ماشاء ، ويراجع ما شاء
فكانت العلاقة الزوجية العوبة في يد السفهاء ، حتى بلغ من أمر رجل أن يقول
لزوجته : والله لا آويك . ولا أفارقك ، قالت : وكيف ؟ قال : أطلقك فاذا دنا
أجلك راجعتك ثم أطلقك فاذا دنا أجلك راجعتك . . . فشكت المرأة لرسول
الله ﷺ فنزل قول الله تعالى الطلاق مرتان (١) وبهذا كان الزوجين فرصتان
للتراجع ، وكان الزوج في فسخة من أمره مرة ومرة ، فاذا جاوزهما الى الثالثة
فقد أفلت الزمام من يده ، وضيق من أمره ما كان واسعا ، وليس له حق
ارتجاع مطلقة بعد أن ظهر جليا ألا خير في حياة مضطربه مليئة بأسباب
الشحناء والبغضاء .

فاذا قضت المرأة عدها فقد حل لها النكاح بمن شاءت من الأزواج .
فإن سعدت بحياتها الجديدة في ظل الزوج الجديد فذاك ، وكثيرا ما يداعب
خيال المرأة حياتها السابقة ، فتود لو رجعت لسابق عهدها ، وقد تستبد بها الرغبة

وبخاصة إن لم توفق في زواجها ، بل لعل ذكرى الزوج الأول تكون هي السبب
لاخفاقها وقديما قال الشاعر :

نَقَلْ فَرَادَكَ مَا اسْتَطَعْتُ مِنَ الْمَهْوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا الْحَبِيبُ الْأَوَّلُ .
فلو طلقها الثاني ، وشاءت الرجوع الى الأول فلا عليها ، إن ظنا استقامة
أمرهما . عن عائشة قالت : دخلت امرأة رفاعة القرظي ، وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ
فقلت : إن رفاعة طلقني ألبنة وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني ، وإنما معه مثل
الهُدبة ، وأخذت هُدبة من جلبابها ، قالت وخالد بن سعيد بن العاص
بالباب لم يؤذن له فقال : يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول
الله ﷺ فإزاد رسول الله ﷺ عن التبرم فقال رسول الله ﷺ كأنك
تريدين أن ترجعي إلى رفاعة ؟ لا ، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك (١)
النهي عن التحليل :

ومن شروط الزواج الثاني ألا يكون بقصد التحليل فقد نهى النبي عنه أشد
النهي ، ولعن فاعله وسماء التيس المستعار ، وبذلك لا تكون الصلوات الزوجية
ألعوبة في يد اللاهين . روى الزمزدى وابن ماجه والإمام أحمد والحاكم أن رسول
الله ﷺ لعن المحلل والمحلل له ، وعن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ
عن نكاح المحلل : قال لا ، إلا نكاح رغبة ، لا نكاح دُلسة . ولا استهزاء
بكتاب الله ، ثم يذوق عسيلتها ،

فإن طلقها الزوج الثاني فلا بأس بزواجها من الأول كما تقدم ، وذلك قوله
تعالى : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان »

فإن طلقها فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، فإن طلقها فلا جناح عليها أن

يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ..، وعسى أن يكون في هذه التجربة المبررة على الرجل والمرأة معا ما يردهما الى الصواب والاعتدال، والمحافظة على الواجبات ورعاية الحقوق المتبادلة ، ولعل ذلك يظامن من كبرياء الرجل اذ رأى امرأته وقد صارت حليلة رجل آخر ، يملك من أمرها ما أضاعه هو بحمقه وجهله ؛ فلا يعود في معاملتها الى شطط وإسراف .

وقد يناسب هنا أن نورد ما تذكر التوراة في هذا المقام . جاء في سفر تثنية
الاشتراع : (١) اذا اتخذ رجل امرأة وصار لها بعلا ، ولم تحظ عنده لعيب
أنكره عليها ، فليكتب لها كتاب طلاق ويدفعه الى يدها ويصرفها من بيته (٢)
فإذا خرجت من بيته ومضت وصارت لرجل آخر (٣) فأبغضها الرجل الآخر
وكتب لها كتاب طلاق فدفعه إلى يدها وصرفها من بيته أو مات الرجل الآخر
الذي اتخذها له زوجة (٤) فليس لبعليها الأول الذي طلقها أن يعود ويأخذها
لتكون له زوجة بعد ما تدنس ، فإن ذلك رجس لدى الرب ، فلا تجلب خطيئة
على الأرض التي يعطيكمها الرب إلهك ميراثا ،

ولئن كان هنا يبيح الطلاق لعيب في المرأة ، أو لبغضه إياها ، ثم يراها
بِالزواج الثاني دَنَسَتْ فلا ترجع إلى الأول ، فقد اعتبر الانجيل الطلاق الالعة
الزنا محظورا ، وجعل الزوج بالمطلقة زنا ، قد قيل من طلق امرأته فليدفع لها
كتاب طلاق — أما أنا فأقول لكم ، من طلق امرأته الالعة زنا فقد جعلها
زانية ، ومن تزوج مطلقه فقد زنا ، (٣) ولم أورده مقارنة فقد جل الأمر عن
المقارنة ، وإنما لتأمل واقعية الاسلام ورحمته واعترافه بالضرورات ، وحرصه
على رابطة الزوجية وقد استبها الى أكبر الحدود ، ورعايتها في الحب والبغض

وإعطائه الفرص للزوجين كي لا يفترقا إن استطاعا ذلك. ولم لا؟ وقد ورد ما
« أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق ،
حق المرأة في حل الزوجية :

وكما جعل الإسلام العصمة بيد الرجل حفاظا على هذا الميثاق المؤكد ،
وأباح له أن يحل عقدها على النهج الذي رسمه ، متحملا تبعات عمله ، وما يترتب
عليه من أعباء النفقة والمتعة والسكنى ، كذلك أجاز للمرأة أن تطلب التحلل من
هذا العقد إن لم تجد فيه ما تنشده من مودة ورحمة وهناءة ، وللرجل استرداد
ما منحها من الصداق أو بعضه ، إن لم يكن هو الحامل لها بظلمه على طلب
الطلاق ، ففتدى منه بما تراضيا عليه يقول الله تعالى : « ولا يحلّ لكم أن
تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما
حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها .

وجاءت امرأة ثابت بن قيس إلى رسول الله ﷺ فقالت : « يا رسول الله
إنى ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام —
تعنى التقصير فى واجب الزوجية — ما أطيقه بغضا ، فقال رسول الله ﷺ
أتردن عليه حديقته ؟ قالت نعم ، فقال رسول الله : أقبل الحديقة وطلقها
تطليقة ، (١)

وشرع الفداء تُقَدِّمُه المرأة نظير ما طلبته من الفراق ، حتى لا يكون
عقد الزواج وسيلة لاقتناص مال الرجل ، والاستمتاع بخيرات وهباته ، وما يسوق
من صداق ، فإذا استفد أغراضه لم تعد المرأة للعبوب اختلاق الأسباب
للتحلل منه .

(١) رواه البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه والدارقطنى باختلاف يسير
يسين الروايات .

أما إن دفعها الرجل بطله لها إلى طلب الطلاق ، فلا يحل له ما أخذ منها ، جاء في الموطأ في باب الخُلْع : قال مالك في المفتدية من زوجها إنه إذا علم أن زوجها أضربها وضيق عليها ، وعُلم أنه ظالم لها مضى الطلاق ، وردت عليها مالها وقد حذر الإسلام المرأة من طلب الطلاق في غير ضرورة فقال **صلى الله عليه وسلم** : « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة ، هذا هو الطلاق في الإسلام بين الرجل والمرأة ، ما أحله الله إلا رحمة ، وما ضيق فيه إلا رحمة ، وهو سبحانه أرحم الراحمين . »

بعد الفراق :

لم تقف حقوق المرأة عند حد قيام العلاقة الزوجية وتبادل المنافع والرضا بين الجانبين ، بل امتدت إلى ما بعد ذلك ، فلها زيادة على صداقها النفقة والسكنى ما دامت في عدته ، وذلك قوله تعالى في سورة الطلاق : « وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن . . . » وسكنها في منزل الزوجية مدة العدة مستتبعة نفقتها حتما كما هو مبين في السنة .

ولها فوق ذلك حق غير محدود القدر ، وإن كان محدود الوصف ، تطيبا لخاطرهما وهي المتعة التي قال الله فيها : « ومتعوهن على الموسع قدره ، وعلى المتقتر قدره . . » وقال : « وللطلقات متاعٌ بالمعروف حقا على المتقين ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون . »

وفي الإحسان إلى المرأة في حالة الفراق زيادة على المسمى لها ما يشعر بكرامتها على الرجل ، وكأنه تكفير عن خطيئته في حقها ، وقطع لقالة السوء في شأنها ، وتحقيق للروح العام الذي يأمر به الإسلام بين الزوجين حتى في مواطن المشاحة والشقاق إذ يقول سبحانه « ولا تنسوا الفضل بينكم ، والله بما

تعملون بضير .

المسرفون على أنفسهم : وإن قوما أسرفوا على أنفسهم ، فلم يعباؤا بهذه الروابط المقدسة ، ولم يرعوها حق رعايتها ، وتكبروا سبيل الدين ، فشقوا وأشتقوا ، وعشوا بجرمة الزوجية حينما اتخذوا الطلاق توثيقا لإيمانهم ، وتأكيذا لأقوالهم وترويجا لباطلهم ولعل مما ساعد على ذلك وأغرى به ما قرره بعض الفقهاء السابقين من اعتبار الطلاق من الإيمان الشرعية ، حتى بلغ الأمر في ذلك أن يعرفوه بقولهم : اليمين حلف بالله ، أو بحل عصمة . ولم يشرع الطلاق لليمين ، ولا هو من صيغته ، والحديث الشريف يقول ، « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » ، رواه البخاري وغيره . كما جر المتاعب الكثيرة والمفاسد الخطيرة ما عليه الجمهور من القول باعتبار الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاث طلقات .

وقد كانت القوانين الأخيرة التي صدرت في النصف الأول من هذا القرن لتنظيم الأحوال الشخصية خطوة جيدة في سبيل القضاء على فوضى الطلاق وما يتبعه من مفساد التحليل .

وقد تكلم الناس قديما وحديثا في تطليق الرجل زوجته ثلاثا بلفظ واحد مع إجماعهم على أنه مخالف لما شرعه الله سبحانه من جعل الطلاق مرة مرة فقالوا : هل يلزم في ذلك ما ألزم به نفسه فيمضي الطلاق ثلاثا ؟ أو يلزمه واحدة لأنه لا يملك في المرة أكثر من ذلك ؟ أو أن طلاقه على هذا النحو لغو من القول فلا يلزمه شيء لأنه ليس بشرعي ؟ أقوال ثلاثة ولكل منها أدلته ، ولها اعتبارها .

ومضى العمل أخيرا على التوسط واعتباره واحدة ، كما اعتبر اليمين بالطلاق لغوا لأن اليمين لا يكون إلا بالله .

ويقول المرحوم الشيخ المراغي في تحليل ذلك بعد بحوث قيمة حول مواد القانون (١) والمصير إلى التفرقة بين قسمي المعلق ، وإلى إلغاء اليمين بالطلاق ، والمعلق الذي في معنى اليمين ، سيرد الناس إلى الشريعة المطهرة ، وسيكون سببا في انقراض هذه الأيمان ، وهذه التعليقات لعدم الفائدة منها ، إذا قيل بعدم الوقوع لأنها لا تكون أداة توثق بل تكون من لغو الكلام .

وقد عرف القول بوقوع الثلاثة في لفظ واحد عن الأئمة الأربعة ، ومعظم أتباعهم ، كما عرف القول بوقوعها واحدة فقط واعتبار الزائد لغوا عن أئمة آخرين متقدمين وشهر بذلك من المتأخرين ابن تيمية وتليذه ابن القيم ، والشوكاني ، فقد دافعوا عنه ، وأيدوه أتم تأييد . ويذكر ابن رشد وهو سابق على ابن تيمية بقرب أو يزيد في كتابه بداية المجتهد خلاف العلماء في ذلك ويروي مذهب الجمهور وغيرهم ويقول : وسبب الخلاف هل الحكم الذي جعله الشرع من البنونة للطلقة الثالثة يقع بإلزام المكلف نفسه هذا الحكم في طلبة واحدة ؟ أو ليس يقع ولا يلزم من ذلك إلا ما ألزم الشرع ؟ ثم قال بعد التوجيه لسل كل منهما : وكان الجمهور (١) غلبوا حكم التغليب في الطلاق سدا للذريعة وعلق عليه بقوله . ولكن تبطل الرخصة الشرعية والرفق المقصود في ذلك أعني في قوله تعالى : « لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا »

وقد أصاب بن رشد المحز فيما أخذه على الجمهور من الاحتياط الذي جاوز الرفق المقصود . وفي الحق أن القول بوجوب تفريق الطلاق ، وأنه لا يمضي من ذلك إلا ما شرعه الله لا ما تجاوزته الناس بطغيانهم هو ما يناسب صريح القرآن

١٠٤ من كتاب بحوث في التشريع الإسلامي وأسانيده قانون الزواج والطلاق

١٠٤ أي في قولهم بوقوع الثلاثة في طلبة واحدة

الكريم والسنة المطهرة ، ويتفق وروح التشريع وبالله التوفيق .

كلمة خاتمة

وقد بقيت هنا كلمة لابد منها شأن ما دأب فريق من الناس وبخاصة الهيئات النسائية على المناداة به من تقييد الطلاق وجعله بيد القاضى ، ومنع تعدد الزوجات ، وعينت الصحافة ببحث هذه الموضوعات التى تجلى اهتمام الرأى العام بها ، وخصصت جريدة المصرى زمنا طويلا صفحة السبت لعلاجها ، وتلقى آراء المواطنين فيها من مؤيد ومفند

ولو رجع هؤلاء المولعون والمولعات بتقليد الغرب إلى حمى الإسلام يستمدون منه صيانة الأسرة وحفظها لكان لهم فوق ما يطلبون .

لقد كان معقولا أن يعذروا فى التقليد إذ عجزوا عن الاجتهاد يوم كان الغريون راضين بحالهم ، محافظين على تقاليدهم ، مراعين لأسرهم ، سعداء فى حياتهم لم يصيروا إلى الطلاق ، ولم يكثروا منه ويسرفوا فيه برغم ما يحوطه من تعقيد شديد .

نعم لقد كانوا أحرىء بالمعذرة يوم لم يثر الغريون على قيود الطلاق تلافيا للآثار الخطيرة الناجمة عن انفصال الزوجين واقعا ، وإن أنكر القانون حدث كاتب معروف (١) عن مشاهداته فى بريطانيا أثناء إقامته بها زمنا طويلا ، أن من النساء من ينفصلن عن أزواجهن سنين عددا ، حيث لا أمل فى المعاودة ويحسد كل من الزوج والزوجة عوضا عن صاحبه من منفصلين ومنفصلات يتعاشران بدون وجه قانونى ، وما ذلك إلا لحظر الطلاق فى الانفصال قبل مضى أربع سنوات ، وكثيرا ما يعجز طالب الطلاق منهما عن دفع رسومه الباهظة

١ ، الأستاذ عبد المنعم الصاوى فى كلمات قطر الندى من جريدة المصرى

فيفضل الهجر على الطلاق وروى فيما روى حادثة لوزير بريطاني تعتمد ستر اسمه هجرته زوجته إلى رجل أمريكي يشتغل بالسينما حيث رحلت معه إلى أمريكا ، بعد أن أنجبت من هذا الوزير ولدا ، هو الآن وزير على سنن أبيه ؛ في دراسة أحوال المستعمرات ، وانتظر الوزير سنوات حتى حكمت له المحكمة بالطلاق ، وساعتها أحس أنه رجل استعاد كبرياءه الجريح وصحح موقفه من سييدة هجرته إلى سواء . .

بل لقد ثار مجلس العموم مرات ، وهب النواب في وجوه الوزراء مطالبين باسم مواجهة الواقع أن تصدر الحكومة من التشريعات ما يخفف من قيود الطلاق علاجا للمساويء الاجتماعية التي ستخلق حياة الأسرة وتهدد مصائر الأطفال .

إن منع تعدد الزوجات المقترح ، وتقييد الطلاق إلا بإذن القاضي على أحسن الفروض بما يلوح فيهما لبعض الناس من بريق النفع وظاهر العلاج أشبه ما يكون بأمرين قال الله فيهما : « ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما »

فإن كان فيهما نفع فهما ضاران ، والضرر فيهما بالغ الرجحان ، وخير من ذلك أن نعالج الأسرة بما عاجلها الاسلام ، فنعملهم أحكامه وآدابه ، وما فرض الله لرعاية الأهل والأبناء حتى يقيم كل رجل من نفسه رقبيا على نفسه ، وتجعل كل أنثى لنفسها هاديا وزاجرا من نفسها فتمضي سفينة البيت في بحر الحياة هادئة مطمئنة مليئة الجوانب بالرحمة والسكينة والمحبة ، بريئة من الأدواء ، وفي ذلك الشفاء وأي شفاء .

المراة في الميراث والشهادة

لعل من نافلة القول ومعاد الحديث ما يقال من أن المراة في الإسلام شقيقة الرجل وصنوه ، خلقت منه وخلق منها ، فهي بنت وأخت وأم ، وهو ابن وأخ وأب ، خاطبها الإسلام كما خاطب الرجل ، وشرع الفرائض والعبادات ، ورتب الحساب والجزاء ، للرجال والنساء جميعا ، وهل بعد هذه الآيات الكريمة التي يفيض بها القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ من مقال لقائل فيما كرم به الإسلام المراة ، وصانها ورفع شأنها ، وحفظ منزلتها .

وأجمع العلماء على أن كل ما كان من أوامر الدين ونواهيه وآدابه وتشريعه للناس فهو عام للرجال والنساء ، سوى ما تقتضيه التفرقة الضرورية بين الرجل والمراة في الطبيعة والفطرة وما يتبع ذلك من آثار .

للبنت على أبيها حق الرعاية والتربية والتعليم كما هو حق أخيها ، وللراة حقوقها المدنية ، ولها من الحقوق السياسية ما تملك به التوجيه والإرشاد ، وتسهم به في صلاح الحياة العامة .

لها تملك المال ، والتصرف فيه ، وحرية اختيار زوجها وشريك حياتها ، ولها الحقوق الخاصة بكونها زوجة وأما كفاء ما عليها من تبعات جسام ، كذلك لها حق الولاية كما للرجل ، تأمر بالخير وتنهى عن الشر ، وتدلى برأيها ، وتنصح للمؤمنين ، فإذا قال الرسول ﷺ « الدين النصيحة ... » فالقرآن الكريم يقول : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، ويقولون في مقابل ذلك « والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون

بالمشكر ، وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم نسوا الله فسيهم ،

ونعتقد أن ذلك واضح لا يحتمل مزيدا من البيان .

وقد يبدو أن التفرقة بين الرجل والمرأة في الحقوق المدنية واضحة في الميراث والشهادة ، فقد جعلت المرأة على النصف من الرجل في أكثر صور الميراث كما اعتبرت شهادتها على النصف في الأموال . ومن فهم هذه التفرقة على أنها تفضيل للرجل على المرأة فقد غبن عقله كما غبن الحق على السواء .

والحق الذي لا ريب فيه أن الإسلام أعطى المرأة من المال أكثر مما أعطى الرجل ، وجعل لها من الحق فيه ما لعنه يوازي ضعف ماله أو يزيد ، وذلك لأن المرأة في طبيعتها أضعف منه جسدا ، وأقل كسبا ، فوق ما تشغل به من الحمل والإرضاع .

فالمرأة وهي بنت لها النفقة على أبيها كاملة ، فإذا تزوجت فنفقتها على زوجها ثم ابنها من بعد ، فإن احتاجت ولا عائل لها فعلى بيت مال المسلمين .

أما أخوها فله الرعاية والنفقة إلى البلوغ قادرا على الكسب ، فإذا تم له ذلك احتمل من واجبات الأسرة الشيء الكثير ، فعليه نفقة أبيه وأمه إن احتاجا إليه ، وعند تكوينه أسرته الخاصة يقدم الصداق لزوجته ملكا خالصا ، ونحلة طيبة ثم عليه نفقة زوجته وأبنائه ، يعولهم ويقوم بأمرهم .

فإذا كانت المرأة لا تكلف نفقة في صغرها ، ولا ما لا في قرانها ، أو بيت زوجها ، فما أخذته ميراثا من أبيها أو صداقا من زوجها فهو فوق حاجتها ، ولعلها تدخره لبعض أيامها ، أو تزيد به في استمتاعها ، أو تضيفه طائفة مختارة لمال زوجها بعد أن جعلت المودة والرحمة منهما غاية واحدة وهدفا واحدا . فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ،

ولعل إنسانا يرى في ذلك غضاضة على المرأة حيث تكون عالة على غيرها بل لعل المرأة نفسها ترى فيه ما يخفض من أمرها ، وعندى أن ذلك شعور المرأة التي نشزت على طبيعتها ، وتمردت على فطرتها ، فالمرأة إذ يغذوها أبوها صغيرة تشارك في أعباء البيت وواجباته بما يوفر الخير والراحة لآلها وذويها وهي مع زوجها تنجب له وللحياة قرة أعين ، وعماد ظهر ، تغدق عليهم من دمها ولبنها وعافيتها ما يمنحهم الحياة والقوة والشباب ، فوق ما ترعى له من بيته وماله .

عرضت سيدة من النساء القانونيات في مؤتمر تورنتو بإيطاليا مندوبة مصر وكانت تشرح ما تتمتع به المرأة المسلمة من حقوق ، وتذكر فيما تذكر الصداق يدفعه الرجل للمرأة عند رغبتها الزواج بها ، وقاطعتها قائلة : إن معنى ذلك أن الرجل يشتري المرأة بما يدفعه لها من صداق ، فأجابتها مندوبة مصر : (١)

إن ذلك على كل حال خير من أن تشتري المرأة الرجل عندما تدفع له «الدوطة» ، فإن وجدت امرأة تحس غضاضة في أن يدفع لها الرجل صداقا من ماله يتودد إليها ويشعرها بحبه لها ، وتوطئته النفس على البذل في سبيلها كي تقبل مشاركتة الحياة وانتقالها إلى بيته ، فكم تحس هذه المرأة وسواها من أضعاف تلك الغضاضة وهي تسعى إلى الرجل بنفسها ، وتبذل له من ماله ، وتغريه على قبولها ، لتشاركه بيته وتسلخ من لقبها لتفنى فيه ، وتحمل بدلا من لقبها لقبه .

ثم إن المال الموروث ليس هو كل ما يتمول ، فكم من وراث أصاع ، ومعدم ملك القصور والضياع ، وهي لا تمنع التجارة ، ولا استثمار المال إن شاءت .

هذا : ولو تخيلنا نظاما آخر ، ولم نلتزم ما شرع الله في كتابه الحكيم إذ يقول : «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين» ، أو كنا من مذهب

(١) الأستاذة عطيات الخربوطلي المحامية والبقية في فصل المرأة والحياة السياسية

أولئك الأولى واللاتى درسوا ودرسن : الاسلام فى ارقى جامعات أوربا ، (١) وموت هنا الامر ، ولبسنا الحق بالباطل فقلنا : ان الاسلام أعطى المرأة النصف فى بيثة لا ترى لها شيئا على سبيل التدرج ، وهو بهذا لا يمنع المساواة الكاملة ، لأن الانصاف غايته ، لو تخيلنا ذلك القيل ، أو تجاوز المتجاوزون تعاليم الاسلام فى هذا الأمر فكيف نحدد العلاقة بين الرجل والمرأة ، أنكلفهما تكليفا واحدا ، وانفاقا مساويا ، وكسبا معادلا ؟ وهل تطبق المرأة ذلك وهى مشغولة الجسم والعقل بالبيت والأبناء ، وهل يكون ذلك فى صالح المرأة والرجل على السواء ؟

ألا إنها القشور تصرف عن اللباب ، والتغرب يبعد عن الصواب ، وقد كان فى هدى الله الحكمة وفصل الخطاب ، والآيات البينات لقوم يبصرون .

الشهادة :

اما الشهادة فقد جاء فى القرآن الكريم فى شأن المعاملات المالية والمدائبات بين الناس من سورة البقرة : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل احدهما فتذكر احدهما الاخرى ،

وعلى ذلك بعض المفسرين ، بأن النساء ناقصات عقل ودين ، فلم تعتبر شهادتهن الا لضرورة من عدم توافر شاهدين من الرجال وقبلت مكملة لاستقلة ويرد ذلك التعليل عالم جليل من المتأخرين ويقول : والسبب الصحيح ان المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات ، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة . ولا تكون كذلك فى الأمور المنزلية التى هى

(١) من كلام دكتورة صحفية كانت ترد على من جهلها بالاسلام

شغلها ، فانها فيها أقوى ذاكرة من الرجل . يعنى أن من طبع البشر ذكرانا
واناثا أن يقوى تذكرةهم للأمور التي تهتمهم ويكثر اشتغالهم بها — ولا
ينافى ذلك اشتغال بعض نساء الاجانب في هذا العصر بالأعمال المالية ، فانه
قليل لايعول عليه ، والاحكام العامة انما تناط بالاكثري في الاشياء ،
وبالأصل فيها . (١)

فهل ما رآه الشيخ محمد عبده وقرره في تفسيره من أى جمالة على ما يزعم بعض الناس ؟
وقبل أن أسوق الدليل على صحة ما ارتآه ، وخطأ ما يخالفه أحب أن ألفت
النظر الى أن شهادة الرجل في نظر الاسلام لا تقبل اذا شابها ما يضعف الثقة بها
من قرابة قريبة ، أو منفعة ، أو عداوة ، أو من نقص في خلق الشاهد ومروءته
أو من غفلة تجوز عليه فيشتبه بها وجه الحق وان كان الشاهد في نفسه صالحا
حتى إن قاضيا يقول : إن من أصحابي من أرجو بركته ولا أجيز شهادته . بل
لقد بلغ من التحوط في أمر الشهادة واقامتها على وجهها ان يرفض بعض القضاة
شهادة الخليفة لأن احدا لا يستطيع ان يطعن عليه إن كان ثمت مطعن .
وحيث كانت المرأة في المالمات غالبا ضعيفة الذاكرة فلا بأس أن يطلب
لشهادة سواها من يرضى عنه من الرجال . توثيقا لهذه المعاملات ، وصيانة
للرأة عن ميادين المنازعات والمخاصمات ، فان اضطرب الحال الى استشهادها
فلتمكن شهادتها على النصف تعويضا لما يشوبها من ضعف ، وإتيان صيغة
المبالغة في التعبير القرآني « واستشهدوا شهيدين .. » إيجاء بوجوب التوثيق
والاحتياط الذي يحتم اختيار الاكمل من الشهداء . اما هي فيما تحسنه فشهادتها كاملة

نافذة على الرجال والنساء ، وشهادة الرجل فيما يخص النساء ليست بذات موضوع
ولعل أعجب من ذلك ان تقبل شهادة المرأة الواحدة في القضية الهامة مما
يتعلق بأعمالها ، ولا نعلم شاهدا واحدا من الرجال يكفى الا ان يكون معه شيء
آخر يقويه كيمين صاحب الدعوى ، والمرأة اعتبر النبي ﷺ شهادتها وحدها
وقضى بها ، ولم يكن حكمه خاصا ، ولا تحوطا كما فهم البعض ، بل كان عاما
وجازما ، ولذا استدل به فريق من الأئمة ، وإن قالوا : بأن شهادة الثنتين أحوط
روى البخارى في صحيحه تحت ترجمة : باب شهادة المرضعة بسنده عن عقبه
بن الحارث قال : تزوجت امرأة فجاءتني امرأة سوداء فقالت : أرضعتكما
فأتيت النبي ﷺ فقلت تزوجت فلانة بنت فلان فجاءتنا امرأة سوداء فقالت
لى أرضعتكما وهى كاذبة فأعرض (عنه) فأتيت من قبل وجهه فقلت انها كاذبة
قال : كيف بها وقد زعمت أنها أرضعتكما — ففارقها عقبه ونكحت زوجها غيره
وترجم عليه الشوكاني في نيل الأوطار : باب شهادة المرأة الواحدة بالرضاع
قال : وروى الحديث احمد والبخارى ، وذكر رواية اخرى وقال رواه الجماعة
الا مسليا وابن ماجه ، وناقش آراء العلماء وصحح العمل بشهادة الواحدة (١)
وفي حاشية ابن عابدين في نصاب الشهادة قال : والبيكاره وعيوب النساء
وما يطلع عليه الرجال امرأة حرة مسلمة والثنتان احوط . (٢)

فإن هو نقص العقل والدين في ذلك كله ؟ أليس من حقنا اذا أن نرفض
التعليل الذى ساقه بعض المفسرين غير آسفين ، وهل هو الا التحوط البالغ في
قبول الشهادات لما يترتب عليها من قضاء نافذ الأحكام بليغ الآثار ؟ ومن هذا

القبيل رد شهادة البادى على المقيم ، لضعف خبرته في شئون الحاضرة ، فقد نهى النبي ﷺ ان يشهد بدوى على حضرى وفي رواية أبى هريرة انه سمع رسول الله ﷺ يقول : لا تجوز شهادة بدوى على صاحب قرية . رواه ابو داود وابن ماجه . (١) قال في نيل الاوطار قال الخطابي يشبه أن يكون انما كره شهادة اهل البدوي لما فيهم من عدم العلم بانيان الشهادة على وجهها ولا يقيمونها على حقها لقصور علمهم عما يغيرها عن وجهها ، وكذلك قال أحمد . وبه قال مالك وابو عبيد . (٢)

بقيت كلمة لعلها تحوك في صدر بعض الباحثين ذلك أن القول بنقص عقل المرأة والاستدلال عليه بأن شهادتها على النصف ، ونقصان دينها لانها ترك الصلاة والصيام ايام حيضها مروي عن النبي ﷺ فليس ذلك من عند المفسرين حتى نرده عليهم .

والجواب يسير ، نعم قد ورد ذلك في الصحاح ، وله شواهد تؤيده وتقويه فلا يجوز الطعن عليه ولا انكاره مسaire لاسراف المسرفين ، بيد انه استعمل هنا كما يستعمل قوله تعالى : ولا تقربوا الصلاة .. ، أو « ويل للصليين » جاء مقتطعا من مكانه ، مستعملا في غير وجهه ، فضعف المرأة في غير اختصاصها واقع لاشك فيه ، وشهادتها اذا على النصف بنص القرآن الكريم ، فهي قد نقصت في غير ميدانها ، واكتملت في شئونها بأكثر مما اكتملت شهادة الرجل في ميدانه الذي 'تقبل' شهادته فيه ، فكان ذلك نقصا يعوضه كمال آخر ، وكان تركها الصلاة والصيام في الحيض والنفاس نقصا في أعمال الدين لانلام عليه ولا تؤاخذ فيه . قالت عائشة : خرجت عام حجة الوداع حتى كنت قريبا من مكة فحضت

(١) ابن رشد في مقدمة - الشهادة ص ٤٥٣ (٢) ج ٨ ص ٢٩١

قالت : فدخل على النبي ﷺ وأنا أبكي فقال : أنفست ؟ يعني الحيضة قلت
 نعم : قال : إن هذا شيء كتبته الله على بنات حواء ، فاقضى ما يقضى الحاج غير
 ألا تطوفى بالبيت حتى تطهرى . فإذا جاء بعد ذلك نصيحة رسول الله ﷺ
 للنساء وأمره لهن بالصدقة والاستغفار ، ونهيهن عن الشطط والاسراف ،
 وتحذيرهن من فطرتهن ، وما جبلت عليه النفوس من نزغات وأهواء ، وما طبع
 المرأة خاعة عليه من عاطفة غالبية جموح ، فليس في النصيحة والتحذير انتقاص
 أو تحقير ، بل ما هو إلا أن يسمعه النساء فيسألن عن سر ما خفي ، ويستزدن
 من المعرفة ، ويسترحن إلى التوجيه الكريم ، ويبادرن إلى الصدقة والاستغفار .
 روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : خرج رسول الله ﷺ في
 أضحي أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال : يا معشر النساء تصدقن وأكثرن
 الاستغفار ، فإنى أرى تسكن أكر أهل النار فقلن : وبهم يا رسول الله ؟ قال :
 تسكنن اللعن وتسكنن العشير ، مارأيت من ناقصات عقل ودين أذهب
 لب الرجل الخازم من إحداكن ؛ قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟
 قال : أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ؟ قلن بلى قال : فذلك من نقصان
 عقلها أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ قلن بلى قال : فذلك من نقصان
 دينها - وفي رواية ابن عباس عنده . فجعلت المرأة تلقى القرط والخاتم ، وبلال
 يأخذ في طرف ثوبه . ذاك نقص فيما لا تحسنه ، وهذا نقص في العمل ، ولو
 كان نقصا في حقيقة الدين ونور اليقين لسكان المريض والمسافر بترك الصيام
 ناقصين في الدين ، وكان الفقير يعجز عن الزكاة والمريض عن الجهاد كل منهما
 ناقص الدين ، ولم يقل بذلك أحد من المسلمين .

وهل يعقل أن النبي ﷺ يفرق بين رجل وزوجته ويهدم بيتا قائما بشاهد
 ناقص العقل ناقص الدين ؟

وقد جاء قول النبي ﷺ في وصيته للنساء وتحذيره لهن كقوله لرجلين من الأنصار . . إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا فنهلكا ، وكقوله : الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة وكقوله تعالى : « إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي - إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين - والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا . . » وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا - إن الإنسان لظالم كفار ، كل ذلك وأشباهه بيان لبعض الطبائع السوء ، وتحذير من غوائلها ، ولا يمنع ذلك من أن يكتب الله التكريم لأبناء آدم ويقول : ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ، ويقرن الطيبات والمؤمنات باخوانهن من الطيبين والمؤمنين ، ويركم الخبيثات والمنافقات بأشباههن من الخبيثين والمنافقين فيقول سبحانه : « الطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ، والخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات » ويقول : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض - والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، فمن الغبن إذا أن يسوق الرجل أمثال هذه التحذيرات والتنبيهات والرصايا في شأن المرأة مساق التهوين والتحقيق ، مقتطعة عن روحها ومساقها ، ولو أنصف لأغناه ما يعلمه من نقص نفسه ، عن الإساءة لصنوه وبنات جنسه .

المرأة والحجاب

جاء في شأن الحجاب من سورة الاحزاب بصدد الحديث عما يجب على المسلمين لبس النبي ﷺ ونسائه من التعظيم والتوقير والاحلال قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه، ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمتم فانتشروا، ولا مستأنسين لحديث، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق شيئا، وإذا سألتهم عن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا، إن ذلكم كان عند الله عظيما،

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في السنة الخامسة للهجرة بعد بناء النبي بزینب بنت جحش رضى الله عنها، وقد دعا إلى طعام فأكل القوم وانصرفوا عدا ثلاثة جلسوا يتحدثون وطال بهم المقام، وفي بعض طرق الحديث يقول أنس: دوتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ، وزوج رسول الله ﷺ التي دخل بها معهم مولية وجهها إلى الحائط، فأطالوا الحديث، فشقوا على رسول الله ﷺ، وكان أشد الناس حياء، ولو علموا كان ذلك عليهم عزيزا، فقام رسول الله ﷺ فسلم على حجرة وعلى نسائه فلما رأوه قد جاءظنوا أنهم قد ثقلوا عليه فابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرنخى الست.

ولم تكن زوجات النبي ﷺ قبل محجابهن كما هو الشأن حينذاك، بل اشتركن فيما يشترك فيه سواهن من المؤمنات، فقد حضرت عائشة غزوة أحد، وحملت الماء وسقت الجرحى، وشمرت عن ساقها مع نسوة آخر، وكان بيت

النبى مقصودا من الجميع يدخل المؤمن والمنافق عليه فيه ، ولا بد من حياطة خاصة
لحرمة هذا البيت المطهر تجاه قالة السوء من مرضى القلوب والمرجفين ، قطعاً لسيل
الأذى من السنة المنافقين .

وكان عمر يشير بالحجاب ويلح فيه ، أكل مرة طعاماً مع النبى وأكلت
معهما عائشة ، فأصابت أصبعه أصبع عائشة ، فجذبه متأوها وقال : لو أطاع فيكن ما
رأتكن عين ، فلما نزل الحجاب قرت عينه وأعين المؤمنين ، ويقول متحدثاً بنعمة
الله وافقت ربى فى ثلاث ويذكر منهن الحجاب .

وحجاب زوجات النبى إنما هو بالنسبة للأجانب من الرجال أما من عدا
هؤلاء فقد رفع سبحانه عن أمهات المؤمنين الجناح فيه فقال إثر الآية السابقة
ولا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ، ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا
أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن ، واتقين الله إن الله كان على
كل شئ شهيداً ،

ومن تمام الحجاب لأمهات المؤمنين قوله تعالى مخاطباً نساء النبى : وقرن فى
فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقن الصلاة وآتين الزكاة
وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذبح عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم
تطهيراً ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة . . . ،

فكن لبيوتهن ملازمات ، لا يخرجن لغير ضرورة ، روى مسلم عن عائشة
قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب عليها الحجاب لتقضى حاجتها ، وكانت
امراًة جسيمة تفرع النساء جسماً ، لا تخفى على من يعرفها ، فرآها عمر بن الخطاب
رضى الله عنه فقال : يا سودة والله ما تخفين علينا فانظرى كيف تخرجين قالت :
فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ فى بيتى ، وإنه ليتعشى وفى يده عرق .

فدخلت فقالت : يا رسول الله إني خرجت فقال لي عمر كذا وكذا ، قالت :
فأرعى إليه ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال : إنه قد أذن لكن
أن تخرجن في حاجتكن (١)

كذلك نزل في اكتمال الصيانة لجميع النساء عند خروجهن لحاجتهن قوله
تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من
جلايبهن ، ذلك أدنى أن يُعصفن فلا يؤذَيْنَ وكان الله غفورا رحيما ، وأُنذر
الباغين الذين يعرضون للمؤمنات بالأذى أن يسلب عليهم رسوله فيخرجهم أذلة
فقال : « لأن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة
لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ،

والحجاب على النحو السابق من وجوب القرار في البيوت ، وإرخاء الستار
بينهن وبين الآخرين خاص بأمهات المؤمنين ، فقد حرم عليهن الاختلاط
بالأجانب ، ومكالمتهن أو معاملتهن لهم إلا من وراء حجاب ، ومن خرجت
منهن للغزو حملت في هودجها .

نقل النووى في شرحه لمسلم عن القاضي عياض قوله : فرض الحجاب مما
اختص به أزواج النبي ﷺ ، فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين
فلا يجوز لهن كشف ذلك لشهادة ، ولا غيرها ولا يجوز لهن إظهار شخصهن
وإن كن مستترات إلا ما دعت إليه الضرورة من الخروج للبراز (٢)
وبالنسبة لغيرهن فالواجب المفروض على المرأة الست والتصون والاحتشام
فلا تظهر محاسنها وزينتها للأجانب ، ولا تبدى من ذلك غير ما اعتد كشفه
من الوجه والكفين .

روى أبو داود في سننه عن عائشة أن أسماء بذت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رفاق فأعرض عنها وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا — وأشار إلى وجهه وكفيه .

وللسلمات أسوة حسنة بأمهات المؤمنين ، ولكن لم يفرض عليهن الحجاب أو القرار في البيوت ، كما فرض على زوجات الرسول ، فكان يشارك في الجمع والجماعات، والأعياد والغزو، محتشمات غير متبرجات .

وقد ظن قوم الحجاب عاما وأوجبوا القرار في البيوت على النساء وقالوا :
لئن أمر بذلك أمهات المؤمنين وهن في الذروة من الطهارة والصيانة والعفاف ،
فغيرهن أولى ، ولا مشاحة في أن تملك المرأة بيتها ، وأنه أصون لها وأليق بها ،
ولكن الله سبحانه لم يوجب على سائر النساء ما أوجب على أمهات المؤمنين ،
ولم يجعل لغيرهن من الكرامة والمنزلة ما جعله لهن ، ولم يحرم نكاح امرأة بعد
زوجها كما حرم نكاحهن بعد النبي ، فحرمة الرسول فوق كل حرمة ، ولهن من
ذلك شرف لا يعدله شرف ، وتبعانهم كفاء ذلك مضاعفة ، فمن أساءت ضوعف
لها العذاب ، ومن أحسنت أوتيت مرتين من الثواب « يا نساء النبي من يأت منكن
بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا ، ومن
يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتيها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقا
كراما ، وتزيد الآيات معنى الخصوصية وضوحا ، وتبرزه تصريحاً في قوله تعالى :
« يا نساء النبي لستن كأحد من النساء . . . »

فالحجاب كما هو ظاهر من الآيات خاص بأمهات المؤمنين .

روى أن أخت الأشعث بن قيس أو بنته تزوجها رسول الله ﷺ ومات
قبل أن يدخل بها فقبل طلقها ، وقيل أوصى بتخييرها — فتزوجت بعده عكرمة

ابن أبي جهل بحضر موت ، فشق ذلك على أبي بكر وأراد أن يرجعه ، فقال له عمر : ما هي من أمهات المؤمنين ، ولا دخل بها ولا ضرب عليها الحجاب ، وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها ، فاطمأن أبو بكر وسكن (١) .

وكان النبي إذا خرج لغزو أو سفر أقرع بين نسائه ، فمن خرج سهمها خرجت معه ، وكانت بعد الحجاب تحمل في هودج لا يراها أحد ، وغيرها من نساء المؤمنين يسقين ويداوين ، وربما دعت الحال فباشرن القتال .

أما الآيات العامة في شأن المؤمنين والمؤمنات فهي آيات النور ، وليس فيها على المؤمنات حجابٌ أو قرار في البيوت ، إنما فيها العفة في القلوب والأبصار ، والتصون والستر والاحتشام قال الله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبيدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

والخمار ثوب تغطي به رأسها ، وتحمل بعضه على صدرها ونحرها .
عن صفية بنت شيبة قالت بينا نحن عند عائشة فذكرن نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة رضي الله عنها : إن لنساء قريش فضلا ، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا لكتاب الله ، ولا إيمانا بالتزويل ، لقد أنزلت سورة النور ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل

« ١ » ، رواه ابن الأثير في أسد الغابة من ترجمتها . وابن كثير في تفسيره عن ابن جرير باختلاف يسير

ذی قرابته فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل (١) فاعتجرت به تصديقا وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبح وراء رسول الله ﷺ متعجرات كأن على رؤوسهن الغربان (٢) .

وهذه الآداب العالية التي شرعها الإسلام إنما هي صيانة للمرأة من العيون الشرهة ، والقلوب المريضة ، وحفظ لحياتها الحى أن يمس أو ينال ، وليس ظن سوء بها ، أو إهدار حرمتها ، بل قد صانها الإسلام أبلغ الصيانة عن أذى الآلسنة ، وحمى شرفها وعرضها من أفواه السفهاء والماجنين ، فعد قذف المحصنات من الموبقات ، وسلكه الرسول ﷺ مسلك الشك بالله ، وقتل النفس بغير حق ، والتولى يوم الزحف . وسجل القرآن الكريم اللعنة في الدنيا والآخرة على قاذفي المحصنات ، وأمر بجلدهم ثمانين ، ورد شهادتهم ، وإسقاط كرامتهم ، لأنهم الفاسقون ، وعند الله هم الكاذبون فقال في مواضع من سورة النور والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو فإن الله غفور رحيم وقال : « فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » ، وقال : « إن الذين يرمون المحصنات المؤمنات الغافلات اعنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم » ، وعلى منهج الصيانة والرعاية لكرامة المرأة جاء النهى عن خلوة الأجنبية بها ولو كان من أحماتها ، كذلك النهى عن سفرها سفراً طويلاً بدون محرم أو رفق مأمونة ، حتى ولو كان ذلك للعبادة المفروضة . اكتب رجل في الجهاد

« ٢ » المرط المرحل : كساء من صوف أو خز فيه تصاوير - واعتجرت به لفته حول رأسها « ٣ » أورده ابن كثير في تفسيره من سورة النور ، ورواه عن البخارى - وعن أبي داود .

وكانت امرأته حاجة فأمره النبي ﷺ أن يذهب فيحج مع امرأته .

وإذا كان الدين يرشد إلى ذلك في حق المرأة صيانة ورعاية وحفظا .
فقد أرشد إلى مثله في حق الرجل ، فأمره بغض بصره ، فلا يتبع النظرة النظرة ،
ويحفظ فرجه ، كذلك نهاه عن السفر الطويل وحده وحذرته منه ، فقال رسول
الله ﷺ : « الراكب شيطان والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب » رواه
الحاكم وغيره .

هذا هو هدى الدين يأمر المرأة بما يحفظ عليها دينها وشرفها وكرامتها ،
ويأمر الرجل بما يحفظ عليه دينه وشرفه وكرامته ، لا تفريط في شيء . من ذلك
ولا إفراط ، لانهاون يجر الضياع ، ولا تضيق يؤذى أو يغري بالتردوا الانطلاق ،
الحجاب عند المسلمين :

تلك حقيقة الحجاب في الإسلام ، أما الحجاب عند المسلمين فهو غيره في
الإسلام ، لقد كانت المعركة العلمية الدينية مشوبة الأوار وأوائل هذا القرن
حول كشف المرأة وجهها وكفيها ، وجواز ذلك أو حرمة ، وكان المسلمون
يتشددون في ذلك ولا يترخصون ، حتى ليقول كاتب ديني كالسيد رشيد رضا
« وكل ما استحدثه المسلمون في المدن والقرى الكبيرة من المبالغة في حجب النساء
فهو من باب سد الذريعة ، لا من أصول الشريعة » ، ويقول قاسم أمين بعد
ذكره مغالاة الفرنج في التكشف إلى درجة يصعب معها الصيانة : « وقد تغالينا
نحن في طلب التهجج ، والتخرج من ظهور النساء لأعين الرجال ، حتى صيرنا
المرأة أداة من الأدوات أو متاعا من المقتنيات ... » ثم تبدل الحال غير الحال ،

« ١ » في كتابه نداء إلى الجنس اللطيف في الحجاب ص ١١١ ٢٠ ، في كتابه

تحرير المرأة عند السلام على الحجاب

فاحتجب الحجاب تماماً أو كاد ، واحتجب معه الحياء وفاض ، وغدت الشوارع
 مسارح لعرض الأزياء والألوان ، وأضحت الشواطئ سوقاً للجساد والابدان ،
 وصار ما كان يدعو إليه قاسم أمين من الحجاب الشرعى ، وما كان يدافع عنه
 ويراه أصلاً من أصول الآداب ، تحلاً وإباحية وشهوات ، فلو امتد به زمن ليرى
 الآن ما نحن فيه لقطع قلبه أسى وحسرة بل لا تنفض انتفاضة المحموم ،
 وهب ثانية - وكان مدرها لقضية المرأة فى مستهل هذا القرن العشرين ، ليكون
 مدرها لهاكرة أخرى ، فينادى قومه مخلصاً نداء النذير العريان (١) . أن
 صَبَّحَكُمْ مَسَاءً كَمْ .

لقد كان الأمر أولاً أمر حجب المرأة وحرمانها الحق الطبيعى الذى جعله الله
 لها من العلم والنور لتحسن فى نفسها ، وتحسن تربية الأبناء ، فصار الآن أمر
 الأمة كلها ، بدت لها الهاوية فاعرة فاعها بما انحدرت إليه الأخلاق والآداب ،
 وحُداة الصلال يهتفون : إلى الامام ، ضاعفوا الجهد ، وأوسعوا الخطأ فشهوات
 الغرب سبيل محاذاته فى العلياء ، وأفانين أهوائه ومُستبعه عنوان التقدم والارتقاء
 وإذا حرم قوم الحياء فقل عليهم العفاء (٢)

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فاقم عليهم مائماً وعويلاً
 ولا عاصم اليوم إلا من رحم الله ، ولا حياة للأمة إلا بهذا الروح الذى أنزل
 الله رحمة وعصمة ، ونوراً وهدى ، وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ،
 ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء
 من عبادنا ، وإنك أنهدى إلى صراط مستقيم ،

١ ، هو من يرى الأعداء فيتخفف من ثيابه مسرعاً إلى قومه ينذرهم الغارة
 على عادة بعض العرب ٢ ، سيجىء هذا فى موضعه من فصلى : المرأة والشواطئ
 والمرأة والأقلام المسمومة .

وإذا كان حقاً - وإنه لحق - « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فأحق الناس من يكون وازعا إلى الهدى ، وحاجزاً عن الردى ، من آتاهم الله سلطانه ومكن لهم في الأرض ، واستخلفهم فيها ، فينظر كيف يصنعون ، من قادة الثورة الأبطال ، وشبابها المغاوير ، أولئك الذين حملوا الأمانة كاملة ، وأخذوا على عاتقهم بناء الأمة من جديد ، وإصلاح ما أفسدت يد الزمان على أيدي الفاسدين المفسدين ، وتطهير الحياة العامة من رواسب الماضي وأوضاره وأقذاره .

إن الأمّل كبير في أولئك الشباب الوثاب الذي يعتز بدينه ووطنه وعروبته ، والذي يسعى جاهدا لرفع راية الإسلام والمسلمين ، والذي يرفض الأحلاف الغربية شامخ الأنف على الرأس ، لا يبالى من الشرق والغرب إلا ما فيه خير تلك الأمة ، وعزة هذه الأوطان - إن الأمّل كبير في أن يعيدوا لهذا الدين مجده وعزه ، وأن يقضوا على كل دخيل في العقائد والأخلاق والآداب ، قضاء مبرما يمحو كل أثر يسيء من آثار الاستعمار والمستعمرين ، وأن يصونوا الأمة والأسرة بصيانة الدين والخلق المتين ، وأن يضربوا على أيدي المستهترين والعابثين « ولينتصرن الله من ينصره ، » وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ، »



المرأة والمسجد

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَدْخُلُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ، وَعَنْهُ إِذَا اسْتَأْذَنَكُمْ نِسَاؤُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَأَذِنُوا لَهُنَّ، وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «دَأْبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْعَسَمَةِ حَتَّى نَادَاهُ عُمَرُ نَامَ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا يَنْتَظَرُهَا أَحَدٌ غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِّي يَوْمَئِذٍ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ،

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَا قُومُ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَطُولَ فِيهَا، فَاسْمَعُ بَكَاءَ الصَّبِيِّ فَاتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي مَخَافَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أَمَةٍ،

خَرَجَ الْحَدِيثَيْنِ الْأَوَّلِينَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ فِي بَابِ خُرُوجِ النِّسَاءِ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي جُمْلَةٍ رَوَايَاتٍ فَوْقَ الْعَشْرَةِ.

وَخَرَجَ الْأَخِيرِينَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي بَابِ خُرُوجِ النِّسَاءِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِاللَّيْلِ وَالْغُلَسِ، كَمَا خَرَجَ عَشْرَاتٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي هَذَا الْمَعْنَى مُتَفَرِّقَةً فِي صَحِيحِهِ سَنَشِيرُ إِلَى بَعْضِهَا فِي ثَنَائِهَا بِالْبَحْثِ.

وَرَوَى مِثْلَ ذَلِكَ الْإِمَامُ مَالِكٌ فِي مَوْطِنِهِ، وَغَيْرُ أَوْلَئِكَ مِنَ الْأَثَمَةِ الْأَثْبَاتِ رِوَاةَ الْحَدِيثِ.

وَالدَّارَسُ لِلْسَّنَةِ الْمُطَهَّرَةِ فِي مَنَابِعِهَا الْأَصِيلَةِ يَرَى الْمَرْأَةَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَى عَهْدِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ لَمْ تَحْرَمَ نَصِيبُهَا مِنَ الْمَسْجِدِ. وَلَمْ تَنْعَمْ مِنْ شُهُودِ الْجَمَاعَةِ، وَالِاسْتِمَاعِ إِلَى الْمَوَاعِظِ وَالتَّذْكِيرِ وَالْإِرْشَادِ.

بَلْ لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِيهِنَّ مَزِيدًا مِنْ عَنَائِيهِ، فَرُبَّمَا وَجَّهَ إِلَيْهِنَّ مَوْعِظَةً

خاصة بعد انتهائه من الموعظة العامة ، نظر الأنهن في آخر الصفوف

فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه عليه السلام خرج ومعه بلال فظن انه لم يسمع النساء ، فوعظهن وأمرهن بالصدقة . فجعلت المرأة تلقى القرط والحاتم ، وبلال يأخذ في طرف ثوبه ، وإنهن ليزددن رغبة في هذه المواعظ . ويكرهن التخلف عن الرجال في هذا المضمار ، فيطالبن الى رسول صلى الله عليه وسلم أن يخصهن بيوم يتحدث إليهن فيه ، نظرا لقلة اجتماعهن به ، فيروى البخارى عن أبي سعيد قال : قال النساء للنبي صلى الله عليه وسلم : غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما من نفسك ، فوعدهن يوما لقيهن فيه ، فوعظهن ، وأمرهن ،

وفي شهودها الجمعة خرج الامام مسلم بسنده عن عمرة بنت عبد الرحمن عن أخت لعمرة قالت : دلقد أخذت دقا والقرآن المجيد ، من في رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة ، وهو يقرأ بها على المنبر . ومثله عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان وهكذا كانت المرأة على عهد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تحضر الجمعة والجماعة ومشاهد الخير ، وترجع الى بيتها قريرة العين راضية النفس ؛ عامرة القلب بالايان والتقى ، فتحسن القيام بأمر بيتها والتبعل لزوجها ، وتربية أبنائها ، وقد علمت من أمر دينها ما علم الرجل ، فكانت عون له وساعده
بيد أن ذلك لم يفرض عليها لزاما :

نظرا لما يستغرق المرأة احيانا من عمل بيتها ، ورعاية أبنائها ، حتى لا يتجدد متسعا من وقتها للتردد على المسجد في كل الصلوات ، ولما يناها كذلك من الخيض والنفاس ، وهى لا تبأشر الصلاة اثناءهما ولا تمسك في المسجد ، فيسر الله لهن الأمر ، ووكله الى مشيئتهن ، غير أنه طلب ذلك طلبا أكيدا في صلاة العيدين وأمر النساء أن يخرجن قاطبة يشهدن الخير ودعوة المسلمين ، حتى من لم تبأشر

الصلاة منهم لما نفع شرعى تشترك فى التهليل والتكبير ، وتسمع الوعظ والتذكير
وتتفقه فى الدين .

فقد روى البخارى ومسلم عن طاووس عن ابن عباس قال : « شهدت صلاة
الفطر مع نبي الله ﷺ ، وأبى بكر وعمر وعثمان ، فكاهم يصلونها قبل الخطبة
ثم يحضب قال : فنزل نبي الله ﷺ كأنى أنظر إليه حين يجلس الرجال يده ،
ثم أقبل يشقه حتى جاء النساء ومعه بلال ، فقال : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات
يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا . فتلا هذه الآية حتى فرغ منها ثم قال :
أنتن على ذلك ؟ فقالت امرأة واحدة لم يحبه غيرها منهن : نعم يا نبي الله —
لا يدرى حينئذ من هى — قال : فتصدقن ، فبسط بلال ثوبه ثم قال : هلم
فدى لكن أبى وأمى ، فجعلن يلتقيان الفتح (١) والخواتم فى ثوب بلال ،

ومن طريق عطاء قال : سمعت ابن عباس يقول : « أشهد على رسول الله
ﷺ صلى قبل الخطبة ، قال ثم خطب فرأى أنه لم يسمع النساء ، فأتاهن
فذكرهن ووعظهن وأمرهن بالصدقة ، وبلال قائل بثوبه ، فجعلت المرأة تلقى
الخاتم والخرص والشيء . »

ويجىء فى ختام رواية أخرى عن ابن جريج قلت لعطاء : « أحقا على الامام
الآن أن يأتى النساء حين يفرع فيذكرهن ؟ قال : أى لعمرى ، إن ذلك لحق
عليهم ، وما لهم لا يفعلون ذلك ، ومثله عند البخارى من رواية جابر .

وعنوان صحيح البخارى « باب شهود الحائض العيدين ودعوة المساكين ،
ويعتزلن المصلى ، وفيه روايات عن أم عطية ، وعن ابن عباس ، وعن جابر

ورواية أم عطية : « أمرنا أن نخرج الحيض يوم العيد وذوات الخدور فيشهدن جماعة المسلمين ودعوتهم ويعتزلن الحيض عن مصلاهن - قالت امرأة يارسول الله إحدانا ليس لها جلباب قال لتلبسها صاحبته من جلبابها ، وفي رواية أخرى تسأل امرأة أعلى إحدانا بأس إذا لم يكن لها ثوب ألا تخرج ؟ فقال : « لتلبسها صاحباتها من جلبابها ، ولتشهد الخير ودعوة المسلمين ، والروايات كثيرة جدا لاسبيل هنا إلى احصائها .

فهذا رسول الله ﷺ وقد بعث إلى الناس كافة رجالا ونساء بل انساوجنا لم يقبل أن تتخلف المرأة عن هذا اليوم المشهود ، وتجلس في بيتها ، ولو لم يكن لها ثوب يناسب الجماعة ، أو كانت لا تباشر الصلاة ، بل عليها الحضور تجدد إيمانها ، وتقوى يقينها ، وتفقه دينها ، وتعرف دينها ، وتعرف واجباتها ، وتبتهج كذلك بهذا العيد كما يتهج الرجال ، بما يعود بالخير عليها في روحها ودينها وجسمها كذلك شهدت المرأة المشاهد الأخرى الجامعة . كصلاقي الاستسقاء وكسوف الشمس ، وروايات عائشة وجابر وأسماء في صلاة الكسوف نصت على وجود النساء ، تقول أسماء : « وكان يتولاني الغشى من طول القيام والر كوع حتى آخذ القربة من الماء فأصب على رأسي ، وأنظر إلى المرأة أسنه مني ، وإلى المرأة أضعف مني ،

هذا : وقد ظن بعض الباحثين أن حضور المرأة إلى المسجد كان في أول الاسلام أيام كان المسلمون قلة ، وكانوا بحاجة إلى تكثير سوادهم ، وقد رده المحققون ، وقليل من النظر في أحاديث رسول الله ﷺ وعمل أصحابه يرده ويبطله ، فعن ابن عباس انه قال : « إن أم الفضل سمعته وهو يقرأ والمرسلات عرفا فقالت : يا بني والله لقد أذكرتني بقراءتك هذه السورة . إنها الآخر ما سمعت

من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب . رواه البخاري — وفي رواية لها :
خرج علينا رسول الله ﷺ وهو عاصب رأسه في مرضه ، فصلى المغرب
بالمسلمات ، فما صلاها بعد ، حتى لقي الله عز وجل . وقول عائشة الآتي لو أدرك
رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بني اسرائيل
شاهد ببقاء الحكم وشهود النساء المسجد الى ما بعد رسول الله ﷺ .

واعترضت امرأة عمر بن الخطاب وهو يخطب على المنبر ، وكان يحث
الناس على الاقتصاد في المهور ، فقالت له : ليس ذلك إليك يا عمر ، ان الله
تعالى يقول : « وآتيتهم إحداهن قنطارا .. » ، فأعلن على منبره صواب رأى المرأة .
وكان رضى الله عنه وقافا عند حدود الله (١) .

فهذا وغيره كثير قاطع بان المرأة كانت تشهد المسجد للصلاة في عهد رسول الله
ﷺ وبعده ، وان الإذن كان عاما .

ومع ذلك فترى بعضا من الأئمة رحمهم الله يعقدون الفصول والأبواب في
ترغيب النساء في الصلاة في البيوت ولزومها ، وترهيبهن من الخروج منها .
ويعتمدون في ذلك على أحاديث شريفة هي عند التدقيق لا ترد هذا الحكم العام
الذى استفاضت به احاديث الصحاح ، هذا ونحن نعلم أن البحث في الاحاديث
النبوية في حاجة الى تدبر وروية ، ومعرفة ، بظروفها ومن يخاطبها ، واسانيدها
وتعميمها وتخصيصها .

عقد الامام المنذرى المتوفى سنة ٦٠٦ في كتابه الترغيب والترهيب فصلا
بعنوان : (٢)

١ رواه ابن كثير في تفسيره عن الامام احمد ، ومن طرق أخرى

« ترغيب النساء في الصلاة في يوتهن ولزومها ، وترهينهن من الخروج ،
ويسوق ثمانية أحاديث :

١- عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أنها جاءت إلى
النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله إني أحب الصلاة معك قال : قد علمت أنك
تحبين الصلاة معي ، وصلاتك في بيتك خيرٌ من صلاتك في حجرتك (١) وصلاتك
في حجرتك خيرٌ من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك خيرٌ من
صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خيرٌ من صلاتك في
مسجدي هذا - قال : فأمرت فبنى لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه
وكانت تصلي فيه ، حتى لقيت الله عز وجل . رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في
صحيحهما .

٢- وعن أم سلمة عن رسول الله ﷺ « خير مساجد النساء قعر يوتهن ،
رواه أحمد والطبراني في الكبير ، وفي أسناده ابن أبي طيبة ، ورواه غيرهما .

٣- وعنها قالت قال رسول الله ﷺ « صلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها
في حجرتها .. إلى آخره ، رواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد .

٤- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « لاتمنعوا نساءكم
المساجد ، ويوتهن خير لهن ، - والأربعة الباقية اثنان منها بمعنى ماسبق ، وآخران
في التحذير من الخروج خشية الفتنة .

وليس في ذلك ما يدفع الأحاديث الجامعة العامة الكثيرة ، وهذه فوق
نزلها عن تلك في درجتها فالتخصيص في الحديث الأول وهو أهمها ظاهر ،
والنبي ﷺ طبيب يداوى كل مريض بدوائه اللائق به
والخيرية في البيوت المذكورة في بعض الطرق لاتمنع الإباحة في المساجد .

١٠- المراد بالبيت : المكان الخاص من المنزل وهو أعظم ستر من الحجرة
العامة ، ومن رجة الدار

والامام المنذرى نفسه يعقد فصلاً آخر من نفس الجزء بعنوان :
 « الترهيب من تأخر الرجال لآخر صفوفهم ، وتقدم النساء إلى أوائل صفوفهن (١) » ،
 ذلك أن السنة أن يتقدم الإمام ، ويليه الرجال صفوفاً ثم الصبيان ثم صفوف
 النساء خلف ذلك ، ويروى عن أبي هريرة قوله قال رسول الله ﷺ :
 « خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها
 وشرها أولها » ، رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى . وعلق النووى عليه
 فى شرح مسلم بقوله : والمراد بشر الصفوف فى الرجال والنساء أقلها ثواباً وفضلاً ،
 وأبعدُها من مطلوب الشرع ، وخيرها بعكسه ، وإنما مُفضِّل آخر صفوف
 النساء الحاضرات مع الرجال لبعدهن من مخالطة الرجال ورؤيتهم وتعلق القلب
 بهم عند رؤية حركاتهم ، وسماع كلامهم — ويقول أنا إذا صلّين متميزات
 لا مع الرجال فهن كالرجال ، خير صفوفهن أولها ، وشرها آخرها .

وأما الفتنة :

فى خروج النساء فلم يكن النبي ﷺ ليُخفلهن ، وهو يقرأ فيما أنزل
 عليه « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين . . . » ويقول فى حديثه
 ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء (٢) .

لقد نهى النبي ﷺ المرأة إذا أرادت المسجد عن الزينة والطيب ،
 وأمرها بضرب خمارها على صدرها ونحرها .

روى مسلم بسنده عن زينب امرأة عبد الله قالت قال لنا رسول الله ﷺ :
 « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً » ، وروى عن أبي هريرة « أيما امرأة

أصابته بخوراً فلا تشهد معنا العشاء الآخرة ، ونحو ذلك رواه الإمام مالك في موطئه في باب خروج النساء إلى المساجد .

وفي حديث عائشة المتقدم (١) وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل ، لقد أنزلت سورة النور ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبح وراء رسول الله ﷺ معجرات كأن على رؤوسهن الغربان ، وهكذا كان النسوة من أصحاب رسول الله ﷺ يبالغن في الستر تأديبا بأداب الدين وتباعداً عن دسائس الشر من خطرات قلوب المنافقين ، فإذا خرجن محتشمات ، وإذا صلين في المسجد صلين خلف الرجال معتزلات ، فإذا قضين الفريضة انصرفن توجاً إلى بيوتهن .

وتقول عائشة فيما يروى البخاري : لقد كان رسول الله ﷺ يصلي الفجر فيشهد معه نساءٌ من المؤمنات متلفعات في مروطين ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفهن أحد .

والنبي ﷺ يعتمد إلى التيسير على النساء في الانصراف ، وحياطتهن من زحمة بعض الرجال ، فيتعمد المكث قليلاً ريثما ينصرفن . خرج البخاري عن أم سلمة أن النساء كنَّ إذا سلمن من المكتوبة قن وتبت رسول الله ﷺ ومن صلى من الرجال ماشاء الله ، فإذا قام رسول الله ﷺ قام الرجال . هذا هو هدى الله الذي أنزاه فبلغه وعمل به وحمل المؤمنون عليه . وبه كفأت الشريعة الغراءُ للأمة أن يسير أبناؤها رجالاً ونساءً على نور من الله ، وفقه في الدين ،

ومعرفة بالحياة والاسلام ، يعلم كل فرد ما عليه من واجبات وماله من حقوق
ويقوم بها كاملة غير منقوصة ، فتحيا الامة حياة عزيزة قوية سعيدة .
هذا هو هدى الدين في صلاح هذه الامة . تحضر المرأة الجمعة والجماعة
ومشاهد الخير ، في عفة وأدب واحتشام ، لتهتدى بنور الله ، وتفقه دين الله ، درج
عليه المسلمون زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين .

ومع هذا : فقد غلبت الحيلة قوما صالحين ، فرغبوا في منع المرأة
المسجد ، وأملى عليهم ذلك تغير الحال عما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ
ورأينا الامام البخارى رحمه الله يروى سنة النبي الامين في خروج المرأة الى
المسجد ثم يعقب بقول السيدة عائشة رضى الله عنها :

«لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء
بنى اسرائيل ، ومثل هذا الصنيع عمل الامام مسلم رحمه الله بعد ذكر أبواب ثلاثة
عرضت لصلاة النساء بالمسجد ، وتسوية صفوفهن ، وعدم رفع رءوسهن حتى
يرفع الرجال ، والإذن لهن وعدم التطيب ...»

وروى عن عمرة بنت عبد الرحمن انها سمعت عائشة تقول : لو أن رسول
الله ﷺ رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بنى اسرائيل (١)
ويقول النووى في شرحه ما أحدث النساء يعنى من الزينة والطيب وحسن الثياب
وهاك حفيد عمر بن الخطاب بلالا يسمع أباه عبد الله يقول : سمعت
رسول الله ﷺ يقول : لا تمنعوا نساءكم المساجد اذا استأذننكم اليها فيقول
والله لمنعهن ، فيسبهن سبا شديدا ، ويهول أحدك عن رسول الله ﷺ وتقول
والله لمنعهن ، وفي رواية يقول :

«كل ذلك بالجزء الرابع شرح النووى

إذا يتخذنه دغلا فضر به أبوه في صدره وقال بمنل ماسبق .

هذه هي الغيرة، دفعت الرجل حتى خرج عن حد الاعتدال ، والغيرة وإن كانت محمودة مرغوبة شرعا إلا أن ضبطها بحدود الدين هو ما أمر به النبي ﷺ ولقد كان عمر لشدة غيrote يكره أحيانا أن يخرج امرأته . روى الامام مالك في موطنه عن عائكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ام امرأة عمر أنها كانت تستأذنه الى المسجد فيسكت فنقول والله لا نخرجن إلا أن تمنعني فلا يمنعها . وذكر الحافظ بن حجر في ترجمتها من كتابه الاصابة جه أنها تزوجت عمر بعد أن شرطت عليه ألا يضربها . . . ولا يمنعها من الصلاة في المسجد النبوي ثم تزوجت الزبير بعد عمر ، وشرطت عليه ذلك ، فتحيل الزبير عليها بان كن لها لما خرجت الى صلاة العشاء فلما مرت به ضرب على عجزيتها ، فلما رجعت قالت : انا لله فسد الناس فلم تخرج بعد .

هذه هي الغيرة تدفعهم الى منع النساء من المساجد ، وكن على جانب كبير من الفقه يشار كن به الرجال ، ويسألن عن الدين ما يمنعن الحياء ان يتفقهن فيه ، ولقد بلغ من غيرة رجل كعمر أن عرفها له رسول الله ﷺ أكبر المعرفة . حدث البخاري بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : بينا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ الى جانب قصر ، فقلت لمن هذا القصر؟ فقالوا لعمر بن الخطاب فذكرت غيrote فوليت مدبرا ، وفي رواية أخرى فاردت ان ادخله فلم يمنعني الا على بغيرتك . قال عمر : يا رسول الله باني انت وأمي يا نبي الله أو عليك أغار ؟ وفي بعضها فبكى عمر وقال ما قال .

فاذا كان قد بدا من جانب فريق من الصحابة رضوان الله عليهم كراهة الخروج النساء الى المساجد كما كن على عهد رسول الله ﷺ ، ورجوا منعن ، فذلك

اجتهاد خاص لا يغير من شرع الله ودينه الحكيم

قال الشوكاني في نيل الاوطار (١) وقد تمسك بعضهم في منع النساء من المساجد مطلقا بقول عائشة . وفيه نظر لأنها علقته على شرط لم يوجد في زمانه عليها السلام ، بل قالت ذلك بناء على ظن ظنته فقالت : لو رأى لمنع ، فيقال عليه لم ير ولم يمنع ، وظنّها ليس بحجة ١ هـ وأقول : ما حذرته عائشة رضي الله عنها مما تغالى النساء فيه عاجله الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعه فقال : اذا شهدت احدا كن المسجد فلا تمس طيبا ، ونهى عن الزينة والتعطر وكل ما يثير شهوة أورية ، وبقي الحكم نفسه وحق المرأة في المسجد قائما ، فالوحي لم ينزل لزمن فينقضى بانقضائه ، والنبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق بأمر نفسه ولا عن مجرد رؤيته وعلمه ، إنما هو مبلغ لهدى ربه علام الغيوب ، ولو شاء ربك منعهن المسجد لفعل ، ولم يترك الحكم ليشعره بعد النبي انسان .

اصلاح الأمة بالرجوع الى الهدى النبوى :

والى هنا وقد أسفروا وجه الحق عن صبح أبلج لاظلمة فيه ، فلا مناص لنا من الرجوع الى السنة المطهرة ، والهدى النبوى الأول في شأن النساء وشهودهن المسجد ، اذا أردنا لهذه الأمة صلاحا واستقامة ، وترية دينية سليمة تكون روحها ، وعماد نهوضها في العهد الجديد .

ومن رأيي مهما حاولنا النهوض بالمرأة وترقية شئونها ، وتهذيبها وتثقيفها وتعليمها الدين من غير أن يكون لها حظها من المسجد والجمعة والجماعة ومشاهد الخير فيسقط مكان هذه الترية الدينية العملية من قلب المرأة شاغرا لا يغني عنه غيره بحال .

لا بد للمرأة من المسجد : تنال حظها الكامل من طهارته و قدسيته وروحانيته
تؤدي الشعائر فيه ان شاءت بالليل او بالنهار ، وتعمر قلبها بنور الله ، وتسمع
الوعظ والارشاد وتحفظ من ذلك ما يحفظ الرجل - ولنا بحاجة فيما أظن الى
الاطناب في اثر الدين في حياة المرأة ، وقوة استعدادها له ، وما يكون له من
بليغ الآثار في سلوكها وحياتها وواجباتها ، والقيام بشئون بيتها ، وصيانة نفسها
ومال زوجها ، فالصالحات قاتات حافظات للغيب بما حفظ الله ،

ولعل قارئنا عجلان يقول :

أتريد لهذا المكان المقدس الذي تنزه عن الشهوات والنزوات ، وصين
من المفاسد والمنكرات ، وحفظت له قدسيته على مر القرون والأجيال ، أن
يشاب بشوب الاختلاط ، وان يصيب روحانيته ما احصاب غيره من كل مكان
سواه ؟ لقد اقتحمت المرأة كل ميدان ، وولجت كل ميدان ، ولم يبق الا هذا
الحصن المسمى موئلا للرجل وملاذا ، وكعبة ومعادا ، فحا شك ان تبيحه
للرأة فتحرم الرجل حصنه الوحيد .

هذا كلام يقال ، ولكني سائل سؤالا ، أبهذا الذي كان من منع المرأة المسجد
وحرمانها منه صلح أمر الرجل ، وحسن حاله ، ورضع لبان الاستقامة ؟
هل أقبل على المسجد يزكي روحه ، ويطهر قلبه ، ويتفقه في دينه ، ويأخذ
نفسه بآدابه وتعاليمه وارشاداته ، ويلقن آله وذويه فضائله ، وينشئ بنيه عليه
فصاحت بذلك الأسرة ومن ورائها المجتمع ؟ ثم سؤال آخر : أهذا
اقتراح أقدمه أناقش فيه ، أم هو دين الله الذي أنزله لعباده هدى ورحمة ؟
إن الاسلام لم يخص الرجل بعنائه واهتمامه ، وأوبره وإكرامه ، بل انه
راعى المرأة كما راعاه ، وأولاها من العناية ما أولاه ، وربما أضفى عليها مزيدا

من حمايته وبره فأجاب المسترشد عن أولى الناس بحسن صحابته (١) وأوصاه مرة بأبيه بعد أن أوصاه ثلاثاً بوالدته .

وشرع لها من العبادات ما شرع للرجل طهارة وتزكية ، وجعل لها نصيباً من المسجد تجدد روحها ، وتزكى وجدانها ، وتقوى يقينها .

ومهما تكن الأسباب التي حدثت بالمسلمين إلى حرمان نسائهم من بيوت الله ، فضرورة الإصلاح قاضية بوجوب الرجوع إلى سنة الدين وهدى النبي الكريم . المرأة الآن سافرة لا تحتجب ، تخرج للعلم والتعليم ، وللتجارة والصناعة والمهن العامة ، وتخرج لقضاء حاجاتها ، ولزيارة جاراتها وصديقاتها ، وللرياضة والنزهة ، بل (للسينات) ، والحفلات والشواطىء (والبلاجات) ، ولم يعد هناك من مكان لا تتردد عليه سوى بيت الله ، وهى فى كل ذلك قلما تجد من حولها ما يعينها على إصلاح أمرها ، وتقويم أودها ، ويصرها بواجبها ، ويرسم امامها المثل الأعلى لتكميل نفسها وتربية ابنائها .

تعلمت الفتاة تعلماً مدنيا بعيداً عن دينها فلم يصلح ذلك كثير من حالها ، حتى رأينا زميلها الفتى أحياناً يؤثر الجاهلة عليها ، لما يعلمه من أمر نفسه وأمرها ، وتكشفت فى الشوارع والاسواق والمنتديات والشواطىء ، ولم تستقبح ذلك لنفسها ، لأنها لا تجد من يستقبحه ، بل هى فى كل يوم تستزيد منه وتفتن فيه ، لأنها ترى أثر ذلك استحساناً وظلماً فى العيون الشرهة الطامعة ، وقلما تسمع كلمة واحدة تقبح ذلك لأنها لا تردأ ما كن الفضيلة ، ولا مواطن النزية والتهديب . كم نسمع الوعاظ والخطباء يتحدثون إلى الناس بالبليغ من القول والقارص من اللوم فى شأن السفور والعري الحاصل من النساء ، ولكننا لا نرى لذلك أثراً ، اللهم إلا تزايداً ومغالة فى ذلك العري وهذا السفور ، فلو جاءت المرة المسجد وسمعت

١٠ ، الصحابة هنا والصحبة بمعنى واحد

الوعظ والارشاد، وفتمت دينها وعلمت الحلال والحرام، وتربى ذوقها تربية دينية، وأساعت ما أساغ الدين، واستقبح ما استقبح الدين لكان لنا منهن نماذج صالحات، وقدوة حسنة يقاومن بسيرتهن وسلوكهن وحشمتهن ما يجرى إليه المجتمع سريعاً من التقليد المسرف في التبذل والاستهتار.

وإذا كنا نعلم الرجل واجبه نحو أسرته وزوجته فكيف نعلم الزوجة واجبها نحو زوجها وبيتها؟ هل ويعلمها الزوج؟ وإذا كان الزوج جاهلاً فمن يعلمها؟ أيعلمها المذياع؟ وهل عند الجميع مذياع، وهل يغنى المذياع في كل مكانه القصار، وجوه المعروف عن الإشراق الروحي العظيم في بيت الله؟ ألا فليتبجه المصلحون هذه الوجهة الصحيحة التي تؤتي ثمراتها الطيبة بأقل جهد، وأقوم سبيل، وليذكروا كم بين الإصلاح عن طريق الجمعيات النسوية التي تضم من الأفراد العشرات، وإن تتابع نجاحها ضمت المئات والآلاف مع باهظ النفقات وشاق الجهود، وبين الإصلاح عن طريق المسجد الذي ينتظم (الملايين)، ولا يكلف من النفقات (الملايين) أو مادون (الملايين).

إن هذا الدرس الأسبوعي درس الجمعة الذي وضعه الله ذلك الوضع العجيب، وفرض فيه الجماعة، وأوجب أن يكون بالمسجد، وشرع له الطهارة والخطبة، لو أحسن المسلمون الانتفاع به والقيام عليه، وأدوه خير الأداء، واختير له أقدر الناس عليه واكفؤهم له من كبار علماء الأزهر، وأفاضل المشتغلين بقضايا الدين، لكان للمسلمين المدد الروحي الذي لا ينفد، والنور الذي يضيء لهم سبيل الحياة. ولأمكن نحو الآميه العقلية والروحية من المسلمين رجالهم ونسائهم بأقوم طريق، وأوضح منهج، وأهدى سبيل.

وإذا كنا نتأذى بوجوب الرجوع إلى هدى الدين، وأخذ المرأة حظها من المسجد

والوعظ والارشاد ، فليس معنى ذلك أننا نطلب بأن تزحمه وتأخذ مكان الرجل فيه ، وكثير من المساجد يضيق بالمصلين ، ولكن على المسلمين — حقا واجبا — أن ينشئوا من المساجد ما يكفي لإقامة شعار الدين ، وبعض المساجد الحاضرة فيه سعة ، وبعضها فيه جوانب يمكن حجزها للنساء ، وكلها تتسع لدروس الوعظ والارشاد في غير أوقات الصلاة ، وعلى المسلمين أن يراعوا ذلك فيما يجدون من مساجد ، وأن يتوسعوا في دروس الدين للسيدات تلقى من الوعاظ والواعظات

بهذا لاغيره نكون قد أدينا واجبا هاما في سبيل المرأة المسلمة، والاسرة المسلمة ، والأمة المسلمة ، ويكون ذلك أول الطريق في عهدنا الحديث لنهضة حقيقية شاملة . وهذا نفسه هو منهج الدين في سماحته ورجاحته وتعليمه وتهذيبه حينما أخذ — يأخذ — بيد الرجل والمرأة على السواء ، فأقام منهما مجتمعهم الأول سليما قويا فاضلا ، شاده على العلم والعمل ، وبناء على العفاف والطهر ، وأسس على تقوى من الله ورضوان ، فانطلقت قواه من عَقْلِها ، ماضية في طريقها المقدور ، موفقة الى غاياتها البعيدة ، ومُثْلها العليا ، وكان من ذلك خير امة اخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويطيعون الله ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم ، صدق الله العظيم .

المرأة والأهية

رأينا في الفصل السابق أن حق المرأة في المسجد ثابت لا شك فيه ، وأنه شرع الله وهداه ، وأنه السبيل الذي لن يغني غناه سواه في تقويم المرأة وتهذيبها ، وصلاح دينها وخلقها ، وأعدادها لتكون أما فاضلة ، تؤدي واجبها خير أداء وأكله ، وتنشئ جيلا سليما قويا ، يعرف للوطن حقه ، ويعيد مجده ، ويبني لأمتة فيشيد البناء .

ومهما كانت الأسباب التي دعت المسلمين إلى حرمان النساء من روحانية المسجد وتقاه ، فقد وجب الآن العودة إلى الهدى النبوي الذي تربى عليه الصحابة جميعا ، رجالهم ونسأؤهم وأبنائهم حتى تخرجوا من مدرسة النبوة وفي بيت الله رسل العناية الإلهية ، ينشرون العلم والنور حيثما ساروا ، ويقومون الخير والهدى أينما حلوا .

لقد علمت المرأة في إبان الدعوة الإسلامية من أمر دينها ما يعلم الرجل ، وحضرت منهن من شاعت الجمعة والجماعة ، وخرجن كلهن في العيد ، وطلبن المزيد تعويضا عما يتلقاه الرجال بدوام سماعهن من الرسول ، حيث قلن ، لقد غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما من نفسك ، فوعدهن يوما يلقاهن فيه بالتعليم والإرشاد ، وقد أصبن من العلم والفقه والرواية الشيء الكثير ، وحملن السنة النبوية والأحكام الدينية كاحملها الرجال ، وتلقاها الرجال عنهن ، كما تلقين عن الرجال ، وكتب السنة زاهرة بمروياتهن ، لم يفرق في ذلك بين رجل وامرأة — بل لم تكن ثقافة المرأة مقصورة على رواية الحديث ، والتفقه في الدين ، فقد علمت الشعر والأدب والتاريخ ، وما استطاعت عمله آنذاك — وعائشة رهي

من أعلم الصحابة بالدين كانت في رواية الشعر والأدب إحدى الأعاجيب وكان
 منهم المحدثات والمفتيات والخطيبات ، وتعلمن عليهن كثير من الأئمة .
 والآن بلغت المرأة المستنيرة في العلوم المدنية المدى البعيد ، وتلقت ثقافة
 واسعة غير مكثفة بما يتصل برسالتها ، ويتعلق بأعبائها وأمومتها ، وشاركت في
 ميادين العلم وفروعه المختلفة ، غير نوع واحد من التعليم حرمته ، وكانت له أوفق
 وكان بها أليق ، ذلك هو العلم الديني في الأزهر ، والتربية الروحية في المسجد ،
 ولم يكن عجباً حينئذ أن تتقدم في ميادين العلم والمعرفة ، ونفلس في بحال
 الأخلاق والتربية ، وتزخر مشكلاتنا في الأسرة وتكثر في المجتمع كثرة
 تزلزل كيانه ، وتوهن بنيانه ، وتفت في أعضاده ، وما ذلك إلا لغلبة الأمية الدينية ،
 والفقر الروحي في الرجل والمرأة على السواء .

إننا نطلب في صدق وإخلاص فتح أبواب الأزهر للفتاة ، تأخذ حظها من
 العلم الديني ، ويستتير قلبها بالهدى النبوي ، ويشرق عقلها بنور الإسلام ،
 فتعيد لنا مجد المسلمات في العصر الأول . وتصل من تاريخنا ما انقطع ، وترفع
 من حاضرنا ما اتضع .

وإنه ليسرنا حقاً أن يرى هذا الرأي كثيرون . ويدعو إليه داعون عن
 إيمان واقتناع — بل لقد أخذ المسؤولون بالأزهر يبحثونه حيناً ، واقتنعوا به
 ووعدوا بالعمل على تنفيذه (١) ، وكان شأنه شأن غيره من نواحي الإصلاح
 الأزهرية ، فكثيراً ما تنام في المسكاتب إلى أجل غير محدود ، حتى يبعثه الله من
 يبعثها من رقادها ، ويوقظها من سباتها لتأخذ طريقها إلى عالم الأحياء .

ألا إنه لا سبيل إلى خلق البيت الصالح ، وتكوين المجتمع الصالح ، بدون
 المرأة الصالحة . ولا سبيل إلى إصلاحها إصلاحاً حقيقياً شاملاً ما لم يكن لها

«١» وكان ذلك في عهد مشيخة المرحوم الشيخ ، أمون الشناوى للأزهر — على ما أذكر

حظها من المسجد ، ونصبها من الأزهر .
 إن صلاح فتاة واحدة صلاح لأسرة كاملة ، ولما يتفرع عنها من أسر ،
 عدا ما تشعه من أضواء الصلاح على المخالطين والمقاربين من الأهل والجيران .
 إن عشرات من السيدات الفضليات يترين تربية دينية ، ويدرسن دراسة
 إسلامية ، ويتفقهن في الدين ، وتسمو به أرواحهن ، وتطهر قلوبهن ، أفعل
 في نفوس النساء بالقدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ، والنموذج الحى ، من
 ألوف الدعاة من الرجال — وليس من شك في أن المرأة أخبر بنفسها ،
 وأعلم ببنات جنسها ، وأهدى إلى عقولهن ، وأصرح في مخاطبتهن ، لقد كانت
 المرأة المسلمة تسأل رسول الله ﷺ عن الدقائق من خصائص المرأة ثم
 لاتقنع منه بالجواب المجمل فيعرض عنها حياء ، وتجذبها عائشة وتشرح لها
 ما أراد الرسول بأصرح مما يقول — فقد روى مسلم وغيره عن عائشة أن
 امرأة من الأنصار سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض ، فأمرها
 كيف تغتسل ثم تأخذ فرصة من مسك — أى قطعة من قطن ونحوه مطيبة
 بالمسك — فَتَطْهَرُ بِهَا ، قالت : كيف أنظهر ؟ قال سبحان الله تطهري
 بها وأعرض عنها حياء — قالت عائشة واجتذبتها إلى — وعرفت ما أراد — فقلت
 تتبعى بها أثر الدم .

بل لعل من اليسير أن تلج المرشدة البيت على أخواتها المؤمنات لتعظن ،
 وترشدهن إلى ما فيه خيرهن وسعادتهن ، وتنهاهن عن تجاوز حدود الدين ،
 حيث لا يستطيع ذلك واحد من الرجال — ولئن كانت الأخلاق تقبس من
 الأخلاق فإن صلاح المرأة رهن بوجود هذه المثل العليا من المرشدات ، فتحذو
 المرأة حذوها ، وتسمع لها ، وتأخذ عنها ، ولن تقتدى المرأة برجل الأزهر ،

ولن تأخذ عنه ، بل أين ومتى تسمع منه ؟ أفى المذيع وهل يتوفر للجميع ، أو يتوفر لسماعه الجميع ؟ أم فى بيوتهم ؟ والبيوت غالبا بين جهل فادح ، أو علم لا يتصل بالدين ، وقل من أتاحت لها بيئة دينية ، وأقل منها من انتفعت بتلك البيئة ؛ وتلقت التوجيه الصحيح .

إن المجتمع الآن تصهره عوامل شديدة الخطر ، بعيدة الأثر ، من التقليد الغربى ودور الحياالة ، والصحف الرخيصة ؛ والمجلات المبتذلة الخليعة ، والحفلات الماجنة ، والأغانى الإذاعية التى لاتمل الحب والحبيب أبدا ، والعزى الفاضح فى الشواطىء مما يدفع المجتمع فى قفاه دفعا إلى مهوى سحيق من التحلل والإباحية ، وطبيعى أن تنهج المرأة الشرقية نهج الغربية ما دام علمها وقوتها وأفدة عليها من الغرب وما دام قد ضرب بينها وبين الأزهر بسور له باب .

إن على المثائبين طويلا من دعاة الإصلاح . وعلى أولئك الذين اعتادوا أن يقنعوا أنفسهم بانهم من دعاة الإصلاح ، أن يفتحوا عيونهم فى هذا المجال ليروا إلى أى مصير نحن صائررون .

إن هذه الموجه العاتية الآن تدفع أمامها الكثير من تقاليد الصيانة والاحتشام وتكتسح فى طريقها الآثار الباقية من آداب الإسلام ، فى بيئات ما زالت تعد من المحافظين ، وما ذلك إلا بوقوفنا الموقف السلبي من الإصلاح ، فنكتفى بالقول والبيان ، حيث يأخذ سبيله إلى عالم النسيان ، وقد ينتابنا التأثر والحماس الشديد إلى حد الصراخ والبكاء ، ثم يكون بكاءنا صرخة فى واد ، ونفخة فى رماد ، لاتنال محاول الإصلاح جادين ، ولم نسلك من طرقه ما يقطع السبيل على إخوان الشياطين .

إن السيدة المحافظة التى حبست فى البيت فلا تنال من الأزهر علما ، ولا من

المسجد زاداً، ستظل تحسب نفسها دون جارتها المترددة على (السينما) والخارجة إلى الحديقة، والمترينة في الشارع، والمصيفة على الشاطئ. إلا أن تكون فوق أهواء البشر، ونزعات النفوس. فلو خرجت الخارجة إلى (السينما) وذهبت المحافظة إلى المسجد، وبرزت المتكشفة إلى الشواطئ وسعت المحتشمة إلى الدرس، وجالت المتغربة في الطرقات، وحضرت المؤمنة الصلاة، فستشعر من عزة الدين، وترفع الاحتشام وعظمة الأدب، بما يزدري التبرج والتكشف والانحلال

إن في المجتمع قلة من السيدات المجاهدات الداعيات إلى الله، يقاومن التيارات الغربية، والسموم الأجنبية، والمخازي المجلوبة، فهل من الإخلاص لديننا ووطننا وقوميتنا أن ندعهن في الميدان بوسائلهن الضعيفة المحدودة، ونقف من جهودهن المشكورة متفرجين، مغتبطين أولاً هين؟ أليس واجبنا رعاية هذه الروح العالية بتربية جيل من الفتيات تربية إسلامية، يتفقهن في الدين، وتختلط علومه وآدابه بقلوبهن ودماهن، فيعدن لنا سيرة المؤمنات الصالحات في أسلافنا الصالحين؟ أليس واجب الأزهر إنشاء عدد من المعاهد الدينية للفتيات يشرف عليهن منذ نعومة أظفارهن، ويلقنهن من علوم الدين، ومعارف الحياة الكاملة ما يجعلهن أمثلة عليا للمرأة المسلمة التي تنشئ البيت المسلم، وتكون خير قدوة لآلها وذويها. ذلك الذي نرجو أن يكون، وبأسرع ما يكون.

هذا ولعل من دواعي الارتياح، أن نختم هذا الفصل بكلمة لعضو بارز من جماعة كبار العلماء (١) تحت عنوان «فتياتنا في الأزهر»، تصلح أن تكون منهج الدراسة في معاهد البنات الأزهرية إذ يقول:

(١) فضيلة الشيخ محمد عرفة — والمقال منشور بهلال يناير سنة ١٩٥٥

« علموهن الدين في بساطته وسهولته وبسره ، كما كان في الصدر الأول ،
وأعفوهن من التفريعات الكثيرة والقواعد الاصطلاحية ، وجنبوهن التعقيد
الفلسفي والآراء الجدلية . . فإن ذلك لا يلائم طبيعتهم ، ولا يساير شيمتهم .
افرضوا ما شئتم على الفتيات من الصيانة ، وحوطنن بما ترون من الرعاية ،
واجعلوا هذا التعليم خاصا بهن لا يختلطن فيه بالفتيان ، ولكن لا تحرموهن
الدين ، وتقوية اليقين . »

قرأنا بعد ذلك رسالة لطيفة للأستاذة زينب الحكيم بعنوان رسالة
الأزهر في القرن العشرين من وجهة نظر المرأة ، أعيد طبعها أخيرا ، وكانت من
بين رسائل المسابقة في سنة ١٩٣٦ ، وتطلب فيها للمرأة « أن يفسح لها مجال
في الأزهر ، لتعرف شئون دينها ، وتدرس أعظم شريعة سمحاء — اختصت
المرأة بمالم تختصها به شريعة أخرى . وتقول : وهذا الإصلاح الذي لم يسبق
الاسلام به دين ولم يبلغ شأوه تشريع ، يقوى من عزيمة المرأة على نصرته ،
ويدينها بنشر رسالته ، وهذه لعمر الحق درجة من الإصلاح البشري العام
عظيمة ، وخطوة للإصلاح النسوي خاصة . ص ٩ — ١٠ .



المرأة والحياة العامة

التعليم :

قطعت المصرية الحديثة شوطا بعيدا في الحياة المدنية ، فافتحمت الميادين الكثيرة التي لم تلجسها من قبل ، وفتحت الأبواب التي كانت إلى عهد قريب مغلقة ، وزاملت الرجل في عديد من الأعمال وسابقتها ، وطلبت من العلم ماطلب ، ورحلت في سبيله كما رحل ، وأخذت من أسباب الرقي والنشاط بمثل ماأخذ أو قريب منه .

فالفتاة الآن تنال حظها من العلم كما ينال الفتى ، ومدارس البنات من ابتدائية وثانوية تنتشر في المدن صغيرها وكبيرها من الشمال إلى الجنوب ، وكليات الجامعات والمعاهد العليا تستقبل الأفواج وتخرج الأفواج من الفتيات . والمرأة الآن مدرسة وطبيبة وكاتبة وصحفية وموظفة في شتى الوظائف فوق مزاولها الأعمال الحرة كالتيجارة ونحوها .

وقد ألقت الجمعيات الكثيرة ساعية جهدها لترقية بنات جنسها ، وإعلاء شأنها ، والقيام بنصيبتها من الأعباء الوطنية ، حيث تقوم بعض هذه الجمعيات بالخدمات الاجتماعية الهامة ، كالتمريض والتطبيب في المستشفيات والمبرات ، ورعاية الأطفال والفتيات ، وبعضها ينشر الثقافة الدينية والثروة الإسلامية ما أسعفتهن الوسائل المحدودة ، ومنها من يعمل للأغراض السياسية ، ويطلب المساواة بين الرجل والمرأة في هذا السبيل .

وبدأت المرأة تجرب نفسها في الأعمال العنيفة ، وتطلب المزيد منها فرحة مبهجة بتلك الحياة الجديدة ، فاشتركت الفتاة في الحرس الوطنى ، وتلقت

التدريب العسكرى ، ولم يبق أمامها لتاج النصر ، واكليل الظفر سوى المساواة السياسية ليتاح لها أن تكون نائبة فى البرلمان ، ومن ثم تأخذ طريقها إلى كرسى الوزارة أو إلى أكثر منه ، كما أخذته قرينات لها فى بلاد أخرى .

والأمم - كل قوى فى مستقبل المرأة وأنه سيكون خيرا من حاضرها وأروع .

والناظر إلى الجيل الجديد الناشئ لا يملك نفسه من الإعجاب بالتطور الكبير الذى وصلت إليه البلاد فى تعليم أبنائها وبناتها ، فإذا تجاوزت العاصمتين الكبيرتين - القاهرة والاسكندرية - وحظهما من العلم جليل ، وشاهدت مدينة كطنطا أيام الدراسة ، ورأيت شوارعها الرئيسية فى الصباح وبعد الظهر وكيف تموج بعشرات الألوف من تلاميذ المدارس وتلميذاتها ، من قاطنى المدينة والوافدين عليها ، حتى ليخيل إليك أن الجمهور كله ذاهب إلى المدارس وخارج منها ، إذا رأيت ذلك أيقنت أن المجتمع المصرى فى تطور سريع ، وأن أولئك الفتيات ممن يطلبن العلم وينشدن المعرفة لا بد وأن يزداد أثرهن فى حياتنا العامة .

بلغت المرأة ما بلغت من الثقافة والعلم ، وأنه ليزداد حظ هذا القدر من الإعجاب إذا علمنا أن عهد المرأة بالتعليم العام قريب .

بدء تعليم الفتيات :

فأول^(١) مدرسة أسست لتعليم البنات فى مصر كانت فى عهد اسماعيل سنة ١٨٧٣ أنشأها إحدى زوجاته بحى السوفية من القاهرة وعرفت بعد بالمدرسة السنية .

ويذكر الأيوبى فى كتابه عصر اسماعيل^(٢) : أن الأقباط سبقوا بإنشاء مدرستين إحداهما فى حارة السقاين تضم خمسا وأربعين بنتا يتعلمن اللغة العربية ،

١ - الثورة العربية للرافعى ص ٢١٠ . الأهرام فى ٧٥ عاما ص ٧ ، (٢)

والأشغال اليدوية على يد معلمات سوريات ، والأخرى بجانب الأزبكية وكان فيها ثمانون بنتا . غير أن الدعوة إلى تعلم الفتاة كانت أسبق من ذلك ، فقد نادى رفاة الطمطاوى بوجوب تعليم البنات وتنقيفها أسوة بشقيقتها الفتى ووضع في ذلك كتابه القيم وسماه « المرشد الأمين للبنات والبنين » ، وحث فيه على صرف الهممة لتعليم الفتيات والفتيان لترتقى المرأة ويزداد أدبها وعقلها ، ويعظم في قلوب الرجال مقامها ؛ وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها... وهذا من شأنه أن يصرف النساء عن البطالة^(١) ، وكان يستهدى في بحوثه آداب الدين .

وقد لاقت الدعوة من ذلك الحين تقديرا من الطبقات العالية ، فأخذت العائلات الكبيرة تعلم بناتها في البيوت على يد أساتذة من معلمين ومعلمات ، فظهرت طبقة نالت حظا وافرا من العلم والثقافة ، ومن هذه الطبقة « عائشة التيمورية » ، وقد نبغت في الشعر والأدب ، وأتقنت النحر والعروض على يد معلمتين من أهل العلم في هذا العصر ، وهما فاطمة الأزهرية ، وستيته الطبلاوية^(٢) وجاء بعد رفاة الطمطاوى قاسم أمين ، فألف كتابيه تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، ووسع نطاق الدعوة ، وعرف بها ونسبت إليه .

هذا البدء المتواضع للتعليم النسوى في عهده القريب لم يلبث أن قفز بالمرأة سريعا إلى مرتقى عال من الثقافة والعلم ، سارت به الرجل وشاركته في كثير من الميادين العامة .

والنتيجة المعقولة لهذه الخطوات النفسية المدى في رقى المرأة وتقدمها ، واستزادتها من العلم ، ومعرفتها بما لها وما عليها من حقوق وواجبات ، ووضعها

خبرتها وجهودها وعملها لخدمة وطنها أن تكون الأسرة المصرية أحسن حالا ، وأهنأ بالاً ، وأكثر تماسكاً ، وأقوى روابطاً ، وأن يحظى النشء برعاية كاملة ، في ظل أمهات مستنيرات ، عرفن من أسرار التربية ، وواجب الطفولة وحسن التوجيه ما لم يتيسر للأمهات السابقات .
المصرية تؤثر العمل الخارجى :

ولكن المصرية المتعلمة التى رُجى أن تكون أما نموذجية ، وربة بيت مثالية ، تقوم بأعداد الشببة إعداداً صالحاً ، وتشرف على بناء الوطن فى بنيه ، كى ينهض الجيل الجديد مزوداً بالقوى النفسية ، والمسلكات الخلقية بما ينتظره من تبعات وأعباء جسام ، هذه المصرية المرجوة لإقامة أركان الوطن على أساس متين آثرت الكثيرات منهن ميدان الحياة العامة ، ورأته ألبق بها وآفق لها ، وأرضى لطموحها ورغباتها فرفضت الحياة الزوجية ، أو جمعت بينها وبين العمل الخارجى .

ونحن مع إيماننا بوجوب العلم للرجل والمرأة جميعاً ، وأن طلبه فى الإسلام فريضة دينية ، وترحبنا بتعميمه للصغار والكبار من الرجال والنساء نتساءل : هل من الخير للفتاة أن تتعلم من العلم ما يتعلم الفتى لنزاحه فى المكتب والمتجر والمصنع ، وتقاسمه الوظائف العامة ، وتحمل من الأعباء ما يحمل الرجل ؟ وهل من الخير للامة أن تعلم بناتها لتنتفع بها انتفاعاً بأبنائها ، وترفع بالجهود المشتركة المستوى الاقتصادى للامة استجابة لظروف التطور الاجتماعى التى جعلت من اشتراك الجنسين ضرورة وطنية ؟

وهل من الصالح العام انتزاع الأم المتعلمة من أحضان بניה ، وحرمانهم من رعايتها الكاملة لتهدى جهودها الخارجية الى المجتمع بالإضافة الى جهود الرجل كى يزيد الانتاج الى المدى الذى يراه الداعون اليه ؟

وربما كان هذا الأخير ممكنا لو استغنى الصغار عن يتعاهدكم ويرعاهم
ويقوم بأمرهم مدة غياب الأبوين عنهم ، أما ولا بد لهم من شخص يحل محل
الأبوين مدة خروجهما فلم توفر للأمة شيئا ولم نصنع سوى استبدالنا الدخيل
بالأصيل في تربية الأبناء ورعايتهم ، فرضينا الخادمة أو الخادم للإشراف عليهم
مدة خروج الآباء .

وقد يقال : إن بروز الأم المحامية أو المعلبة أو الصحفية أو النائبة .. لعملها
الخارجي أجدى على المجتمع وأوفر له من خادم أو خادمة جاهلين نكل اليهما
الأبناء حتى تعود الأم بعد حين ، ولكن هل هو أجدى على الطفل من حنان
يدفئه ، وعطف يهجه ، وتوجيه سديد يسعده ويسعد به المجتمع ؟ . إن المجتمع
هو ذلك الطفل الصغير من هذه الأسرة ومن تلك ، ينشأ سليم الجسم والعقل
والعاطفة فيسلم المجتمع بسلامته ، أو تمرض نفسه وتبس عواطفه وينحرف
إحساسه فيصيب المجتمع منه اذى كبير .

إن بُعد الأبناء من عطف الأمومة الزمن الطويل ، والقذف بهم الى
أحضان الخدم وأكفانهم يكرعون من مواردكم ويطبعون على غرار خلائقهم
حرمان لفلذات الأكباد من حقوقهم الطبيعية في صلاح التربية وحسن التنشئة ،
بل في عواطف الخير والمحبة تعمر قلوبهم وأفئدتهم نحو ذويهم ، وتمتد منهم الى
المجتمع الخارجي ، إنه اليتيم الفعلى لهذه الزهرات اليانعة من مهج القلوب ، وثمار
الحياة ، تلك التي لاتنال حقها الفطرى من الرعاية والعناية والحنان والتوجيه ،
وما أصدق شوقى في تعبيره عن اليتامى ذوى الأبوين إذ يقول :

ليس اليتيم من انتهى ابواه من هم الحياة وخلفاه ذليلا
فأصاب بالدنيا الحكمة منهما وبحسن تربية الزمان بديلا

إن اليتيم هو الذى تلقى له أمًا تخلت أو أبا مشغولا
قد يكون مفهوما أن تعمل المرأة التى تضطرها ظروف حياتها إلى كسب
عيشها ، وواجب الدولة معونتها وحمايتها ، ولكن أى شيء — غير الترف —
يحمل المرأة المتزوجة المنجبة على ترك أبنائها إلى حيث تقضى الساعات الطوال
فى مقر عملها موزعة القلب ملهوفة الفؤاد .

إن للمرأة ميدانا لا يجاريها الرجل فيه ، فهل سيُصر على أن تكون ربه
فى الوقت الذى تشاطر الرجل عمله الخارجى ، أو أنها ستشاطر الرجل فى الخارج
ليشاطرها العمل الداخلى ، ومن ذلك تجمى المساواة الكاملة ؟ . ولو كان ذاك
فإلى أى مدى يكون التوافق والانسجام والسعادة البيتية فى أسرة يعمل الرجل
والمرأة كل منهما فى طريقه ليجتمعا آخر النهار متعبين مكدودين ؟ . أينفس
عنها أم تنفس عنه ؟ يُعِدُّ لها طعامها أم تعُدُّ له طعامه ؟ أم يتعاونان ؟
ولو أفلح الرجل فى مشاركة امرأته المنزل أترأه يشارك فى حمل الولد تسعة أشهر
وفى إرضاعه حولين كاملين أو قريبا منهما ؟ أم ستضطر المرأة ويضطر معها
الرجل إلى أن تنفرد هى بذلك على أن ينفرد هو بالعمل من أجلهما وأجل
وليدهما ؟

نشرت الأهرام (١) لكاتبة فاضلة مقالة ضافية بعنوان الى الآباء تنعى عليهم
تقصيرهم فى تربية أبنائهم وعدم تخصيصهم القدر الكافى من أوقانهم لرعايتهم ،
وأخذت على الآباء انشغالهم على الأبناء — وصدقت — ولكن ماعساها قائلة
فى الأم المشغولة عن ولدها بعملها الخارجى وأيست فى حاجة إليه ، إلا إرضاء
لكبرياء زائفة ، أو استعباداً لترف قاهر .

إن اشتغال المرأة بالأعمال العامة من غير ضرورة ترفه لاخير فيه ،
واعمالها بنيتها ، ودفعهم لمن لايعنى بهم ارضاء لمظهر براق ، وتفضيلاً للعمل
الخارجي على تربيتهم جرم كبير ، يرى أثره في الأم نفسها وفي الابناء ،
حتى صار من المؤلف انعقاد المؤتمرات لبحث مشاكل الأسرة ومعالجة
انحراف الاحداث . ولئن قيل بأن بعض هذه العيوب موجود من قبل
فلقد كان الظن بتقديم المرأة أن يصاحبه على الأقل تخفيف آثار هذه الويلات
لائتفاقهما وتزايدها يوماً بعد يوم .

أزمة الزواج :

بل لم يقتصر الأمر على مشكلة انحلال الأسرة وانحراف ابنائها فحسب —
وإنه لخطب جسيم — وإنما جدت مشكلة بناء الأسرة وإقامتها ، فقد كان
من جرّاء اشتراك المرأة في الأعمال مع الرجل أن استعذبت الحرية
والانطلاق وآثرتهما على المنزل وابعائه وواجباته ، وشعر الرجل بابتدال
انوثتها فلم يسرع اليها ، وساورته الشكوك في سلوكها فعزف عنها ، وعرف
منها ماوراء حريتها فساء ظنه فيها ، وصار من المؤلف المشاهد كثيراً أن
تتقدم السن بالفتاة العاملة أو الموظفة فتقضى أيامها عانساً يُقضى مضجعها ،
ألم الوحدة ، أو تنزل راغمة بعد فوات الأوان على زواج لم يكن ليرضيها
وكانت القوانين قبل — وما تزال قائمة — موضوعة لمنع التبكير الشديد في
زواج الابناء وهم صغار .

إن اندفاع المرأة في الحياة العامة ومشاركتها الرجل في أعماله إن هو
إلا تقليد لنظم الغرب ومسير في ركابه ، وإذا كنا نحاول اقتفاء آثاره
واحتذاء مثاله ، فهل تيقننا أن كل ما يصلح لأوروبا وأمريكا مثلاً يصلح لنا

وكل ما يفيدهم يفيدنا؟ وهل علمنا حقاً أنهم في مدينتهم الباهرة وحضارتهم الزاهرة، وقرتهم المادية القاهرة سعداء بحلمهم هائثون في أوطانهم راضون عن أمورهم، قويت لديهم روابط الأسرة وحسنت تنشئة الأبناء عندهم بما حسنت به اقتصادياتهم.

إن عقلاءهم يتلمسون المخرج مما وصلت إليه حال بلادهم. وإن نفراً قليلاً من فلاسفتهم ومفكرهم كانوا يحذرونهم نتائج التغلّي في النواحي المادية وعواقب التفريط في المثل الروحية، والمبادئ السامية، وقد صارت الأفراد القليلة الشتيّة الآن جماعة كثيرة العدد جبهة الصوت، وحدّ بينها في الأمم المتفرقة شعورُها بالخطر المحدق على مدينتها المادية، فولّت وجهها نحو الشرق تجوب أقطاره وتلتقي رجاله، وتلتمس من آدابه، وتستمد من دينه وعقيدته ماترجو به انقاذ الغرب مما تردى فيه (١).

لقد ازدادت مشاكل الطفولة وانحراف الأحداث عندهم كأثر من آثار تفكك الأسرة نتيجة لعمل الأم خارجها وتكسبها كالرجل وتركها الأبناء للخدم ودور الحضانة وسواها.

١ - تذكر الصحف بين الحين والحين اخبار جماعة التسليح الخلق واشتراك مصر بمثلها في بعض نشاطها - وأوردت الجمهورية أنباء رحلاتهم في الشرق، وفي أثناء عودتهم من الحجاز الى مصر وجه مندوبها اليهم جملة اسئلة وكان مما قاله المستر جولدنج الانجليزى: « إن الغرب بدأ يتجه إلى الشرق التماساً لمساعدته والأخذ بيده في علاج ماديّاته التي شطرنه الى شطرين ». وأجاب الهر جارايس الألماني عن سؤال: لماذا وقع اختياركم على الدول الإسلامية والبدء بيارتها، بقوله: « ان الاسلام دين متين عامر بالقيم الروحية والمعنوية، وقد صمد في وجه القوى التي تألبت عليه في شتى العصور، ونحن نعتمد على روحانية الاسلام، فاذا ساعدنا المسلمون أمكن أن يعم الخير العالم ».

جاء في الأهرام (١) تحت عنوان : الطفولة المشردة في أمريكا ، بخط عريض - ما قاله المدعى العام هربرت براونل في خطبة له : إن هناك أكثر من مليون من الأطفال المشردين في هذا العام سيقعون في قبضة البوليس وقال : إن مستقبل هؤلاء مخيف ما لم يدرس أمرهم في دقة ، واقترح علاجاً للوقوف لإنشاء فرع للأحداث في كل قوة من قوات البوليس . . . في كلام آخر طويل . وهذه هي المؤتمرات العالمية تعقد لمكافحة الجريمة بين الأحداث ، ودراسة أسباب انحرافهم ، ومحاولة إصلاحهم والآن أخذ بأيديهم إلى سواء السبيل ، كما عقدت مؤتمرات عربية لمثل هذا الغرض بإشراف هيئة الأمم (٢) فهل تريد الأمهات عندنا وقد بدت مظاهر الأزمات الخلقية بين الصغار والكبار من جراء ضعف التربية المنزلية ، وترك المرأة شئون بيتها ، وبروزها للعمل الخارجي ، هل تريد أن تصل إلى آخر الشوط فيزداد عدد الأطفال المضطربين عندنا ويتضاعف عدد المنحرفين منهم ، وتنسكب البلاد في أعظم ثروة لديها ، وأعز شيء عليها ، وهم بنوها وناشئها ، وشباب المستقبل وعدة الوطن ١١١٩

أما القول بأن اشتراك المرأة في الإنتاج القومي ضرورة وطنية فليس إلا تعلمات خيالية يبررون بها ما يريدون ، فنحن لا نشكو قلة اليد العاملة حتى نستعين بيد المرأة الصانع ، ولن نذكر هنا ألوف العمال أو عشرات الألوف ممن يبتغون العمل فذاك شيء تعلمه وزارة الشئون وسواها من المشتغلين بقضايا العمال ولم لكننا نعلم عن خبرة وبقين في محيطنا الرفي أن الفلاح المصري يتعطل شهورا كثيرة في العام وهم على الأقل بضعة ملايين . إن بلادنا سبقتنا بالعلم والصناعة والزراعة ورزقت الأرض الفسيحة ومع ذلك فزاحمة النساء للرجال فوق ما

أحدثته في محيط الأسرة والطفولة كانت سببا في تعطل عدد هائل من العمال
يزداد يوما بعد يوم ، ويهدد الدولة بالشر المستطير .

نشرت الأهرام في ٣١ / ١ / ١٩٥٤ تحت عنوان : إزدياد البطالة في أمريكا
ما يأتي :

أصدر مكتب الإحصاء الأمريكي بيانا أشار فيه إلى أن عدد العمال المتعطلين
بلغ مليونين و ٣٦٠ ألفا في الولايات المتحدة هذا الشهر ، أي زيادة نصف مليون
عن عددهم في شهر ديسمبر .

ولعل من المفارقات الواضحة أن يكون في نفس العدد من الأهرام بعنوان
« ديمقراطية التوظيف — الفتاة ووظائف الدولة » مقال ذكر فيه كاتبه نجاح
المرأة فيما تولته من أعمال ، وجاء فيه : وقد شرط المشرع الفرنسي على المرأة
التي تلتحق بخدمة الجيش أن تستمر بالخدمة من ثلاث إلى خمس سنين وأن تكون
غير متزوجة أو أرمل أو مطلقة ، أو منفصلة عن زوجها ، وأن تتعهد بالعمل في
جميع أنحاء الجمهورية الفرنسية — وقد جذب رؤيته للفتاة المصرية وقد شغلت
مناصب القضاء والمناصب الرئيسية الكبرى في الوزارات ، واتخذ من فرنسا
دليلا على مايقول .

هذه هي الحياة الناعمة المدللة يريد بها الرجل لنفسه ، كما يلطف جو العمل
من حوله ، بالمرأة تشاركه في أعبائه ، فيدعوها إلى التشبث بما تحسن وما لا تحسن ،
وإن جر عليها العناء والشقاء .

قد تضطر المرأة بحكم ظروف الحياة إلى العمل الخارجى فلا بأس أن تتولى
منه ما تحسن ، وقد تحسن المرأة التدريس أو تربية الطفولة في دور الحضانة
ورياض الأطفال ، أو معالجة المرضى ومساعدة المنكوبين وهذه نواح تستغرق

جهاد المرأة المستعدة لها وهي بها أليق وأوفق - ولكن تطلع المرأة لمشاركة الرجل في كل عمل وإن كان شاقا، ومزاملته في المهمات وإن كانت مرهقة أمر تنوء به طاقة المرأة ويعجز عنه احتمالها، وليس ينقض ذلك أن تخرج امرأة على القاعدة فتحسن ما يحسن الرجال من أعمال العنف والقوة، فالأحكام العامة إنما تبني على الأعم الأغلب لا على النادرة والشذوذ.

كذلك من الأحوال الاستثنائية نشوب الحرب وقد شهدنا المرأة في القديم اشتركت في حروب الإسلام (١) وكان دور المرأة فيها رعاية الجرحى وخدمة المحاربين، وربما تخرج الموقف حتى رأت المرأة نفسها في حال دفاع فحملت المهندسة من نهار. وما تزال المرأة كذلك تدفعها المواقف الحرجة، والأخطار المحدقة، فتندفع اندفاع الأم اللهي رُوعت أشبالها، والأمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي والعالمي والتاريخ المصري الحديث، وما أبلته المرأة المحجبة في دفاع الفرنسيين منذ لاحت سفنهم على شاطئ الإسكندرية، وفي كل مكان وظئوه، إلى أن جلوا عنها مدحورين وكان الشعور بالخطر هو دافع المرأة إلى القتال والاستبسال. هذا الأمر مسلم به في القديم والحديث. تعارفه الناس في كل الأمم والأزمان، وساروا عليه حتى في هذا الزمن الذي تطرفت فيه المرأة مبالغة في دعوى المساواة ومالآها كثير من الدعاة استملاحا لوجودهن ومشاركتهن، ما تزال المرأة تقوم بدورها الطبيعي المناسب مما ليس شاقا ولا عنيفا، وإن تطلبت حكمة وإخلاصا وصبرا.

وفي مثل هذا المجال يقول شباب من قادة الثورة بلسان القائد المنك
مقالة الخبير: (٢)

١ - انظر فصل المرأة والدعوة. ٢ - قائد الجناح حسن إبراهيم في ١٩/١١/٩٥٢
يجيب مندوبة المصروع عن دور المرأة.

« اننا لانمنع المرأة من الكفاح ولكننا كجنود نجب أن يُحدد لها اختصاصها وميادينها ، فالفائدة لابد أن يحدد لكل جيش ميدانه ، ولكل سلاح اختصاصه ، ولا بد من أن ينظم قوات تموينه وإسعافه وقوات الصيانة الخاصة ولا يمكن أن ينتصر جيش إلا اذا كانت صفوفه المجهولة تعرف واجبتها تماما ، وتؤدي هذه الواجبات ، أما إذا تركت لتحمل السلاح مع الصفوف الأولى فلن يكون نصيب الجيش كله غير الهزيمة ، ولهذا وجب أن يؤدي كل سلاح منها صغر الواجب الملقى عليه سواء في خط النار ، أو بعيدا عن خط النار ، وعندما تعمل الأسلحة متحدة نحو هدف واحد ، فالنصر مكفول وفخر النصر للجميع ... ثم قال .. لقد حددنا أهداف الثورة ، وتطهير الوطن من كل غاصب . ثم خلق المواطن الصالح . ورفع مستوى المعيشة ، ولا شك أن على المرأة عبئا كبيرا في تحقيق هذا ، وهو خلق البيت الصالح لانشاء المواطن الصالح ، إنها هي التي تربي الطفل وتلقنه حب وطنه ، وترضعه الإباء والشمم والكرامة ، فهل هناك بعد هذا الكفاح كفاح ؟.

وتكلم على نجاح المرأة في ميادين أخرى اجتماعية ، ورغب أن يكون النساء جميعا مؤمنات بحق هذا الوطن وتبعاته ، غير راغبات في التباهي والظهور .

وبعد :

فلعل المرأة تقنع بهذا الدور الخطير في الحياة ، لعله يكفيها أن تكون صانعة الحياة فتوفر جهودها لكل ما يرقىها ويزكيها ويحفظها ، فذلك أجدى عليها من تبديد قواها بين عمل خارجي ، وواجب منزلي لن يغني أحد غناها فيه ، وإذا كان الله سبحانه لم يجعل « لرجل من قلوبين في جوفه » كما أنزل في كتابه ، فما أراه عزت قدرته آثر المرأة بذينك القلبين . (٢) - ٦٥٢١ - (١)

إن المرأة وقد خلقت من الرجل ، إنما تكمله في رسالته ، لا تراجمه في مهمته وأعبائه وهما بالاتحاد في الغاية والتوزيع في العمل سعيدان ، فاذا خاضا لجة الحياة متسابقين فقلبا يصلان .

عقدت جريدة المصري مسابقة النيل^(١)، ورصدت لها الجوائز المغربية واشترك فيها سباحون عالميون وزانت أكاليل النصر هامة شاب فرنسي، لم يكن باتفاق الجميع أقدر السباحين ، ولا أقوا م يداً ، ولا أرحبهم ذراعاً ، ولكن القدر حباه زوجة موالية ، نزلت القارب إلى جانبه في غسق الليل وزمهرير البرد ، تحوطه بحنانها ، وتنفخ فيه من روحها ، وتسقيه الشراب الدافئ بيدها ، وتشد من عزمه ، وتهديه أيسر السبل ، وكان ما يشبه الاجتماع على أن زوجته أكبر أسباب نصره ولقد وقفت عند هذا الحادث العارض وتأملت ملياً ، ثم تخيلت هذه الزوجة سابحة مع زوجها في الماء تصارع الأمواج وتكافح البرد ، ساعية إلى الهدف ، طامعة في مضاعفة الجائزة ، وزوجها يفكر فيها مرة وفي نفسه أخرى . وللقارئ الحكم آتئذ فيما إذا كانا سيقبضان كلاهما على غير الماء .

✕ إن رسالة المرأة في حقيقتها إثارة وإخلاص ونكران ذات ، وعمالها في اختصاصها يعدل ما يقوم به الرجل من جلائل الأعمال ، وجسام الأمور . تطلعت النساء على عهد النبي ﷺ إلى مزاحمة الرجال في بعض ما يخصهم ، فنزل قول الحكيم العليم : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليماً » ✕

وأوفدت النسوة أسماء^(١) بنت يزيد الانصارية . . إلى رسول الله ﷺ فجاءت وهو بين أصحابه فقالت : بأني أنت وأمي يا رسول الله ، أما وافدة

(١) ديسمبر ١٩٥٣ - (٢) ابن الاثير في أسد الغابة من ترجمتها .

النساء إليك : إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنوا بك وإياهلك
وإنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، ومقضى شهواتكم
وحاملات أولادكم ، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعبادة
المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله
عز وجل ، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا حفظنا لكم
أموالكم ، وغزلنا لكم أثوابكم ، ورينا لكم أولادكم ، أفأشاركم
في هذا الأجر والخير ؟ . فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله وقال :
هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن في مساءلها في أمر دينها من هذه ؟ . قالوا
يا رسول الله : ما ظنننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا . فالتفت النبي ﷺ إليها
فقال : أفهمي أيتها المرأة وأعلى من خلفك أن حسن تبعث المرأة لزوجها
وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ، فانصرفت المرأة وهي تهال.
رواه ابن الاثير في أسد الغابة من ترجمتها . وفي الاصابة لابن حجر : انها شهدت
اليرموك وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها وعاشت بعد ذلك دهرا .
ألا فتعلم الأم المثقفة أن أعظم رسالة تؤديها في الحياة هي هذه الحياة الناضرة
القوية السليمة ، المليئة بالتفاؤل والسعادة والاتزان ، من بنين وبنات منحهم حنانها هذه
الخصال وامدهم توجيهها بتلك الحلال ، ونشأتهم رعايتها أفضل التنشئة يملئون جوها بهجة
وغبطة ، ويحملون عبء الحياة مقدمين ، غير هيايين ولا وجلين ، وهي بحكم
الحياة شريكهم فيما يصلون إليه من عز وما ينالون من مجد وفخر ، وهي بحكم
الدين شريكهم في المثوبة والأجر ، لها مثل ثوابهم من غير أن ينقص شيء من
أجورهم ، يصل ذلك إليها في حياتها وبعد مماتها . وفي الحديث إذا مات ابن آدم
انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح
يدعوه والمرأة والرجل في الثواب سواء .

المرأة والحياة السياسية

تدور الآن رحي معركة شديدة حول المطالب السياسية للمرأة وهل هي حقوق لها ، ومن الخير أن تمارسها ، أو أن المرأة برسالها العليا في الأسرة التي هي الأمة مصغرة يجب أن تكون بمنأى عن السياسة وشرورها ؟ وقد بلغت هذه المعركة مرحلة تكاد تكون حاسمة بتقرير اللجنة الفرعية في لجنة الدستور لمطالب المرأة السياسية بأغلبية ثمانية اصوات الى ستة .

وكان من مظاهرها المشيرة أخيرا ذلك الاعتصام الذي قام به فريق من السيدات في نادى نقابة الصحفيين ، واعلانهم الاضراب عن الطعام حتى تجاب مطالبهن السياسية ، أو يمتن دونها وما صاحب ذلك من تشجيع كثير من الهيئات النسائية المصرية ، وبعض الهيئات أو الشخصيات الأجنبية النسوية كذلك بعض افراد وجماعات من المصريين .

وقد سبق ذلك رأى ديني عام أو شبه عام ضد المطالب السياسية ، توج بفتوى رسمية من لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، وأيد ذلك المفتى الرسمي ، وشيخ الأزهر ، وهيئات دينية كثيرة وبعض الجمعيات النسوية .

وقد كان من اليسير أن أعنى نفسى وأعنى القارئ من علاج موضوع كهذا كثر الكلام فيه ، مكتفين بما بذله أسياننا من جهد مشكور ، وما ابتغوا الله فيه من قصد كريم ، وما قدموه للأمة من نصح وتوجيه .

ولكن ولى على ما ارتأت لجنة الفتوى ملاحظات لم أر بدا من أن أدلى بدلوى المتواضع ، على النهج الذى التزمته في البحث من تحرى الحق لا آلوه

جهدا ، ولعل القارئ الذى سار معى الى هذا الحد رأى فيما سبق - وسيرى
بعون الله فيما سأتى - أن البحث لا يخالف أحدا رغبة فى خلاف ، ولا يوافق
إثارا للسلامة من الألسنة ، أو تخففا من عناء الدراسة ، إنما هدفه وغايته الحق
خالصا لله وللوطن ؛ والحق أحق أن يتبع .

وعندى أن المرأة المصرية التى تطلب ما نراه حقوقا سياسية ، إنما تريد ما يشبه
أن يكون رد اعتبار أدبى ؛ فلمرأة وقد بلغت ما بلغت من الثقافة والعلم ، وخاضت
لجّة الحياة العامة ، ونجحت فى ميادين كثيرة فوق ما قدّر لها ، لا يرضيها الآن
أن تكون الحياة النيابية وقفنا على الرجال سواء فى ذلك عالمهم وجاهلهم أغنيهم
وفقيرهم ، من دون النساء عامة ، وفيهن صفوة ممتازة ، ومنهن من تزايل الرجل
مدرسة فى الجامعة ، ومحامية فى المحكمة ، وصحفية فى الجريدة ، وناظرة فى
المدرسة ، ومفتشة فى الوزارة ، وطبيبة فى المستشفى ، وتاجرة فى المتجر الى غير
ذلك من الميادين العامة ، فكيف يُضنّ عليها باعطاء صوتها فى الانتخاب ، أو
قبول توجيهها فى السياسة بحجة أنها امرأة ؟ فهل لاتزال ناقصة العقل والدين (١)
مع كل هذا الذى تقوم به من أعمال ؟

ويلحق بما سبق أن المرأة فى كثير من البلاد الغربية والشرقية اعترفت لها
بالحقوق السياسية وفيها بلاد أقل مدنية وحضارة ورقيا من بلادنا - إلى أن
بعض البلاد التى أشركت المرأة فى سياستها بلاد إسلامية ، بنت دستورها المدنى
على القرآن ، فهى أكثر منا فى السياسة محافظة ، ولو منع الإسلام المرأة
من البرلمان لكانت تلك البلاد أولى بمنع نساها .

وتؤيد المرأة مطلبها وتزكيه بأن الواجب يقتضى من المرأة وهى نصف
الامة أو تزيد ، أن تشارك فى السياسة التى تؤسس بها ، والقوانين التى تسرى
عليها ، وبخاصة ما يتعلق بنظام الأسرة ، وعندها أن الرجل يحاى نفسه فى بعض
ما يضع من قوانين .

هذه خلاصة لفكرة من يرى منح المرأة مطالبتها السياسية .

ويقابله رأى القائل بأن للمرأة مهمة أصيلة وقفا عليها لا ينهض بها الرجال
فهى بانية الوطن حين تبني الأسرة ، ولا ينبغي أن تصرف عنها بيريق المظاهر
الخادعة من الشؤون السياسية ، إلى جانب أن السياسة معترك شديد ينوء به
كثير من كفايات الرجال ، ويحتف به حسبما يؤيده الواقع الملموس مالا
يليق بالمرأة الكريمة أن تتعرض له ، فمن الخير للدولة وللمرأة نفسها أن تنصرف
إلى ميدانها الطبيعي فتخصصه بجهودها وجهادها ، وإنه لجهاد وأى جهاد ، وكل
ميسر لما خلق له .

ويزاد فوق ذلك الفتوى بأن الدين الاسلامى يمنع المرأة من البرلمان .

وسنعرض أولا للفتوى بدرس ما هو من موضوعنا بسبيل :

استجابت لجنة الفتوى (١) مشكورة لتساؤل الكثيرين ، ورغبتهم فى بيان
شاف من علماء الدين ، بعد أن كثر القول والقليل .

وترى اللجنة كتمهيد للموضوع : أن اختلاف الأفكار من طبيعة
الاجتماع ، ولكن البحث يجب ألا يتجاوز دائرته الى النيل من مقام السلف
أو الغرض من اقدار العلماء ...

١ - نشرت كاملة بالاهرام فى ١١ من يونية سنة ١٩٥٢ .

وترى في الموضوع أن المسألة ذات شقين :

١ - أن تكون المرأة عضوا في البرلمان

٢ - أن تشترك في انتخاب من يكون عضوا فيه .

ثم تمضى تبين كلا منهما فترى في الأول أن الإسلام الذي أعطى المرأة حرية التصرف في شؤونها المتعلقة بها ، أعطاها كذلك حق الولاية الخاصة بالنسبة لغيرها كالولاية على الصغار ، والولاية على المال ، والنظارة على الأوقاف ، فهي تملك من ذلك ما يملك الرجل ، وأرشدتها الشريعة إلى ما يحفظ كرامتها ويصون شرفها ومكانتها .

أما الولاية العامة ومن أهمها عضوية البرلمان ، وهي ولاية سن القوانين والهيمنة على تنفيذها فقد قصرتها الشريعة على الرجال إذا توافرت فيهم شروط معينة ، وقد جرى العمل على هذا فلم يسند إلى المرأة شيء من هذه الولاية مستقلة أو مع غيرها من الرجال ، وكم من اجتماعات شوريه لم تشترك المرأة فيها ولم تدع إليها ، وبيعة الخليفة الأول تمت بدون اشتراك المرأة أو دعوتها كذلك . والدليل الشرعي : ما رواه البخاري وأحمد والترمذي والنسائي من قول

النبي ﷺ وقد وردت الأخبار بأن الفرس ملكوا عليهم امرأة ، لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ،

وبينته قائلة : والحديث نهى أ كيد عن تولية المرأة الشؤون العامة بأسلوب من شأنه أن يبعث القوم الحريصين على فلاحهم ، وانتظام شملهم على الامتثال هذا ما فهمه أصحاب الرسول ، وجميع أئمة السلف . . . فهم جميعا يستدلون بهذا الحديث على حرمة تولي المرأة الإمامة الكبرى والقضاء وقيادة الجيوش ، وما إليها من سائر الولايات العامة .

ثم مضت اللجنة في بيان رائع تشرح أسباب هذا الحكم من طبيعة المرأة،
وتفند ما يستدل به دعاة حق الانتخاب من حضور السيدة عائشة واقعة الجمل
وأنها قد اعترفت بخطئها . وإن مبايعة النبي للنساء بيعة خاصة بهن ، وعلى غير ما
بايع عليه الرجال من الجهاد والنصرة ، أما تولى شجرة الدر فليس في ذلك حجة
دينية ولا شبه حجة .

وحيث مُنعت المرأة البرلمان ، فما يؤدي إليه من حق التصويت ممنوع .
وهذا هو الشق الثاني للمسألة . ثم أكدت ذلك بما يصاحب عملية الانتخاب من
سلسلة اجتماعات واختلاطات تتعرض المرأة فيها لأنواع من الشر والأذى
ينبغي أن تكون بمنأى عنها حفظا لشرفها وكرامتها .
هذه خلاصة فتوى اللجنة في المسألة .

وجوه الموضوع :

- ١ — أن البرلمان ولاية عامة
 - ٢ — وأن المرأة ممنوعة منها بالحديث الصحيح المتفق عليه قولاً وعملاً ،
وكذلك ممنوعة مما يؤدي إليها .
- أما أن البرلمان ولاية عامة فظاهر من أن كل فرد فيه ينتخب عن دائرة من
الدوائر ، أو يكون في جملة المعينين بالاختيار ، ينوب في المسائل التي تعرض على
المجلس عن الأمة كلها ، لا عن نفسه شخصياً ، ولا عن أهل دأرته فحسب ،
وللبرلمان سلطة تشريعية فهو يسن القوانين ، ويهيمن في رأى اللجنة على تنفيذها .
ولكن أية ولاية عامة هذه ؟ هل هي من نوع ما ورد فيه الحديث الشريف
من الملك والإمامة الكبرى ؟ أو من قبيل ما قاسه العلماء السابقون عليه كالقضاء
على خلاف بينهم ، وقيادة الجيوش ؟

يقولون إنها ولاية سن القوانين والهيمنة على تنفيذها ، و سن القوانين والهيمنة عليها كلمة فخمة ضخمة ، فاية قوانين تلك التي يسنها البرلمان ، أو لجانه الفرعية ؟ أيسن قوانين يكمل بها الدين ؟ أم يقرر شيئاً يخالفه ؟ أم هو يضع ما يراه من نظم الحياة في دائرة من الإسلام ليس من حقه أن يتخطاها ؟

ونحن معشر المسلمين وفي مقدمتنا اللجنة الموقرة نعلم أن الله أكمل الدين منذ أنزل على نبيه في حجة الوداع ، اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ، فكان يوم عرفة عيداً لنا إلى يوم القيامة .

فليس من عمل البرلمان المسلم إذاً أن يسن قوانين يكمل بها الدين . أما إن سن ما يخالفه ، فهل نعترف به ، ونقر الرجال عليه ، وتجب طاعة الولاية فيه ؟ إن البسادة الإسلامية ترد ذلك وتأباه ، فرسول الإسلام يقول : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، والخليفة الأول يقول في خطبته الخالدة « أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » .

بقي أن يسن بعض النظم الجزئية التي يراها لصالح المجتمع في دائرة من الإسلام لا تعدوه . وهذا شيء لا بأس فيه .

على أن أجل مهام البرلمان تمثيل رغبات الأمة ، وإبداء الرأي فيما يعرض عليه من قوانين ، ومحاسبة الحكام على ما يعملون ، وإقرار تصرفاتهم ، أو اعتراض عليها إن لم تكن في صالح المحكومين .

ولم يقل أحد في الإسلام بأن المرأة ممنوعة من إبداء رأيها ، أو توجيه النصيحة للحاكمين ، أو الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر متى كانت عالمة بما تقول ، وفي الكتاب الكريم :

والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر ، ويقىمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك
سرىهم الله .

وقد راجعت امرأة النبي في ظهار زوجها منها ، وكان من قبل يعد طلاقا ،
وجادلت فيه ، واشتكت إلى الله ظلم زوجها ، فسمع الله شكواها ، وشاء الله
سبحانه أن تكون محاورتها فرجا من ضيق ، فنزل قوله تعالى : « قد سمع الله
قول التي تجادلك في زوجها ، وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما . . . الآيات ،
وكانت هذه المرأة تنصح أولياء الأمور . خرج عمرُ ومعه الناسُ فر
بمعجوز فاستوقفته (١) ووعظته ، فقال رجل يا أمير المؤمنين : حبست
الناس على هذه المعجوز فقال : ويلك تدري من هذه ، إنها خولة بنت ثعلبة
سمع الله شكواها من فوق سبع سموات . . . والله لو أنها وقفت إلى الليل
مافارقتها إلا للصلاة ثم أرجع .

وأنكرت أخرى على عمر ما أبداه من رغبة في تحديد المهور ، وخطب
الناس بذلك ، فقالت : ليس ذلك إليك يا عمر إن الله تعالى يقول : « وآتيم
أحداهن قطارا ، فرجع عن رأيه ، وأعلن صواب رأيها .
فراجعة المرأة الرجل في بعض ما يضع من نظم عامة وقوانين أيسر
من ذلك .

وعندى لو أن الرجل كان مسلما كامل الإسلام لنامت المرأة هاتئة
لا تشتكى ظلمها ولا هضمها .

وهذه المراجعة في القوانين ليست هي الولاية العامة التي مُنعت المرأة في

١ - روى من طارق كثيرة ، وهي موجزة في حسن الاسوة ص ١٣٧ .

الإسلام ، فليست من قبيل ولاية الخلافة ، أو الملك ، أو قيادة الجيوش ، أو ولاية إقليم مثلاً ، من كل ولاية عامة يكون للوالى رأى الأعلى فيها ، والكلمة النافذة ، وعلى الآخرين السمع والطاعة ، مما يُخاف معه من طبيعة المرأة وما فطرت عليه من حساسية غالبية ، وسرعة تأثر ، وشبوب عاطفة ، فولاية البرلمان وإن علت فوق سلطة الوزراء والحاكمين أحياناً - أو هكذا يجب أن يكون - ليست ولاية فرد ولا أفراد ، إنما هي ولاية الأمة ، وسلطة الجماعة تحاسب المسؤولين ، لا يملك الفرد فيها سلطة خاصة سوى الحجة والاقناع ، يتخذ الأعضاء من القرارات ما يستقر عليه الرأى بأغلبية أو باجماع ، والمسئولية ملقاة على المجموع ، والحديث فيما أرى بين الدلالة ، واضح المقصود خاص بغير ما نحن فيه ، ونصّه الذى معنا يقول : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ، وليس هـولن يفلح قوم أشركوا المرأة فى أمرهم أو انتفعوا برأيها - ويعين هـذا الفهم فى الحديث الرواية الأخرى التى أوردتها اللجنة فى سياق الفتوى عن أبى بكره وذكرها ابن حجر : لن يفلح قوم تملكتهم امرأة ،

فهذه هى الولاية التى حكم فيها رسول الله ﷺ بخسران هؤلاء الأقوام ، ولنا أن نقيس عليها ما قاسه بعض الأئمة من ولاية القضاء اجتهدا بتشعب الرأى فيه ، لانصاً يقف المسلم فيه عند حد لا يعدوه .

والحديث بهذه الصورة حديث من لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، ذلك أن القوم تتولاهم امرأة فتملك من أمرهم ما لا يملكون ، إن كانت خيرهم للأمر وأقدرهم عليه فبنس القوم هم ، إنهم أشباه رجال وليسوا برجال ، وحق لهم ألا يفلحوا .

وإن لم تكن المرأة خيرهم وأقدرهم فقد قدموا غير مقدّم ، وحق لهم ألا

يفلحوا ، وصدق الرسول الكريم .

أما مثل ملكة إنجلترا والاعتراض بها على الحديث فليس شيئا ذا غناء ،
ذلك أن الرجل في مكانها من الدولة لا يملك من أمره الخاص كثيرا ، فضلا
عن شئون المملكة .

إن ملك إنجلترا لا يستطيع تصريف شيء من أمر الدولة إلا ما يسمح له به ،
بل ليست له الحرية الشخصية في التنقل والتحرك والاتصال إلا بإذن رئيس
الحكومة ، وبياناته وأعماله بأمر الحكومة ، وهاك الملك السابق الذي لم يستطع
التزوج بمن ارتضاها لنفسه فتنازل عن العرش ليخرج من رتبة الحجر عليه
فالملك أو الملكة رمز استقرار ، والأمور كلها بيد الحكومة .

إلى هنا وأرانا اتيننا من النص الوحيد الذي استدلت به اللجنة على منع
المرأة من البرلمان وليس فيه دليل .

وكانى بالقارىء الآن يستوضحنى رأى الذى أراه فى دخول المرأة
البرلمان .

وهنا أورد ما أوردته اللجنة بين يدى بحثها ، مما يعلّسه كل دارس للإسلام ،
ويقرره كل منصف ولو كان من غير أهله حيث تقول اللجنة بحق :

« وهذه المصادر والأدلة (الكتاب والسنة وما يرجع اليهما) بما اشتملت
عليه من المبادئ العامة والقواعد السكّية لا تضعف عن النظر فيما يجد فى الحياة
من مشا كل ، ولا تأبى الأخذ بما فيه مصلحة ، إلا أن تكون مصلحة براءة تلوح
لبعض الأنظار من بعض النواحي ، على حين تلازمها مفسدة مثلها أو أعظم منها
فمثل هذه المصلحة تلغىها الشريعة ولا تأبه لها ،

فلننظر إذا على هذا النحو لئرى هل يكون اشتراك المرأة فى البرلمان خيرا
للدولة وللرأة . ؟

من المعقول أن يكون دخول المرأة البرلمان حافزا لها - إثباتا لجدارتها ،
وتبريرا لموقفها - أن تتقدم بالمقترحات الهامة في محيط الأسرة وغيرها لإصلاح
بعض النظم المنحرفة أو الخاطئة ، وهذا حسن .

ولكننا على ثقة من أن هذا الخطأ الواقع في بعض النظم ، وما يصيب الأمة
من جراه ، ما جاء إلا لأنه منقول عن الغرب تقليدا ومسايرة بغير تمحيص دقيق
لما يفيد المجتمع الشرق وما لا يفيد ، أو لتقصيرنا في الاطلاع على الفقه الإسلامى
وتفهم روح التشريع ، وسنظل حتما في أخطاء متلاحقة ، نصلح جانبيا يفساد
آخر مهما عمل الرجال والنساء ، ما دمنا بعيدين عن روح الإسلام وهدهداه ولو
طبقتنا الإسلام بروحه السمحة المشرقة لما كانت هناك شكوى ، ولما اضطرت
المرأة إلى تحمل الأعباء الثقيل ، لتدفع عن نفسها غلواء الرجال .

ثم طريقة دخولها البرلمان ، أي يكون بالانتخاب أم بالتعيين ؟

وفى الانتخاب يُجمع المؤيدون والمعارضون على أن عملية الانتخاب بصورتها
المعروفة وفى أيامنا هذه مما ينبغى أن تصان المرأة منه حفظا لشرفها وكرامتها ،
ولذلك أثر الداعون لذلك أن يكون تمثيلها فى البرلمان على طريقة التعيين ، وإن
كان ذلك فلا أظن أننا نتجاوز فيه ما هو عند الغربيين - وتقول زعيمة
المعتصمات فى ذلك :

إنى لا أريد أن تمثلنا فى البرلمان سوى ست أو سبع سيدات على الأكثر ،
فان نسبة السيدات فى جميع البرلمانات الأخرى الممثلة فيها المرأة لا تزيد عن
٢٪ أو ٣٪ وهكذا يكنى :

فإذا كان يكنى الزعيمه ست أو سبع فى مئات الاعضاء من المجلسين فهل هذا
العدد أو ضعفه سيكمل الحياة النيابية ، وينهض بما عسى أن يقصر فيه الرجال ؟
وهل هذا العدد لو رأى رأيا فى صالحه يستطيع فرضه على الآخرين ؟

إننا لم نحتاج على المرأة بما جعلت عليه من حساسية قوية ، وتأثر شديد ، وما ينالها من العوارض الطبيعية الخاصة بها ، بل وما يوحى به خلقها ، وينطق به تكريمها الجسماني ، من استعدادها الفطري لميدان غير ميدان الرجال ، لم نحتاج بكل هذا ، لأنه كما يتأتى بالنسبة للبرلمان يتأتى بالنسبة لكل عمل هام تتولاه المرأة في الحياة العامة .

إننا لانرحب باشتراك المرأة في البرلمان ، لأن البرلمان ولاية عامة وليست هي أهلا لها ، ولكن لأنه لانفع يرجى من اشتراكها في البرلمان ، والضرر في ذلك غير مأمون .

إن التاريخ أعدل حاكم ، وأصدق شاهد في الموضوع ، أنه يحدث عن مجد اليونان والرومان والفرس والعرب ، ويذكر أن المعول الوحيد الذي هدم المدنات العريقة ، وأتى على بنيانها من القواعد ، فخرت شواخها كشيئا أهيل ، هو الترف الذي انغمست هذه الشعوب فيه ، وذروته خروج المرأة إلى الحياة العامة ، وتدخّلها في شؤون الدولة وسياستها ، وما يصحب ذلك من تحلل وإباحية وانكاس .

جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر على ما أورده المرحوم فريدوجدي في دائرة معارفه ما يأتي (١) :

كان النساء عند الرومانيين محبات للعمل مثل محبة الرجال ، وكن يشتغلن في بيوتهن ، أما الأزواج والآباء فكانوا يقتحمون غمرات الحروب . . . في ذلك الحين ، حين احتجاب النساء برع الرومانيون في كل شيء ، نحتوا التماثيل ، واستبدوا بصولجان الملك والعظمة دون سواهم من الأمم ، ولكن دعاهم بعد

ذلك دواعى اللهو والترف إلى اخراج النساء من خدورهن ، ليحضرن معهم
بجالس الانس والطرب ، فخرجن كخروج الفؤاد من بين الأضالع ، فتمكن
ذلك العنصر المهاجم (الرجل) لمحض حظ نفسه من إتلاف أخلاقهن ، وتدنيس
طهارتهن ، وهتك حياتهن ، حتى صرن يحضرن التيارات ، ويغنين فى المنتديات
وساد سلطانهن حتى صار لهن الصوت الأول فى تعيين رجال السياسة وخلعهم
فلم تلبث دولة الرومان على هذه الحالة حتى جاءها الخراب من حيث تدرى ولا
تدرى ، حتى إن القارىء للتاريخ ليدش حينما يرى ذلك الصرح الرومانى
الباذخ قد هدمته المرأة حجرا بعد حجر بيديها الرقيقتين ، لاسوء نية منها ، ولا
لأنها مفطورة على الشر ، بل لافتتان الرجال بها ، وتناظرهم عليها ، هذه حقيقة
سياسية ، لا مجال للجدال فيها .

كذلك أودى بالفرس اشتراك المرأة فى سياسة الدولة ووصولها إلى عرش
المملكة ، والعرب من بعدهم دال عزمهم وذهب ريمهم بتدخل المرأة سافرة أو مقنعة
فى الشؤون السياسية للأمة - وإذا كان الكلام عن الرومان والفرس والعرب يُعد
كلما عن القديم لدى أبناء القرن العشرين ؛ فهذا هو عصرنا الحالى ، وناريخنا الحاضر ،
وتجاربنا الخاصة كفيلة بأن تسفر عن وجه المسألة بما لا يدع مجالا لمرتاب فى
أنّ سنة الله لن تتغير فى أمة أو جيل .

بدأت مصر عهدا الحديث فى عدد لا يجاوز الملايين الثلاثة من المواطنين
تابعة لسلطان تركيا سياسيا ، كما هى تابعة له روحيا ، فلما انتفضت غاضبة على
تركيا وولائها العاشمين لم يكفها تحرير نفسها من سلطانها ، بل سارت جيوشها
مظفرة فى شمال سوريا حتى قلب الأناضول . ولولا تألب الدول الأوربية خشية
قيام الأمبراطورية المصرية لجلت مصر لواء الخلافة آثد على انقاض تركيا ،
كذلك ارتفع لواؤها من قبل فوق الأراضى العربية ، وعبرت البحر إلى ربوع

اليونان ، تنجد في الحالتين دولة السلطان . ولو رزق ذلك الرجل الذى قادها حينذاك حظا وافرا من العدل فلم يُشكل بمن أعانوه وناصروه ، وأخلصوا له يوم البسوه خلعة الولاية على البلاد من علماء مصر وزعمائها ورجالاتها لكان لها الآن شأن وأى شأن .

وسل نفسك أين كانت المرأة المصرية في النهضة الكبرى زمن محمد علي ليأتيك الجواب شافيا بقرارها في كسبها ، تؤدى دورها أكمل الأداء .

بل أين كانت قبل محمد علي يوم أبليت أروع البلاء وأقواه ، يوم ساهمت مع الرجل في إدارة ربحي القتال ودافعت الغزاة الفرنسيين في كل بلد وعن كل شبر من أرض الوطن ، في اسكندرية بأعلى الأسوار ، وفي داخل المدينة مصوبة الرصاص من نافذة بيتها إلى صدر نابليون ، ولولا القدر يساعفه لحظ التاريخ مصرعه بيد مصرية من السكندريات ، وفي دمنهور ، وفي العاصمة ، وفي المنصورة وسواها من المدن والقرى ، بحيث لم ينل المحتل من مقاومة الأهالي وثورانهم - على تحجبه اليهم وإعلانه الدخول في الإسلام ترضية لهم - راحة ترد عليه أنفاسه اللاهثة إلى أن جلا عنها يائسا حسيرا .

لقد كانت المرأة في بيتها تعكف على ماتحسن من شئونها المنزلية ، تاركة للرجل أعباءه الخارجية ، حتى إذا روع الوطن بالدخيل وقفت من خلف أبيها وأخيها ، وزوجها وولدها ، تشد أزرقهم وتسند ظهورهم ، وتروى ظمأهم ، وتأسو جراحهم وربما احتملتها الحمية فتلقت الرصاص بصدرها من دون صدورهم . يقول الكاتب فيروس (١) : يصف دفاع الأهالي عن بعض القرى وصدهم الفرقة المغيرة حتى استمجدوا بالقيادة العامة : وجاءنا المدد . . وقتلنا من الأعداء [الأهالي] من ٤٠٠ - ٥٠٠ بينهم عدد من النساء كن يهاجن جنودنا بكل بسالة وإقدام .

وتجاوز أول العصر الحديث إلى ألصق أيامه بنا وأقربها إلينا، إلى القرن العشرين، وهذه مصر بحمد الله تضاعف عديدها، وعظمت مواردها، ورقت من سلم العلم والمدنية درجات ودرجات، وهذا زعيم الأمة في حفل تكريمه بعد عودته من منفاه، يتقدم إلى أقرب امرأة فيمزيق النقاب عن وجهها، وتلهب الأكف النواغم والحشنة بالتصفيق المتواصل تحيي الزعيم لإعلانه عيد الحرية بالنسبة للنساء، واقرن مع هذه الصورة صورة الجهاد الوطني التي شركتها في الزمن سائرة معها متجاورتين متجاوبتين، لتزى صورة من النهيخ السياسي في شكل أحزاب وهيئات رجالية، وأخرى نسائية تستمر في كفاحها للمستعمرين نيفا وثلاثين عاما من ذلك التاريخ لم تنل منالا، ولم تحصل على طائل بل لقد انحدرت البلاد في أخلاقها إلى مهوى سحق من الانحلال جاوز مداه حتى لم تعد تشكو وجود المحتل فحسب بل ضربوا لانحصى من المشا كل الخلقية والاجتماعية والاقتصادية، وصار من المؤلف مطالعة القوانين بعد القوانين لمنع معا كسة السيدات في الطرقات !!! بل تقدم الأمر خطوة اذ تقدم كبير من رجال الأمن، محافظ سابق لدمياط، إلى وزارة العدل باقتراح يطالب فيه بضرورة سن تشريع يكفل حماية الرجال والشباب من النساء اللائي يقفن في الطرقات والميادين للإغراء والتجريض على الفجور (١) ... وأيامنا القريية وما داخلها من فساد في الأخلاق والسياسة مريع أطاح بالملك السابق، ونحسى مشاييعه من الأحزاب، لم تغب بعد عن الأذهان ... وحفلات شويكار، والمواساة، ومأساة فلسطين، وأسلحتها الفاسدة، وتدخل سيدات القادة والوزراء، بما كشفت عنه تحقيقات الجيش، ومحكمة الثورة كل ذلك

قريب ومعروف ، ولا حاجة إلى الاطالة فيه ولولا رحمة الرحمن بكنائمه أدركتها بالثورة المباركة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لارتكست البلاد في هوة سحيقة لا يعلم مداها إلا أعلام الغيوب .

فأين هذا من حمية الالهين وحفاظهم وسلامة اخلاقهم سلامة أتاح لهم أن يدافعوا الفرنسيين أروع دفاع ، حتى استلوا من الغزاة اعجابهم فأشادوا بشجاعتهم ، كما سجلوا بلسان مؤرخيهم وعلمائهم ما كان المصريون عليه من أمانة وصدق . جاء في فصل عقده المسيو جومار أحد مهندسي الحملة الفرنسية عن تخطيط القاهرة أثبتته الحملة في المجلد التاسع عشر من كتاب وصف مصر ، أن مما استلفت نظره كثرة الوكائل التجارية في بولاق ، ووفرة الغلال التي كانت تكس على ساحل النيل بلا حراسة ، وبغير أن توضع في مخازن . قال مسيو جومار : إن الثقة بين الناس في مصر كانت على أنهم ما يكون بحيث لم يكن ثمة خوف من أن تمتد يده إلى تلك الغلال ، وهذا يدل على أن الصدق والأمانة كانا من فضائل الخلق المصري ، هكذا يشهد للمصريين شاهد عيان من الفرنسيين المحتلين تسجل شهادته في أعظم أثر على تفتخر به تلك الحملة أو يفتخر به الفرنسيون من بعدها حتى اليوم (١) .

فتلك أخلاق مصر وهي تنو بعين كلية إلى الإسلام في عصر نعه من أوهن العصور وأقربها إلى الظلمات ، لزمت المرأة فيه بيتها إلا الحاجة ظاهرة أو ضرورة قاهرة .

وهذه آلام مصر وهي تنظر بعينين شاخصتين محمقتين إلى الغرب ومدنية الغرب وتجري في ركابه تقليد ألهرجه ، لا تعرفا لحقيقة أمره ، أو انتفاعا بصواب

١ - حقائق - المقال الافتتاحي في مجلة الأزهر عدد ٦ المجلد ٢٥ لرئيس التحرير

الاستاذ محب الدين الخطيب .

ماوصل إليه ، واعتبارا بخطأ ماوقع فيه ، حتى لُيْنَعَى على دعاة الفضيلة والأخلاق الكلام على الأذرع العارية لأنهم بذلك يشغلون الأمة عن أهدافها . ١١١

ولئن عزا الباحثون مانشكوه إلى امتداد موجة التحلل والاباحية التي أعقبت الحربين الأخيرتين فأهوت بالمعاول الشداد على المثل العليا في العقائد والأخلاق والآداب ، وأفزعت المفكرين وذوى الرأى من رجالات الغرب ، فذلك نفسه يوجب علينا ألا تندفع في التقليد ونسرف في المحاكاة - ولن يكون من ضرورة الرقى أن نساير مظاهر الغرب شبرا بشبرا ، وذراعا بذراع ، كما لن يكون إعفاء المرأة من اعباء الانتخاب والسياسة ازراء بها وتحقيرا لها ، فهى بنت الناخب وأخته وأمه ، وهى ملكة البيت وربته ، وليس منع الجيش من التصويت والتدخل في السياسات عند معظم الدول المتحضرة تحقيرا له واستهانة به ، وهو حامى حمى الوطن ، وسياج عزه ومنعته .

والحياة الراقية تعتمد التخصص في الأعمال ، كما تعتمد في العلوم والفنون ، ليتسنى الانقائان في مرافق الدولة كلها ، ومن جميعها يقوم البناء شديد الكيان ، قوى الأركان .

وقبل أن نختم هذا الفصل نسجل هنا على دعاة حق الانتخاب والسياسة للسيدات ، اسرافهم في الدعوى ومبالغتهم في تصويرها ، فقد دأبوا على تكرير القول بأن منع المرأة من البرلمان عبودية ورق يجلبان العار والشنار على بلدنا العزيز ، وخير للمرأة اذا لم تظفر بحريتها الكاملة أن ترحل من بلد تقيم على الضيم فيه ، ولقد بلغ من اسرافهم أن عدا اتحاد النساء مساواة المرأة بالرجل أقل ماينبغي لها من كرامة واعتبار ، كفاء ماتقزم به من مهام وابعاء .

فقد أرسل الحزب الاتحادى النسائى الى رئيس الجمهورية السابق يطلب المساواة بالرجال (على الأقل) واحترام توقيع مصر على ميثاق حقوق الإنسان وجاء فى برقيته مانصه : « وما دامت المرأة المصرية عليها التزامات الرجل ومسؤولياته فلا أقل من مساواتها به ، وبذلك يكون الدستور الجديد أقر الأمر الواقع ، وهو تحميل المرأة نصيبها فى بناء مصر » (١) تضاحك صاحبى وهو يسمع ذلك الذى نقرأ ، وسأل سائل : إن كانت المساواة على الأقل فإذا على الأكثر ؟ وأجاب بحجب . وقد يكون ذلك الاسراف تطرفا وتكلفا ، أو تفكها وتظرفا ، وقد يكون دليلا على حذقهن الأساليب السياسية إذ يطلبن أكثر مما يرتجبن توصلا إلى ما يرتجبن ، وعلى أى حال من أحواله فكان خليفا أن نمر به متجاوزين ، غير أن بعض من نجل ونكبر من قادة الرأى فى الأمة وذوى الحصافة المعروفة والمواقف الوطنية المشهودة ردد نفس هذه الأقوال فسمعنا رجلا كالدكتور على ماهر رئيس لجنة الدستور يقول فى بيان إلى المعتصمات بعد أن طمانهن إلى نيل مطالبهن بالطريق الدستورى « كما يهمننا لسمعة مصر فى العالم أن تظفر المرأة المصرية بالمساواة السياسية مع الرجل ، فكان لزاما أن نقف قليلا إزاء هذا القيل لنقول بدورنا لكل من تهمة سمعة مصر مخلصا إن هذه السمعة والكرامة ليست فى المساواة السياسية ، وليست فى مجرد المجارة والتقليد إنها فى أجل من ذلك وأخطر ، وإليهم جميعا — تطميننا لهم — أهدى بعض الحقائق التى سجلها مؤتمر عالمى ، لامن الرجال ولكن من صفوة النساء القانونيات ، وشهدته مصر لأول مرة وتناقلت أنباءه صحف العالم ، وأشرت إليه فى كلمة قصيرة بعثت بها إلى صحفنا

الكبرى (١) التي ضمنت بنشرها وهامى ذى بنصها :

(المصرية أكثر نساء العالم تمتعا بالحقوق)

لعل هذا العنوان غريب في موضوعه وبخاصة في هذه الأيام التي يثور فيها فريق من النساء ثورة الحياة أو الموت على ما هن فيه من استعباد وظلم دفعهن إلى الاعتصام بنقابة الصحفيين للظفر بحقوقهن السياسية ، مؤثرات الموت على العبودية . ولكن هذا العنوان على غرابته ليس من وضعى بل هو عنوان سجلته الأهرام في سبتمبر من العام الماضى حينما روت أبناء المؤتمر الذى عقدته القوانين العالميات في مدينة تورنتو بإيطاليا ومثلت مصر فيه لأول مرة .

وبحثت المؤتمرات موضوعا طريفا في بابها ذلك ماسمى بحقوق الأم الأنسة أى التى أنجبت ولم تزوج ؛ وترتيب حقوق لها ولولدها قيل أى رجل يتصل بها وقد وفقت مندوبة مصر على ما روته الأهرام توفيقا كبيرا .

ومن الحق بيان أن هذا العنوان الذى أذكره للأهرام ليس من وضعها لتلفت نظرا أوثير اهتماما بل هو قرار المؤتمر نفسه حيث قالت الأهرام بعد نقل أخبار المؤتمر وما دار فيه : « ثم أخذت الاصوات لمحرفة الدولة التى تتمتع المرأة فيها بأ كبر قسط من الحرية ، وأ كبر قسط من الحقوق ، فانفق المؤتمر على أن مصر هى أول دولة في هذا الصدد ،

ويهمنا أن ننظر على ضوء هذه القرارات التى اعترفت بها القوانين العالميات للمرأة المصرية ونسائل أنفسنا من أين جاءت الحرية الكاملة التى سبقت بها نساء العالم أجمع ؟ . ألتفوق مصر على العالم في معارفها وعلومها ، وفي صناعاتها واختراعاتها ومدنيتها ؟ . أم هو لشيء آخر ؟ .

١ - بعثت بها الى الأهرام والجمهورية والمصرى أثناء الاعتصام .

إن بداهة النظر تقضى بأن تفوق المرأة المصرية في حقوقها إنما هو أثر من آثار دينها ، ذلك الذى سجل منذ قرابة أربعة عشر قرنا من الزمان هذا المبدأ الكريم الخالد فقال في كتابه « وطن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، فكان ذلك المبدأ خالدا بحكم الفطرة السليمة فى خلق الله لأن النساء شقائق الرجال . وإذا كان للرجال عليهن درجة ، فذلك هو الواقع للملبوس من عالم الأحياء . وهى درجة تزيد فى أعبائهم ، وتضاعف من واجباتهم ، وتقفهم موقف المسؤولين عن أنفسهم وعن حولهم .

وهى درجة تصلح بها الحياة ، ويعتدل بها الميزان ، وتنوحد الوجهة ، ويستقيم عليها الأمر .

فهل لأولئك العزيزات المعتصات أن يطلبن ماشئنا من حقوق ، على أن يكون ذلك فى موضعه المعلوم من أنها مطالب الرفاهة ، والأبهة السياسية التى لا يروقها البيت وأعبأؤه ، ولا يشبع منها نوازع الترف ؟ (١)

١ - من طرائف أنباء الاعتصام النسوى مارواه الاستاذ فكري أباطه عند زيارته لهن اذ يقول : وعندما دخلنا غرفة المعتصمات فى صباح اليوم التالى ، كانت المضربات فى ثيابهن المنزلية ، بينما ظهرت زعيمتهن فى أكل زينتها ، قللنا لها : إن الاضراب عن الطعام يعنى الحرمان من احدى ضروريات الحياة ، ومادام الأمر كذلك فلم لا تقلعن عن الكماليات ؟ - أية كماليات ؟ - المساحيق ، (كالبودرة والروج ، واحمر الشفايف) - وابتسمت الدكتور ديرة وقالت : - لا .. إلا هذه ، ومن ناحيتى فسوف احرص على أن أبدا فى كامل زينتى حتى لا تقوى يدائى على عمل «التواليت» لا تنسوا أننا نساء قبل كل شئ . . . المصور فى ١٨/٣/١٩٥٤ .

ونحن من جانبنا لانفى أنهن نساء . وانهن فى حاجة الى الزينة . وأن للزينة أنا غير هذا الآن ، ومكما غير هذا المكان - ثم لو ظفرت الدكتور بالبرلمان فهل ستحرص على أن تبدو فى كامل زينتها ؟ - ولم لا ؟ ومن أسلحة المرأة جمالها ؛ لمد ذهبت مظهرة الى مجلس العموم فى بريطانيا ، واستعانت بائنتين من ملكات الجمال .

ذلك أن المرأة لم تكن يوماً - ولن تكون - مستعبدة في بلد دينه الاسلام والسلام .

ذاك ماقلته آنذاك ، وضمت صحفنا الماجدة بنشره على كرمها الحائمي في نشر الكثير عن هذا الموضوع .

والآن فنحمد الله على هذا الدين الذي مازال الى القرن العشرين سباقا لكل مظهر على وجه الأرض من مدينت ، وسيظل حتما على سبقه إلى الحق والخير والمدينة الصحيحة الكاملة ، مادام هو تنزيل العليم الخبير ، ولو كره الكافرون ، وأنكر الجاهلون .

أما أولئك المتباكون على سمعة مصر ان لم تترك المرأة المركب الحشن ، وتسلك الطريق الوعر الذي أدت أشوسوا كه وأحجاره من سلكنه قبلها ، فلعلهم بعد أن يقرأ عينا ، ويطمئئنا بالا ، ولعلمهم يعلمون بأن مصر بتعاليم دينها - لو شئت - أعز جانباً ، وأثبت ركناً . والمرأة بنعمة اسلامها أكثر حقاً وأرفع شأنًا .

ولو شاءوا أن يكونوا قادة ورؤسا . لاسافة وذنبا . فليتموا نعمة الله عليهم باقامة اركان دينهم بتمامها . ويطبقوا تعاليمه السامية بنصها وروحها . اذا لحقت هذه الأمة زعامة الأرض وخلافتها . وعادت خير أمة اخرجت للناس . وممكن لهم دينهم الذي ارتضاه خالقهم . كما وعد سبحانه المؤمنين الصادقين إذ يقول : «وعد الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكننهم دينهم الذي ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، وبعد : فاذا كنا لانرحب بدخول المرأة البرلمان فلأنه كما قلنا لاخير يرجي منه ، والضرر فيه غير مأمون ، وليست هي الدعوى بغير دليل . وليست هي الدعوى يقوم عليها دليل يعارضه آخر أو يلاحيه . بل هي الأدلة القاطعة من القديم والحديث . يطبق عليها الواقع . ويشهد بها التاريخ . وتطردها عليها سنن الاجتماع .

المسرة والشواطى

الهدوء الراحة والاستجمام من عناء العمل ، وكفاح العيش ، وجهاد الحياة حقّ أوّلّى للعامل المجدّ ، وأمر طبيعي تملّيه القواعد الصحية ، والضرورات الحيوية ، والنظم الاقتصادية ، ويدعو إليه الدين ويأمر به ، وفي الحديث الشريف « إن لبذلك عليك حقا . » وبالترويح عن النفس تثوب إلى العامل قوته ، وتشحذ عزيمته ، ويتجدد نشاطه ويقبل على عمله راضيا باسما .

وقد حبا الله مصر شواطى فسيحة تمتد من غزة في فلسطين إلى الاسكندرية ومرسى مطروح ، كذلك شواطى البحر الأحمر ، والنيل وقناة السويس ، حيث يتسنى للبصريين جميعا — لو شاءوا ، وشاءت حكوماتهم — أن يتمتعوا صيفا بجو البحر النقى ، وينعموا بنسيمه الصافى الجميل . وفى ذلك ما فيه من صلاح للأجسام والعقول ، وصفاء للنفوس والقلوب — وفى وسع الأطباء أن يحدّثونا بالشىء الكثير عن أثر الشواطى فى الصحة الجسمية والنفسية ، وعمّا يحمل هواء البحر من « اليود » وما يحدد من الدورة الدموية . . .

والمصايف معروفة فى القديم والحديث . والشرق والغرب ، وكان عظام العرب يصطافون فى الأما كن المعتدلة صيفا ، تحاشيا لوقدة المهجير ، ولفحة الحر ومن أشهر الأما كن عندهم مدينة الطائف ، وما تزال إلى اليوم مصيفا يؤمه سادة العرب وأعيانهم (١) كذلك بعض جهات نجد ، وإقليمها أصح بلاد العرب وأطيبها هواء ولذا تغنى به الشعراء قديما ، فقال قائلهم :

قفا ودّعا نجدا ومن حل بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن ثودّعا
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا

(١) محاضرات التاريخ العربى للاستاذ محمد سليمان بدير بكلية أصول الدين

ألا يا جبذا نفحات نجد
ورياطيها بين القفار
والآن وقد أصبح موسم الصيف عندنا في مصر جزءا من حياة الألوف
المؤلفة من عامة الشعب ، فلنلق نظرة سريعة على أهم هذه الشواطىء التى يؤمها
المصطافون حيث يقضون الأسابيع والشهور على الشاطئ الجميل — تعال معى
إلى هؤلاء الذين هرعوا إلى البحر ، يتخففون من عناء العمل ، ومشاق الحياة
وجهاد العيش ، ويستريحون بطيب الهواء ، وروعة الماء ، وجمال السماء ،
ويستردون صحة النفس ، وقوة الجسم ، وراحة الأعصاب ، لعلمهم قد سعدوا فى
فراغهم بالنافع المفيد من الرياضة البدنية ، والمطالعات الأدبية ، والثقافات
العقلية ، وتعاهدهم ذوو الرأى من الأمة بالشييق اللطيف من التهذيب والتثقيف
والتوجيه السليم ، والإرشاد الحكيم ، وتنبيه القلوب ، وملئها بجلال علام الغيوب
من وحي ذلك المشهد الرائع ، بين اليابسة والماء ، وعلى بساط الأرض وفى ظلة
السماء ، فظهرت الأفئدة ، وصفت النفوس ، وفاضت من القلوب مشاعر الخير ،
حتى إذا عادت من المصيف إلى مكانها من الواجبات والأعباء ، عادت إلى الأمة
رسل هداية ورحمة ، بما ابتعثه جو صالح ، وجمتمع خير ، ونظر سليم فى ملكوت
السموات وبديع الآيات .

ولكن ما ذا نرى ؟ أهؤلاء هم المصيفون ؟ وهؤلاء قومنا أم هم قوم
آخرون ؟ ما بالهم متجردين ؟ ما لهذه الأجسام ، وقد من الله عليها بالتكريم
وخلقها فى أحسن تقويم ، وكساها بأنعمه ، وزانها بزينتة ، ترد محتارة إلى أسفل
سافلين ، فتزع عنها أستارها ، وتبدى للناس عارها ، ما بال هذه الفئة من
الناس ؟ أشاقهم حياة الغاب ؟ أم أثقلتهم رقائق الثياب ؟ أم فدحتهم تقاليد
الأخلاق والآداب ؟ أم غرر بهم من الإنس شياطين ، ديوحي بعضهم

إلى بعض زخرف القول غرورا ،

ثم ما بال هذا المحافظ بينهم ؛ ذلك الرجل الكاسى ، ومعه امرأته الكاسية ومن بين يديها ومن خلفها ، وعن يمينها وشمالها الشباب الناضج المكمّل من الرجال ، قد لبس ملابس البحر ، وأخذ حظه من الماء ، وسبح ماشاء ، وصارع الأمواج ، ثم خرج إلى الظلة فاستلقى أو جلس يسامر صاحبه ، ترى هل هى فى شغل عنه بزوجها ؟ أو لعلها اعتادت هذه المناظر وألفتها ، فلم تعد تثير انتباهها ، أو تشغل بالها ، أو تحرك شيئا من غرائزها .

وهذا الرجل نفسه ومعه امرأته الكاسية ، وذلك سرب من الأطباء الرشيقات عاريات أو شبه عاريات ، ينزلن إلى الماء يسبحن ويمرحن فيه . لعله كذلك فى شغل عن السابحات — ولسن الفاتنات — غنى بزوجته ، أو هو اعتاد ذلك المنظر فلم يعد يحرك منه ساكنا .

أما الشباب الأعزب الثائر من فتيان وفتيات ، وشباب وشابات ، فإنه ينفس عن نفسه بمنظر تلك اللحوم الغريضة المختلفة الأحجام والأوزان ، والأشكال والألوان ، وسوف يآلف بدوره تلك المشاهد ، فلا تعود تأسره أو تسحره (١) هكذا يقول بعض الكتّاب ، يهونون العرى به على المتعربين .

فما أحوالنا إذا أن نروض الغرائز الجامحة بمثل هذا العلاج لو صح ما يزعمون ولو صح لبطل كل شوق من زوج لزوجته ، ومن زوجة لزوجها ، إذ هما معا متلازمان وجها لوجه فى الصباح وفى المساء ، وقد ألف كل صاحبه وخبره وعرف خافيه وظاهره ، فخبث لذلك رغبته ، وخمدت غريزته ، وسكن جاشه ولو صح ما كانت حياة ، ولا كان إنسان .

(١) انظر الفصل الآتى المرأة والأقلام المسمومة .

يقول قائلهم : إنما تثير هذه المناظر أولئك الذين ألفوا التشدد والمغالاة في الحجاب ، لأنهم لم يألّفوا ذلك ولم يتعودوه ، فغرازهم مكبوتة تحاول متنفسا لتسرع إليه ، أما ذلك الذي اعتاد أن يحيا حياة حرة طليقة فليست هذه المظاهر بالشئ الجديد عليه ، وليست تثير منه ما تثير من صاحبه ، بل ليست خطورة التكشف بأشد من خطورة التصون المتسكف ، والتحفّظ المتزمت ، وأحب شيء إلى النفس ما منعها ، - ثم إذا شب الصغير على هذه الحياة ، لم يجد فيها أمرا غريبا حينما يبلغ مبلغ الرجال .

فهل من الحق أن لاف هذه المناظر ، وذلك الاختلاط العارى يجعله أمرا عاديا لا يؤبه له ولا يلتفت إليه ؟ وهل نشأة الصغير عليه تجعله كعادة المشى لا يفكر فيه ، ولا يلحظ كيف يخطو ، أو كعادة الكلام ، أو كضغ الطعام ، من كل شيء لا يثير التفاتا ، ولا يبعث انتباها ؟

ولو كان العرى عندهم لدواعى الصحة والرياضة ، والتمتع بشمس البحر وهوائه الجميل ، فهل يخلع الرجل منهم ملابسه لو كان وحده على شاطئ الماء ؟ وهل تعرى المرأة من أستارها لو عرا المكان من الرواد ؟ وهل يتكشف أحدهما لو كان في شمس بيته قريبا من البحر ؟

أو هي اللذة الجاسحة ، والشهوة العارمة ، أضراهما التحلل والتبجح والاختلاط ، وهون الأمر فيه وفلسفه أقلام آئمة ، وآراء مسمومة ، وصمت عبي في سياط القانون .

يقولون : إن تكرار لذة حسية بعينها يضعف أثرها ، ويفضى في الغالب إلى فقد الرغبة فيها - فهل كانوا على شيء من الصواب أو أن العادة - وهي

كما قيل طبيعة ثانية — إنما تنشأ بالتكرار والمرانة والاعتیاد ؟
إن علماء النفس : قد كفونا الجدل الكثير حول هذه الأمور . فقد قرروا
المشاهد المحسوس من أن اعتیاد عمل من الأعمال يصيره عادة لا تستطيع النفس
عنه انفكاكا بغير عزم شديد .

وقالوا : (١) إن كل عملية نفسية من حس وتذكر وتخیل وتفكير
وانفعال ورغبة ونزوع إلى عمل معين تاركة في النفس أثرا باقيا معروفا عندهم
بالميل النفساني . وتكرار عملية نفسية يزيد أثرها عمقا . ويحدث في المرء ميلا
إلى سلوك مسلك خاص يقتضيه هذا الأثر الذي تركته هذه العملية . وكلما
ازداد تكرارها ازداد الميل تمكنا ورسوخا . ولذلك أثره الواضح في تكوين
عادات المرء وسلوكه وأخلاقه في النهاية .

وقرروا : أن أساس العادة في الإنسان مرونة الأعصاب (٢) . ولقد بلغ
من أمر التكرار . وما يخلف من آثار ، أنه لا يؤثر على الكائن الحي فحسب . بل
يفعل فعله في الجماد : فكل يعلم أن الملابس الجديدة تتخذ شكل الجسم وتنطبق
عليه بعد أن تلبس مرات . . . وأن القفل يسهل فتحه وإغلاقه بعد أن يعمل
المفتاح فيه عدة مرات . . . وأن الورقة إذا ثنيت مرة ثم طبقت اتخذت شكلا
خاصا يسهل معه تطبيقها في المرة الثانية من غير ضغط عليها . وأن صوت القيثارة
ليحسن في يد الموسيقى القدير لأن ألياف مافيها من الخشب تتخذ نظاما خاصا في
تذبذبها . يصبح عادة فيها ملائما لها . . . وأن الماء بجريه المتتابع يحفر له مجرى
يتسع ويزداد عمقا فإذا غاض ذلك الماء مرة ثم عاد إلى جريه سار في مجراه

١ - من كتاب أصول علم النفس للاستاذ مرسى قنديل ج ١ ص ٣٨ .

٢ - المصدر السابق ص ١٣٥ وما بعدها .

القديم الذى احتفده لنفسه أول مرة (١) ، ومن هذا ما يحدث فى الجسم الحى ونسيج الجهاز العصبى أسرع قبولاً للتأثر والتشكل من سواه ، كما أن المرونة فى الطفولة والشباب أكثر منها فى الرجولة والكهولة — وكما تكون العادات فى الخلق وفى الوجدان ، تكون فى سلوك الإنسان وأفعاله اليومية الظاهرة ، وهذا يزيد فى قيمة العادات الطيبة ونفعها ، ويجعل السوء منها كبير الضرر شديده ، فالعادة كما ترى خير صديق ، وألد عدو (٢) — فما يغالط فيه المغالطون من ضعف تنبه الأعصاب للعتاد ، إنما هى سهولة التأثير ، وسرعة القبول ، حتى يصير ما اعتاده راسخاً فيه ، يسهل إتيانه والسير بمقتضاه ، بل يشق الانفكاك منه والتخل عنه . وما الإدمان إلا أمر اعتاده صاحبه ومرن عليه ، حتى أفقده اختياره أو كاد . ومن شب على شيء شاب عليه ، — وشتان بين عمل آلى قلباً التفتت النفس إليه ، وبين آخر ينبه الغرائز ويثيرها . . . وذلك ما جعل « ماك دو جل » يقول بضرورة وجود مدرك يدركه الإنسان ليستثير الغريزة (٣) .

هذه حقائق عليية نفسية ، معروفة ومحسوسة ، تدمغ زيف المبطلين ، نسبناها إلى أصحابها من علماء الغرب الذين اعتاد هؤلاء أن يتمسحوا بهم ، وينقلوا عنهم ، ويتلقفوا آراءهم مكبرين .

فها يقنع أولئك بالإثم يقعون فيه فلا يحاولوا استدراج مواطنهم إليه !! أم تراهم يدارون ضلال أنفسهم بإضلال الآخرين !! أم تراهم يمارسون بالثرهات ليكسوا عارى الفجور زقائن باطل الأهواء ، وزيف الآراء ، كي يواروا سوء ما يفعلون !!

(١) اقتباس من وليم جيمس نقله صاحب المصدر السابق ص ٢٢٦ وأشار إليه كتاب علم النفس والأخلاق تأليف ج ١٠ هادفيلد - ترجمه الاستاذ أبو العزم (٢) المصدر السابق باختصار: (٣) ص ١٦٤ من المصدر السابق

أم يحاولون التغير بالضمائر إن أحسست لحظة بالهون والخطر الجسيم ؟
ألا فليتق الله أولئك الأقوام في وطنهم وفي المواطنين ، ولا يجمعوا إلى أوزارهم
أوزار الآخرين ، فليتقوا الله الذي يميز الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث
بعضه على بعض فيركمه جميعا ، فيجعله في جهنم ، أولئك هم الخاسرون ،

أما أولئك المتعرون والمتعريات على الشواطئ الأولى يعرضون أجسامهم
عرض الرقيق . فلن يصيب إقناعهم قضايا العلم وآداب الدين ، نقذف بها أقفيتهم
وبين أكتافهم ، فما حاجتهم إلى شيء من ذلك بمثل حاجتهم إلى سياط تشقق منهم
الجلود بما سفكوه من إنسانية ، وارتكسوا فيه من شهوانية ، وانخطوا إليه من
إباحية ، وبما أبادوا في نفوسهم من بقايا الضمير ، ونوازع الكرامة ،
وآثار الحياء

وأى ضمير وأى كرامة لمن يتباهى بالجمه وتباهى بشحمها أمام الناظرين
والناظرات !!

إننا لا نخطب هؤلاء ولا نحسبهم من أهل الخطاب ، إنما نخطب أقواما يكرمون
أنفسهم ، ويرتفعون بها عن منازل السوام ، إنما نخطب فتيانا وفتيات ، كراما
وكريمات ، نشد من عزهم ، ونهد بنور الحق سبيل العزة أمامهم ، ونندرا عن
طريقهم آثام الخاطئين ، وأخطاء الضالين ، فلا يبهون بهم أويالون ، ولا
يعجبون بهم أو يغترون ، وبآدابهم ودينهم يستمسكون ، قل لا يستوى الخبيث
والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث . فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ،

الإباحية بعيدة عن كل دين وإنسانية

ما أبعد هؤلاء المتكشفين والمتكشفات عن منهج الإسلام والمسلمين ،
فما ألفنا المسلمين عراة متجردين ؛ لقد جاء الإسلام وبين البشرية وعمود الغياب

ألوف السنين ، وفي القرآن الكريم « يأبىها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » وفيه « وايضربن بخمرهن على جيوبهن » وفيه « وقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم... وقل للؤمنات يغضضن من أبصارهن »

وما أبعد المتكشفين والمتكشفات عن المسيحية . وإنها لتعد كشف الرأس من المرأة غير لائق ؛ ولو كانت بين يدي الله (١)

وما أبعدهم عن اليهودية ، وإنها لتأمر بالستر والاحتشام ؛ حتى في أبعد المواطن عن الشبهات ؛ في أما كن العبادة وتقديم القرابين (٢)

بل ما أبعدهم عن الأدمية الكريمة التي فضلها الله على كثير من خلق ؛ وجعل إليها خلافة الأرض .

إن الطائر يزينه الريش السابغ الجميل ، وإن من الحيوان ما يكسوه الشعر الغزير ، فهل رضى المتجردون لأنفسهم دون مارضيته الطبيعة للحيوان ؟

لئن كنا نتحدث عن الأسرة وصلاحتها ببعض الجد فماذا بقي لها بعد فوضى الشواطىء وعرى البلاج ؟

كيف يستقيم رجل رضى لنفسه وآله التجرد من الخلق والدين حينما تجردوا من الثياب ؟

وكيف تؤمن هذه الفتيات والنسوة على بيوتهن وأعراضهن وقد رأين الأجسام حفا مشتركا ، وحقا مشاعا للناظرين ؟

(١) رسالة القديس بولس ص ٣٠٠ العهد الجديد من الكتاب المقدس

(٢) ف ٢٨ من سفر الخروج ص ١٣٩

وكيف يُبتغى منهن احتشام ، ويطلب تصون ، ويرجى من الواحدة منهن أن تكرن حليلة زوج ترعاه ، وتصون عرضه ، وتحفظ غيبه ، وكيف بأولياء هؤلاء ، فقدوا الغيرة ، ففقدوا الرجولة ، ففقدهم الوطن ، بل كانوا له داء من ألد الأدواء — إن الذي لا يغار على أهله وعرضه لن يغار على أمته ووطنه ، وكيف يرجى لغيره من لا رجاء فيه لنفسه ؟

الإباحية وجدت قديما :

وليعلم من لم يكن يعلم أن هذه الإباحية الفاحشة ، والبهيمية المسالطة ، ليست من خصائص المدنية الحديثة ، ولا وقفا عليها . لأنها حالات من الأمراض الوبائى تلم ببعض النفوس ، فصيب منها السويداء ، ولا تلبث إذا مهدت لها السبل فى غفلة من الصالحين أن يتطاير شررها ، ويشتعل أوارها ، ويتفاهم خطرها ، فلا يقف عند موقفيها ، بل يأتى على الجميع فيذروهم ذرو الهشيم ، ما لم يقم لها صالحون مصلحون يحاصرون وباءها ، ويكافحون لها ، ويتعقبون دعايتها ، وبصرعون إثمها وفجورها ، ليكفوا الناس شرها ، ويدفعوا عنهم سوءها وداءها .

لقد وجدت الإباحية فى الدولة الرومانية فهوى تاج عزها ، وانفصمت عرى أوصالها ، وخرت على أذقانها .

وقامت دعايتها فى اليونان حينما تددت مدينتها ، وأسفت فلاسفتها ، وعرف من بينهم من بنى مذهبه على اللذة ، وسمى أتباعه من بعده قطيع « أبيقور » ، وراجت فى الفرس واستكثرت من أنصارها ، واستمال « مزدك » ، الشيعى بدعوته الإباحية فى الأموال والفروج ملكة المعاصر ، فثار به الناس وخلعوه وفتسكوا به ، وجاء خلفه فقضى على « مزدك » ، وأتباعه .

إنها دعوة تستغل من الإنسان الجانب الحيواني الذي جعله الله داعية النسل
وسبب الحياة، وصانه بضوابط وحدود تقيه التبخر والضياع، فتحاول إزالة
الحواجز والضوابط والحدود، حتى يسفح الماء ويغيض، وتتحل روابط الأسرة
والمجتمع، ويصير أشبه بالسوائم المتناحرة، على شفا الهاوية من حفرة الفناء.
ضرورة الصدق في الإصلاح.

ألا فليتدارك المصلحون وذوو الغيرة والنخوة هذه الحال، ويكبحوا ما
تطير من شرر الإباحية، ودب من عقاربها وسرى من سموها إلى المجتمعات
والبيوت، وتسلسل إلى الدور والحدور، وسكن بعض القلوب والصدور، قبل
أن يعجز الداء، ويعز الدواء، ثم لا يرجى الشفاء.

إن افدح الفواحش أن يرى المنكر فلا ينكر، وأن يكتفى الصالحون بهز
الرؤوس، وإظهار اليأس من الإصلاح، أو تهاجم القشور، وتترك الأصول
والجذور.

إن بعض المصلحين يتحدثون عن وجوب منع الصور الخليعة في الصحف
والمجلات، وقد تركوا — ولعلهم ملئوا — الحقائق الخليعة في الشواطئ
والبلاجات، فهل رأيت داء يكافح من جسم المريض على القرطاس، أو
ميكروبا، يقتله عدم تصويره للناس، أو عدوا مهاجما يُترك شخصه ثم
يطعن في ظلاله، أو يُنال منه في مثاله وخياله ؟ !!!

ألا فليصدق المصلحون حملة الإصلاح، وليكن رائدهم إن أرادوا فلاحا
كتاب الله وهده، أو يريحوا ويستريحوا، فالعلاج الأبر داء فوق داء.
لابد للمسلمين من رأى ديني عام، وذوق إسلامي سام، ويقظة روحية
نيرة، وصيانة لهذا المجتمع من الدمار، وضرب على أيدي العابثين المتحللين.

إن حكومة الثورة التي أخذت على عاتقها إرساء قواعد المجد لهذه الأمة ، وأزالت من الحياة العامة كثيرا من رواسب الماضي وأوزاره ، وقضت على الإقطاع ، فأصلحت الجانب المادى ، والناحية الاقتصادية بالتشريع الحكيم ، والعمل الحازم السريع ، جدرة بإتباع هذه الخطوات الجادة ، بمجولة في عالم الأدب والأخلاق ، بمسكة بدرّة عمر ، وسيف المعز .

الاباحية شيوعية : إن حكومتنا الرشيدة تناهض الشيوعية مناهضة العدو اللدود ، بيد أنها تقر الشواطىء على ماهى عليه ، وترخص فيها على أنها من الحريات الشخصية التي تترك لأصحابها ، وليست بذور الشيوعية ، وجراثيمها الحقيقية إلا هذه الشواطىء الداعرة ، وأمثالها من الاختلاط الفاجر المشين . لم يدع للشيوعية الفقير ولم يروج لها السكادح ، إنما يروج لها عنده صاحب الليالى الحمراء ، ويغري بها المتحلل المستييح الذى يستوحى أنظمة روسيا وذهبها وأموالها ، ويسفك الأعراض على مذبح الشهوات .

إن هذه الآفات التي تعشش وتفرخ على دفء الرمال ، ونسيم البحر ، ثم تنتشر تبرجا في الشوارع ، وتكشفا في كل مجال ، لن يقف تيارها بوليس الآداب في الشوارع والطرق ، يتصيدون العابثين والعابثات ، مادام هناك أصل الداء ، ومصدر البلاء .

خرجت ظهر شم النسيم (١) إلى المتنزه العام بطانطا لأكمل الصورة عن هذه المجتمعات . ولم أبارح منزلى في يوم شم النسيم منذ كنت طالبا ناشئا - فخفف عني أن لم أرفيه ما كنت أعرفه من خروج وابتذال شديد ، فسألت صاحبي

فقال : إن الأوامر الحازمة أعطيت لرجال الآداب ، فأخرجوا من بين المجموع من رأوا فيه بعض الخروج ، وأنذروا من لعب الورق ، أودق الطبول .
لقد ثارت حكومتنا واحتجت على ما استاءت له الأوساط في السودان من أخذ صور الخمس وثلاثين فتاة سودانية ومعهن المدرسات والناظرة بمعرفة بعض المصورين من الإنجليز ، وعدوه سبة وإهانة أن تخلع الفتاة السودانية المعطف والخمار ، لتقف أمام المصورين (١) .

وهؤلاء هم عشرات الألوف من المصريين والمصريات يخلعون دينهم وأجسامهم أياما وشهورا . فهل تركهم سمو ما نافذة في كيان الوطن تفخر بالنكر ، وتوحى بالعُهر ، وتدفع إلى الفسوق ؟ إن الاخلاق تسرق من الاخلاق ، وإن أسرعها لصوقا ما صادف الأهواء وأشبع الغرائز والنزعات . وإن طريق الانحدار أيسر موطنا وأخفض مركبا من طريق التسامي والصعود ، فهل ندع هؤلاء المواطنين ينزلون ويجذبون معهم الآخرين ؟ إن مثلهم هو هذا المثل الخالد في آيات الله وسننه الخالدة : من ركاب سفينة واحدة في خضم الحياة يستبد جماعة منهم ببعض جوانبها ، فيقولون نغرق من هنا خرقا نغترف منه الماء ، فأن تركوهم وشأنهم غرقوا وغرق الآخرون ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجا الراكبون .

لئن دفعت الأخطار المحقة بأخلاق الأمة بعض المخلصين إلى قارس اللفظ وقاسى القول . فما كانت الألفاظ والأقوال مؤتية ثمارها ما لم تصب موقع الاقتناع ، وقلبا يقتنع المنحرف الذي تعمد الانحراف وارتضاه وأسأغه ، واستنام اليه وتلذذ به ودافع عنه ، ولن يُقنع مثله سوى الملهبات من سياط

١ - الأهرام في ١٨ / ٩ / ١٩٥٣ وقبله بأسبوعين .

القانون . ودرّات الحاكمين ، وإن دية واحدة كدرة عمر أفعل في بعض النفوس من عشرات المواعظ والخطب .

ذهبت الى شاطئ البحر لأرى بنفسى ماسمعه بأذنى وقرأته بعينى . وركبت السيارة وسألنى القائم بالتذاكر وجهى فقلت إلى سيدى بشر فقال : المسجد ؟ فقلت أو كل شيخ هنا لا يكون إلا للمسجد ؟ إني أقصد الشاطئ . لأرى ما فيه وتحدث إلى الرجل . واحتنى بى ونزل معى وتحدثت إلى بعض الموظفين هناك وتحدثوا إلى . ورأيت فى عيونهم . ومن مظاهر حفاوتهم . وعنوان ضجرهم بالحال وما فيه ، ما قرأت منه أنهم يستنجدون بالأزهر ورسالته . ويطلبون إليه الغوث والنجدة .

أعطانى أحدهم وهو شاب ناشئ . تذكرة لبعض جهات الشاطئ . وقال بقروش وفيها من الإثم الألوف ، قلت وماذا جاء بك وأنت على ما هنا ساخط ؟ قال : أوامر الرؤساء وطاعة المرءوسين .

وعلمت أن المسجد الأنيق الرشيق يخطب خطيبه وواعظه فينصح المصطفين قلت مسكين ذلك الرجل ، يتعب وينصب ويرى بعينى رأسه الهزم من حوله ، والسخرية بقوله ، والزراية على ما هو فيه . ولو قد أعطى سوطا ومن حوله بعض جلاديه ، فأذاق من هان جسده على نفسه بعض الهوان لكان أبلغ قاتل وأخطب خطيب .

إن على أولئك المسرفين فى نقد الأزهر ، المبالغين فى اتهامه بالتقصير ، المحاسبين له على ما انزلت الاخلاق فيه ، وهبطت النفوس والقلوب اليه ، أن يعلموا تمام العلم أن الدين لم يجعل قصاراه قولاً يقال ، ولفظاً يتلى ، وآية تقرأ ، إنما جعل القوة تسند الحق وتخدمه ، والسوط يصون الأدب ويحميه ، والحدود تردع المعتدين وترد الباغين .

إن الحديد تذيب النار قسوته ولو صببت عليه البحر مالانا
وإذا لم يكن في يد الأزهر سيف يفرض به الآداب ، فسيغه الحكومة
الرشيدة العادلة ، تحمي حمى الدين والخلق المتين ، فعلى الأزهر البلاغ ، وعلى
الحكومة التنفيذ .

وعلى أولئك الذين يطيب لهم إلقاء التبعة على الآخرين أن يعلموا أنهم كمسلمين
مسئولون عن ذلك كما يسأل عنه كل أزهرى وكل مسلم ، إن الله لم يجعل الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر خاصا بفئة ولا وقفا على أحد ، وإنما فرضه عليهم
أجمعين ، فقهال سبحانه يحم كل مؤمن ومؤمنة :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض بأمرهم بالمعروف وينهون
عن المنكر .. »

وكل واحد قادر في اختصاصه ، ومن ذا الذي يزعم انه عاجز عن أمر
نفسه ونهيا ، وأى رجل يعجز في بيته وأبنائه ؟ « كلكم راع وكلكم مسئول
عن رعيته »

فاذا أمر كل واحد نفسه ومن يليه ، ودرج على الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر ، يبصر غيره بالصواب كما يبصر نفسه ، استقام أمر الجماعة واعتدل
حالتها ، وكان لنا رأى ديني عام يرد الخارجين ، ويردع المتبردين .

لو كان لنا في كل مسلم قلب حتى يغير ما يراه غير سليم ، لما جرؤ المسرفون
وتبجحوا ، ورأوه ظرفا ومندية ؛ ولما انزلق إلى المنكر كثيرون ممن يرون
الناس عنه ساكتين .

إن الاسلام فرض الرأى العام الديني وجعله واجبا على الجميع ؛ فقال ﷺ :
« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يقدر فبلسانه ، فان لم يقدر فبقلبه
وذلك أضعف الإيمان ، بل قد وسم بميسم الخسروج من زمرة المسلمين من

لا يعنى بأمرهم ، ولا ينصب فى سبيلهم فقال ﷺ : « من أصبح لايهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، وأندر المتهاونين بمثل عقاب الظالمين : » إذا رأى الناس الظالم ولم يأخذوا على يديه أو شك أن يعصمهم الله بالعذاب ،

رجاء :

وأخيرا فإن الحكومة الرشيدة التى تعنى بأمر الإسلام والمسلمين ، وتسعى جاهدة لضم شملهم واعلاء كلمتهم ، وتنولى زعامة الدعوة للمؤتمر الاسلامى ، والتى تطارد الاستعمار ، وما خلف من آثار ، لجسدية بأن تطارد عوامل الهدم فى الشواطىء ، وتقضى على إباحيتها وفوضاها ، وتحظر العرى والتكشيف وتراقبها كشأنها فى مراقبة الآداب فى الشوارع والطرقات ، وأن تجعل للسيدات أوقاتا ، وللرجال أوقاتا .

كذلك تملأ هذا الفراغ الواسع بأنواع شتى من الثقافات التى تعود بالخير الكبير . على المصطافين ، ولن يقل بذلك المصيفون ، بل سيكونون أضعافا إلى أضعاف .



المرأة والأقلام المسمومة

ليست المرأة وحدها هي التي تضار بآثار الأقلام المسمومة ، ولو كان ضرر تلك الأقلام واقعا على المرأة وحدها لكان ضررا بالامة بالغا ، يصيب سويدها ويظعن فؤادها ؛ فالمرأة من الامة مكان القلب من الجسد ، يمنحه الحياة والبقاء ، ويمده بأسباب القوة والنماء ، فاذا وهن القلب أو اضطرب ، فما أسرع ما يشيع الوهن في الجسد كله ، يزلزل بنيانه ، ويهد منه كيانه .

إن الأقلام التي تتملق نوازع الشباب والفتيان بدعوى الحرية في التفكير والتعبير ، فتثير منهم الغرائز الحيوانية ، والشهوات البهيمية ، وتلك التي تعرض الفجور والنكر ، تزخر فيه ، وتلح فيه ، وتدفع إليه وتغري به ، وهذه الصحف والمجلات التي تسود صفحاتها بالقصص الهزيل ، والأدب المكشوف ، والصور الخليعة التي تدور كلها حول الجنس ، ولا تهدف لغير استمالة فريق من القارئ ، وتنفت الزئاع في الأوصال ، فيذرو بقايا الآداب والأخلاق في القلوب والنفوس ذروا الهشيم — هذه وتلك أقلام آثمة ، وصحف جائرة ينبغي أن تكافح بما تكافح به وسائل الشر في المجتمع .

فاذا كانت الكتابات لأقلام معروفة ، وصحف مقروءة في مصر والشرق العربي ، كان الأثر آنكى ، والسهم أشد .

لانتكر على الكاتب أن يطرف قراءه بما رأى وشاهد من صور لا عهد لهم بها ، ولا أن يحدث عن حياة أوروبا وأمريكا وما راعه منها ، وينقل اليهم صورة من حياة القوم ويبتهم وأخلاقهم ولا عليه أن يشيد بما يراه من جد ونشاط وعلم وعمران .

ولكن الذى نذكره ونلح فى إنكاره أن يخرج به الإعجاب إلى حد الإطراء لمبازلتهم ومفاسدكم ، وانطلاقهم فى شهواتهم فيخرج قبحهم فى إطار من الألوان البراقة ، والنقوش الزاهية ، جاعلا من هذه الحياة الماجنة طهارة و قدسا ، بل ولا يستحي أن يزرى بما عليه قومه الشرقيون من استتجها مبالذ الغريين ، فيخضع قارئه مرتين ، ويكون قوله أشبه بالمخدر الذى يذهل متعاطيه عما يحمل من أفك الجرائم ، ثم هو يبشأ أينما سارت كتاباته فى الشمال وفى الجنوب ، وحيثما طار بها البريد جيئة وذهوبا فى عرض هذا الشرق وطوله .

يقول كاتب معروف فى القبلات على قارعة الطريق :

والأدب فى باريس لا يسمح بإزعاج العشاق ، وظل الفتى يقبل الفتاة وهى بين يديه كالغصن المطلول ، وكأننا لسنا هنا ، وكأنهم ليسوا هناك .

— لا تحسب يادكتور أن هذا فسق ، فقد يكون هذا العناق مقدمة زواج .

— اطمئن فأنا أعتقد أن هذا الغزل المكشوف أسلم وأشرف من تلك

السرائر المظلمة والقلوب السود التى تطوى عليها جوانح الغدرة الفجرة ممن يدعون الفضيلة ، (١)

وهذا كاتب لامع يفلسف للقبلة ، ويشرح لزوجه التى كانت معه فى زيارة

باريس أن هذه القبلة ليست إلا تعبيرا عن إحساس جميل ، وعاطفة نبيلة ؛ ولا

اعتبار للجنس بين المتحابين (٢) وأن الثورة الفرنسية جعلت ما بين الرجل

والمرأة فى العواطف ما بين رجلين أو امرأتين ، وأن الحرية افترضت (هكذا)

البراءة فى الناس . .

(١) بقلم المرحوم زكى مبارك من كتاب باريس الذى جمعه الأستاذ أحمد

الصاوى محمد (٢) لاندري أيجب زوجته فلا اعتبار للجنس بينهما . أم هو يبغضها

ليعتبره ؛

ذلك شاب وفتاة يتحدثان في الطريق ، فلها أن أن يفترقا قبلته وقبلها ؛
 واتخذ كل مسيله ، وذكرت لها أن ذلك من متعارف أخلاق الأوربيين ، فهو لا
 يجرح حياة أحد ، وهو كذلك لأنه قبله أخوية للقواء أو وداع يعبر اللذان
 يتبادلانها عن إحساس جميل ، وعاطفة نبيلة . . . ثم يذكر أن الثورة جعلت
 بين الرجل والمرأة من المساواة والإخاء ما جعلهما يتبادلان العواطف والمنافع
 كما يتبادلها رجلان ، أو كما يتبادلها امرأتان ، وأنها قضت في القلوب والأذهان
 على الاعتبار الجنسي الوضع الذي يجعله أكثر المصريين وأهل الشرق في
 المسكان الأول من قدر صلات الجنسين . . . وما دامت الحرية الحققة تفترض
 في الناس الطهر والبراءة ، فليكن النظر العام للقبليات كلها على أنها قبليات
 إنسانية ، كقبيلة الأخ لأخته ، والآب لبنته ؛ والخطيب لخطيبته (١)
 ثم تخطو هذه الأقلام المقروءة المسموعة في مصر والشرق خطوة أو خطوات
 فتقرر أنها ما أحست الطهارة العليا الكاملة إلا بالحرية المطلقة في إتيان أي رذيلة
 بدون خشية قيد أو تحریم وهذا هو السبيل الذي زهد الفيلسوف في الرذيلة ،
 وجعله يمقت المادة ، ويهيم في عالم الأرواح . انظر إليه يجعل من هذا الضلال
 فلسفة ، ومن ذلك الفسق طهارة بانيا من الإباحية الخليعة بملكة الروح .

أقسم لك يا جان (ساقى الأقداح) أني في حياتي ما أحسست الطهارة العليا
 الكاملة إلا في هذا الحى الخليع . أتصدق هذا ؟ وهل تعرف السبب ؟

السبب بسيط : الحرية ، تلك الحرية المطلقة في إتيان أي رذيلة بدون خشية
 قيد أو تحریم ، هذه الإباحة للرذيلة زهدتني في الرذيلة نفسها إن الإنسان بطبعه
 يطلب الممنوع عنه ، المحرم عليه ، ويزهد في المباح . إن المالك شهر يار الذي

١٠ بقلم الدكتور محمد حسين هيكل صاحب في منزل الوحي وحياة محمد
 ورئيس حزب كبير سابقا المصدر السابق ص ٣٩٣

استمتع طول حياته بالنساء واللذة الجسدية ، كاد يقتله الملل فصار يقتل كل امرأة بعد ليلة ، حتى جاءته شهر زاد . فكشفت له عن اللذة الروحية ، فاذا هو ينقلب لإنسانا يعشق كل ماهو روح ، ويمقت كل ماهو مادة . وإذا هو يصيح كلما عرضت له المادة « شبت من الأجساد ، شبت من الأجساد ، هذه الصيحة انطلقت من فمي يوما . . . كما انطلقت من فم كل فنان في مونمارتر . أريت كيف أن مونمارتر في حقيقتها مملكة الروح لا مملكة المادة (١)

ولئن كان هذا الكاتب الكبير أحسن الطهارة العليا من حرية الاتيان بأى رذيلة ، وصعد إلى عالم الروح على سلم دَرَجِه صيحات : « شبت من الأجساد شبت من الأجساد » فهذا كاتب آخر أكبر منه في معناه — لقد أحسن الطهارة في نفسه بعد خمس دقائق فقط مُصْدِم في أولها بمشاهدة الراقصات العاريات إلا من أوراق التوت ، فأكسبته هذه الدقائق الجنس آدابا وأخلاقا حسنا . لم تصنعها له حياته الماضية كلها . بل جعلت منه قديسا يرى في استعراض العرى والجمال قطعة من روائع الفن العالية ثم هو يعرض ثمرات رحلته المظفرة علاجا لمشكلة الشباب . اقتداء بالدول الغربية التي أباحت الدعارة سرا وعلنا . والآخرى التي أباحتها بشكل محتشم غامض : فيرى أن نجعل المرأة في شكل محتشم بين يدي الشباب ليزهد فيها .

كتب هذا الدكتور إلى صاحب ما قل ودل :
« أخى الأستاذ الصاوى تحياتي الخالصة من مويسرا . أكتب لك الآن من جنيف ، وقد اطلعت على جرائد ومجلات الوطن العزيز وراعى منها شدة اهتمامها بمعاكسة الفتيات . وكيف السبيل الى معالجة هذا الداء الويل . . . ثم

١٠ . بقلم الأستاذ توفيق الحكيم من المصدر السابق ص ١٠٥

قرأت كيف يعصر المفكرون قرائهم لإيجاد حل سليم للخلاص من هذه الورطة الأخلاقية . . . ثم تذكرت كيف ذهبت بالأمس إلى مسرح في جنيف اسمه «الباتا كلان» لآرتاده إلا أرقى الطبقات . وكيف بدت الرقصات عرايا تماما إلا من ورقة توت صغيرة . وكيف صُدمنا نحن المصريين في بداية الاستعراض ثم لم نلبث أن اعتدنا العري والجمال بعد الخمس دقائق الأولى ، وأصبحنا ننظر إلى الاستعراض كقطعة من روائع الفن العالي .

وتذكرت باريس ، وكيف أيعت الدعارة فيها سراوعلنا ، وإيطاليا وكيف نظمت الدعارة فيها بشكل محتشم غامض ، وانجلترا العجوز ، وكيف أباحت الحرية الشخصية في حدود القبلات والمقابلات في حدائقها العامة ، وقلت لنفسي هل حالت الصراحة الجنسية دون تقدم هذه الأمم ؟ لماذا لا تراجع أنفسنا وقوانيننا في حدود التطور العالمي الخلق ؟ فلشباب ثورته ولا مفر من مهادته بطرق محتشمة حتى يزهد في المرأة عند ما يراها في متناول يده . . (١)

وبعد :

فهذا الجمال في الإحساس ، والنبل في العواطف ، والتعالى عن اعتبار الجنس وعدّ المرأة والرجل كأنهما رجلان أو امرأتان ، والطهارة المجلوبة من شبع الاجساد ، والحرية الكاملة في اتيان كل رذيلة ، وملكه الروح ، ثم تنظيم الدعارة بشكل محتشم غامض ، وزهد الشباب الثائر في المرأة الجميلة وهى بين يديه ، كل هذه عناصر العقار العجيب ، لشفاء الأخلاق والآداب ، وإقامة الأمم على منهج الصواب .

أيتها الحكومات في مصر والخارج ، إن كتابنا الأعلام ، يقدمون إليكم

(١) الاهرام ٢٢ من يونيه سنة ١٩٥٤ من رسالة الدكتور مصطفى الديوانى ،

من نتاج القرائح والأفهام ، ماسوف يغنيكم عن البوليس والشرطة ، وحفظة
الامن ، وأما كن السجون ، ودور القضاء ، وما سيوفر عليكم ماتنفقون في
هذا كله من (ملايين ، وألوف الملايين)

لماذا تسنون القوانين ، وتحدون الحدود ، وتقرضون النظام ، وتشغلون
أنفسكم بالضرب على أيدي العابثين ، فزيدوهم ضراوة وإقداما ، وحبا في الممنوع
وتكالبا على المحرم ؟

كيف يفوتكم أن في الحرية المطلقة ، والفوضى الكاملة ، ما يرد الناس إلى
الاعتدال ۱۱۱

ألم يأتكم نبأ (الباتا كلان) ؟ بل كيف غاب عنكم ما يقدمه لكم
من علاج سليم ۱۱۱

أليست حرية الحصول على امرأة جميلة مزهّدة في الجمال ؟ أليست حرية
السلب والنهب منفرة من احتياز الأموال ؟ أليست حرية السرقة واللصوصية
مبعدة عن السرقات ؟

هلاّ أبجتم هذا وغيره لتحصلوا في رأي كتابنا على الانسان «السوبرمان» .
إن الآكلين زهدوا الطعام الشهى من طول ما هو مباح ، والشاربين عافوا
الشرب لأنه كذلك مباح ، ولعلمهم بقرب أن يزهدوا الهواء والشمس والنور
لأنها مطلقة عن التقييد .

أى ضلال انحدرت إليه أقلام هو أفدح من هذا الضلال ، وأى سموم
تنشر باسم حرية الرأي هي أفنك من هذه السموم ؟

إن القانون الذي يُقيد للفرد بمن أُلّف جسمه بكأس من الشراب المسموم
لجدير بأن يقيد للجاعة من دسّاسي السموم للعقول والقلوب والأرواح .

ماذا نراقب من عوامل الشراء ، ومعاول الهدم ، ووسائل الإجرام ؛ إن لم نراقب هذه الاباحية المتبجحة المستهتره التي تعلن عن فسوقها ، وتدعو إليه وتروج له .

إن الحياة العقلية للناس مزاج ما يحيط بهم ؛ ويتفاعل معهم ، ويؤثر فيهم من مشاهدات ومطالعات ومعلومات وأفكار ، فإذا كانت خليطاً من المغالطات والشهوات ، والأكاذيب والأضاليل . انحرفت بهم عن سواء السبيل ، وصرفتهم عن منهج الرشاد ، وهونت عليهم التقوى وارتكاب الآثام .

إن رائداً معاصراً من رواد الحرية الفكرية يدعو هؤلاء وسواهم معلم الجليل . يود لو وضع تحت المراقبة كل كاتب مريض بشهواته ونزواته يصورها في قصص وروايات تسحر الفتيان والفتيات . وتنقل إليهم العدوى التي تجعل منهم مرضى قليلي العمل كثيرى الهوس .

يقول الأستاذ لطفي السيد رئيس الجمع اللغوي : (١)

... على هذا أؤكد أنني أن يكون عندي هنا قلم مطبوعات . أي سلطة غير محدودة ، كقلم مطبوعات الحكومة ، ليضع كتاب القصص ، ومعربي القصص تحت المراقبة ، حتى لا يضيفوا إلى التشويه الطبيعي تشويهاً آخر صناعياً فإن الكاتب قد يكون ضعيف الأعصاب بالإجهاد الشخصي ، أو بحكم الوراثة هائج المجموع العصبي من جراء المعيشة المدنية ، والإسرافات المتنوعة من شرب الكحول ، ومن السهر ، بل من البيئة المدنية المصفاة التي لا تكاد تفيق من اللهو واللعب ، قد يكون الكاتب كما وصفنا ، فيجرد من شخصه المريض بطلاً لروايته الغرامية .

ولا شك في أن أغلب الفتيان والفتيات في سن معلومة تسحرهم القصة ،

(١) المنتخبات ص ٢٠٦ وما بعدها .

فتسرى إليهم العدوى المعنوية من أخلاق أبطال الروايات اذا قرأوها في خلواتهم ، أو شهدوها تمثل على المراسح ، فتكرر في الجمعية بتلك الصورة المريضة ، ويفشو في الناس التشوه الذي هو في الطبيعة ، قليل المثال . . . وما أغنى الانسانية وهي أحوج ما تكون إلى الأعمال المنتجة في سعادتها وهناءتها عن إكثار عدد المرضى ، قليل العمل ، كثير الهوس ، والخيالات العقيمة ، يقول الكتاب الكبير ذلك من قرابة نصف قرن ، وهو يخشى على الشباب « ميكروب » القصص المريض ينقل إليهم عدواه ، ولم تكن النُذر حينذاك لتعدو قطرات تسميل بها الأقلام ، أو شررا يتطاير من الأوهام ؛ فكيف بنا وقد استطار الشرر فأسمى لهيبا يتسعّر ، واستحالت القطرات ركاما من السحب اشجرت عن الصيب الغمر ، بل الطوفان المجتاح ، يأتي على القواعد من الآداب والعادات والعقائد والأخلاق .

هذه صحف يومية ، وأخرى أسبوعية وشهرية ، وتلك دور اللهو العامة بالليل والنهار ، تعرض القصص المقروءة ، والصور المنظورة ، والمشاهد المتحركة فتحشدّها حشدا ، وتفتنّ في اشكائها ، وأوضاعها ، وأحجامها ، وعريها ومفاتها ، وهي في دهبها ، وإلحاحها وحرصها على إثبات ذلك في أذهان مشاهديها وقرائها ، كأنما تطرفهم بأنباء عالم عجيب غريب لاعهد لهم بمثله ، بل كأنما تعالج المجهول من أسرار الكون فتبرزه ، أو ماغاب عنا من وسائل استعمار القطبين فتجلوه ، أو ما فات أوربا وأمريكا من شئون الذرة فتكشفه وتنفع به . إن هذه الأقلام المفتونة بشهوات الغرب تقول لقرائها : هذه هي المدنية الغربية إن شئتم النهوض ، فيها الصراحة الجنسية التي لم تكن حائلا دون تقديم بل هي من أسباب هذا التقدم والفوق والامتياز — وكأن هذه المدنية قامت

يوم قامت على الشهوات والنزوات والقبيلات . كأنما لم تقم على الجهاد والجلاد والجد والكفاح .

أما والله لو منيت المدنية الغربية يوم قامت بهذه الاباحية لما كان لها من نهوض ولا قيام — لو منيت بها يوم قامت لما أبدعت إبداعها الذى ملك عليهم القلوب والعقول ، ولما اكتشفت واستعمرت ، ثم ملكت مملكته بالعرق والدموع والدماء والحديد والنار .

إن هذه الصراحة الجنسية الحديثة هى الصراحة الجنسية فى (ابيقورية) اليونان وهى الصراحة الجنسية فى أواخر امبراطورية الرومان . وهى الصراحة الجنسية فى (مزدكية) الفرس ، وهى الصراحة الجنسية فى ليالى الأندلس وبغداد ، وهى نفسها التى قضت على تلك المدينات . وهى نفسها التى قام يكافحها عقلاء أوروبا وأمريكا . وجاءوا إلى هذا الشرق الحبيس ، يلتمسون منه العون ليخرجوا مدينتهم من مأزق يوشك أن يطبق عليهم بأسباب الفناء .

إن صاحب الدقائق الخمس الذى تطهر فيها بضمة واحدة من كل آثار ماضيه فى الحياء ، لا يكفيه عرى الشواطىء . ولا تكشف الشوارع . ولا مایضج به المخلصون من الشكاوى الاليمية مما انحدرت إليه الاخلاق والآداب ، فيقدم علاجه فى ذلك استباحة المرأة ليزهد فيها الشباب .

كتبت فتاة مثقفة من طالبات الجامعة إلى رئيس تحرير الأهرام (١) تحمل على السيدات الخائنات لأزواجهن ، الهاديات لسعادة أسرهن وأنفسهن ، واقترحت على الصحف والإذاعة حملة شديدة لعلاج هذه الحالة الويلة . وعلى القانون صرامة فى عقاب الزوجات الخائنات — وعلق الكاتب الكبير يؤيد هذه الصيحة ويقويها .

فهل علمت الفتاة المثقفة أن أعدى أعداء المرأة هي هذه الأقلام التي تزين لها الخروج عن الآداب والتقاليد المرعية بدعوى الحرية ، والتي تشجع المرأة على مساجلتها ما ترجوه من شهوات ونزوات ؟

وهل رأت وهي الخفيفة الغيرة على كرامة المرأة وصالح الأسرة وخير الأمة أن هذه الأقلام (والأفلام) والصحف التي تغري المرأة بهذا الفساد ، وتريدها على أكثر منه وأفدح ، يجب أن تنصرف إلى مكافحتها جهود المخلصين من الرجال والنساء .

أليست توافقني ومعها كل ذات عفة وكرامة أن شر زراية وتحقير وامتهان للمرأة هو في مثل ما يقترحه الدكتور وأمثاله من مهادنة الشباب حتى يزهد في المرأة عندما يراها في متناول يده ؟

يقول الأستاذ في ما قل ودل « جريمة واحدة تذاع فضائنها هكذا تؤخر زواج مئات من الفتيات الطاهرات اللاتي لا ذنب لهن ، ومن واجبننا أن نحمين ، وأقول : وأي حاجة للشباب في أعباء الأسرة إذا كان كل ما رغبه رهن إشارة ؟

لماذا لا يستمتع ماشاء ، وله في شهواته الغم كل الغم ، وعلى المرأة وجنيتها الغم كل الغم ؟

لماذا لا ينادى بالحرية في إتيان أي رذيلة ، حتى تنطلق من فيه صيحات « شبعنا من الأجساد ، شبعنا من الأجساد ، فإذا هو بعد ذلك عدو للمرأة أمين يتندر بها ، ويعيبها وينزديها ، ويسوء ظنه فيها ؟

بل ما له إذا شبع منها لا يطلق عليها الرصاص من لسانه وألسنة إخوانه .

إن لم يكن على حظ من شجاعة الشبعان من الخمسين ، في شارع عماد الدين . (١)
إن واجب المرأة الآن يفرض عليها الدفاع عن نفسها وبنات جنسها ، لا من
مغتصب المطالب السيامية التي تريدها ، ولكن من سارقى شرفها وعرضها ودينها .
إن خير ما تقدمه المرأة لنفسها وأخواتها هي الصيانة من ذئاب الرجال ،
 واحتفاظها بآدابها ، واعتزازها باحتشامها ، وترفعها عن أن تكون العوبة الرجل
يلهو بها ثم يلقيها .

إن واجب المثقفة الكريمة على نفسها ووطنها أن تثور على كل ما يمس حياءها
أو يخدش عفافها ، من صور خليعة لبنات جنسها : وأقاصيص مكشوفة وروايات
غرامية ، تدور حولها ، وأزياء مبتذلة وعري فاضح ينال من كرامتها .
ورحم الله الكاتب المسلم ، وأفاض عليه سبحانه رضوانه إذ يقول :
« احذرى أيتها الشرقية ، وبالغى فى الحذر ، واجعلى أخص طباعك الحذر كله
إحذرى وأنت النجم الذى أضياء منذ النبوة أن تقلدى هذه الشمعة التى أضياءت
منذ قليل .

احذرى أن تخسرى الطباع التى هى أليق بأم أنجبت الأنبياء فى الشرق .
احذرى أن تخدعى عن نفسك ، إن المرأة أشد افتقارا إلى الشرف منها
إلى الحياة .
الحب ، الزواج ، المال — هذه صلاة الثعلب حين يتظلم امر بالتقوى
أمام الدجاجة .

احذرى السقوط إن سقطت المرأة لهوله وشدة ثلاث مصائب فى مصيبة

١٥ - حادثة اهتمت لها الأوساط العامة وخاضت فى تفاصيلها الصحف وتناقلتها
الأسلسة . ووجدت للجاني مذكرات دون فيها صلته بخمسين امرأة . وذكر أنه أطلق
الرصاص على عشيقته لاحتقاره لها وتخلصا من مطاردتها لهما تزال منظورة أمام القضاء

سقوطها هي ، وسقوط من أوجدوها ، وسقوط من توجدهم .

نواب الأسرة كلها يسترها البيت الا عار المرأة .

أيتها الشرقية احذري احذري (١)

أيتها الشرقية الفاضلة ، أيتها المثقفة الكريمة على نفسها وعلى ذوى الكرامة من

مواطنيها ، أضحى لوحى ضميرك ، وتنسى ربح السعادة من دينك ، واستنيري

بنور الله ، وتمسكى بالإسلام ولوذى بجماه ، فقد حماك من لحظ البصر ، وغمر

الحديث ، وكونى مؤمنة فى عداد المؤمنين ، وازدرى المنافقة والمنافقين فالله تعالى

يقول : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون

عن المعروف ، ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون

وعد الله المنافقين والمنافقات نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم

عذاب مقيم ،

ويقول سبحانه فى شأن الأخيار : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء

بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وقيمون الصلاة ، ويؤتون

الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم ، وعد

الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن

طيبة فى جنات عدن : ورضوان من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم ،

« ١ » ، للرحوم الاستاذ الراحل — وحى القلم ج ١ تحت عنوان احذري ص ٢٩٦

في رياض القرآن

وهدي الرسول

كأنى بالقارىء الكريم ، وقد طال به المسير في رحلة مباركة مرجو لها التوفيق ، نفذت إلى الأغوار البعيدة في مجاهل من الرأى ، ومذاهب من القول اختلط فيها صاف بزائف ، واشتبه عقل بهوى ، فكشفت عن الحر الأصيل من نتاج الالباب ، ومقاطع الصواب ، تبسط الرأى ، وتناقش الخصم وتدل بالدليل تلو الدليل ، وتمحو ظلمة الباطل بضياء الحق ، وتجبه الخاطئين والمخطئين بأسلحة العلم — كأنى به وقد رغب التخفف من القال والقليل ، كى ينفى إلى ظل ظليل من كتاب الله ، يستروح به أنسام الجنة في هذه الحياة ، ويتفيا واحات النعيم في صحرائها المستعرة . فيروى من نيمره . ويغتذى بشماره ، ويغسل بطهره وفيضه ونوره آثار اللغو الكثير من تفاهات التافهين ، وأوهام الواهين ، فألى رياض القرآن بعقولنا وقلوبنا ساعة ، عسى أن تكون حياتنا عمادا ، ولأيامنا زادا ، ولما انشعب من أمورنا صلاحا وسدادا .

يقول القرآن الكريم في نسقه السماوى الرائع ، يقرن الكوامل من النساء بالكاملة من الرجال : إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما . .

فالفضاياات من النساء مسلمات لله ، خاضعات لأمره ونهيه ، عاملات بشرعه

وهديه .

مؤمنات به سبحانه ، وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، راضيات
بقضائه وقدره ، واثقات بفضلته وبره .

قاتات داعيات ، وعليه مقبلات ، وفي رضاه قائمات
صادقات الألسنة والقلوب ، طاهرات السرائر والظواهر ، أغناهن صدق
الأعمال عن تزوين المقال .

صابرات على الطاعات ، واداء الواجبات ، رابطات الجأش في الشدائد
والملمات .

يزين هذا الصبر تواضع وخشوع ، في رقة ولطف ، لخشونة وعنف .
في هدوء وسكينة ، وعزة وصيانة .

وتصدق على المحتاجين بفضل المال والعلم والتوجيه الحكيم
وصوم عما يشين ، وحفظ للجوارح والغيوب ، ودوام ذكر الله ، مع
الرجاء في بره ورضاه ، ولهن من ذلك عند الله المقام الكريم ، والأجر العظيم .
هذه صفات الكاملات من المؤمنات ، في الآية الكريمة التي تحدثت بمثلها
عن الكاملين من الرجال .

وتسبق هذه الآية آيات ، في شأن الفريق الأول الذي أقامه الله أمثلة عليا
للمؤمنات ، يهوين إليه بالقلوب والأفئدة ، ويرينه بالعقول والبصائر ، يرمقن
جلاله ، ويحتذين مثاله ، ويتربصن كماله وفعاله . أولئك هن زوجات الرسول ،
شرفن بقول الله سبحانه « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ،
أعلى الله همتهن عن أن تكون الدنيا غايتن ، أو تكون زينتها من حظوظهن
ورغبتن ، لأنهن قدوة المسلمات ، والأعلام المرفوعة هداية للمؤمنات ،
والمبلغات لأعظم الرسالات ، فلسن كغيرهن من النساء وذلك قول الله سبحانه :

« يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين
أمتعنكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار
الآخرة فإن الله أعد للحسنات منكن أجرا عظيما ، — فلم تكن منهن واحدة
بعد هذه الآيات إلا سارعت الى الله ورسوله . وآثرت الحياة الباقية على زينة
الدنيا ، وحافظت على عهدها ، حتى لحقت بجوار ربها .

لقد تفتحت براعم الحياة للمسلمين . واستهلكت واردات الأموال في عهد
رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وبدأ الصحابة ينعمون بما أفاء الله عليهم
من بركات ، ثم فتحت الدنيا ، وفاضت الأموال على عهد الخلفاء الراشدين ،
وكان لأمهات المؤمنين نصيبهن الكبير من هذا المال الوفير . ولكنهم ظللن كما
كن على عهد الرسول ، متقللات من الدنيا ، زاهدات في أعراضها ، متصدقات
بمحظوظهن على المحتاجين من أبنائهن المؤمنين .

يجيء من البحرين مال ، ويقضى الرسول صلاة الغداة ثم ينصرف فيلقاه
في المسجد بعض المصلين ، فيبتسم إليهم ، وقد عرف لماذا هم واقفون ويقول :
لعله قد بلغكم ورود المال . فيقولون : نعم ؛ فيقول : أبشروا . ثم لا يفارق
مجلسه حتى يفرقه في المسلمين ، وعمه العباس في القوم يملأ حجره بالمال حتى
لا ينهض به . فيقول للرسول : احمل عليّ ، والرسول الكريم يضحك من عمه
ورغبته في الدنيا ، ويقول ناصحا ومرشدا : « فوالله لا الفقير أخشى عليكم
ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا كما فتحت على من كانوا قبلكم ،
فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم ،

والرسول وآله معه لا ينالون من الدنيا إلا كفافا — وتقول عائشة :
ما شبع آل محمد من خبز الشعير ثلاثة أيام تباعا . وتقول رضى الله عنها : كنا

نعد الهلال والحلال والحلال ، وما يوقد في أبيات رسول الله نار ، فتسأل عما كان يقوتهم ، فنقول : إنما هو التمر والماء — وتقول عن نفسها بعد عهد الرسول : ما شبعت من طعام قط وأحببت أن أبكى إلا بكيت . لما كان رسول الله ﷺ يجوع ثم لا يشبع .

هذا هو المثل الأعلى في حياة المسلمين ، والقُدوة الصالحة للرؤساء والحكامين ، لم يُكلف بمثلها عامة الناس ، إذ لا يُكلف الله نفسا إلا وسعها ، وإنما هي أعلام الهدى للمهتدين ، توقظ هممة المتوانين ، وتشجذ من عزائم السباقيين ، وتقي بالراحة والرضاعلى قلوب المحرومين ، فلا نلث أن نرى أثر ذلك فيمن حولن من المسلمين إثارا وإخلاصا وتقانيا .

جاء رجل مسلم يشكو ما به من جوع ، فبعث النبي إلى إحدى نسائه ، ما عندك من طعام ؟ فقالت : والذي بعثك بالحق ما عندى سوى الماء ، فبعث إلى باقيهن واحدة واحدة ، فلم يجد عندهن سوى الماء ، فأخذه رجل من المسلمين إلى بيته وسأل امرأته فلم يجد إلا عشاء عياله ، فقال لها : ضيف رسول الله فقالت : مرحبا بضيف رسول الله . وهيات الزاد ، ونوِّمت الصبيان ، وقدمت الطعام إلى زوجها وضيفه ، وقامت إلى السراج متظاهرة بأصـلاحه فأطفأته ، وطعم الضيف ، وزوجها يريه أنه يؤاكلة ، وما مد إلى الزاد كفا ، فلما أصبح الصباح ، ولقى الرسول كان الوحي أسبق إليه منه ، فأخبره الرسول خبر الوحي ، وقال له : ضحك ربنا مما فعلتما الليلة بضيفكما فغفر لكما .

ثم تطرد الآيات السابقة مستكملة ما ينبغي لزوجات الرسول من الآداب : ديانساء النبي لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن

تبرج الجاهلية الأولى ، وأقن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفا خبيرا ،

ثم جاءت على أثر آيات الأمهات آية الفضليات من المسلمات ، تعقد على رؤوس النساء أكاليل المجد ، وتيجان الفخار ، بما حزن من جميل الخلال ، وكرم الخصال ، وعظيم الآداب ، ولا عجب أن يثنى الله على الصالحين من عباده ويذكر من مكرماتهم رغبتهم الى الله ، ودعاهم إياه بأن يجعل لهم من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين ، وبهجة أنفس ، ورضا قلوب ؛ فاذا هم على أمل في إمامة المتقين . قال تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . . . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما » . - وكيف لا ؟ وحديث الصادق المصدوق يقول : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله ،

كذلك خير ما ترزقه المرأة المؤمنة بعد تقوى الله سبحانه ، زوج صالح يكون بهجة قلبها ، وعماد بيتها ، ودرع أيامها ، وتاج عزها والله تعالى يقول : « الطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ،

وإذا كانت المرأة في القرآن كريمة كرامة الرجل ، وهى فوق ذلك مستودع الحياة ، وموطن الحفاظ ، ومناط الشرف ، فقد صانها الاسلام أكبر الصيانة وحاطها بسياج من الكرامة والحصانة ، فأمر النساء بالستر والاحتشام . فلا يكشفن من جسمهن سوى ما اعتيد كشفه من الوجه والكفين ولا يُبدن

زینتہن إلا ما ظہر منها ، ولیضربن بحجر من علی جیوبہن . . . ولا یضربن
 بأرجلہن لیعلم ما ینخفین من زینتہن ، دیاہا النبی قل لأزواجک وبناتک ونساء
 المؤمنین یدنین علیہن من جلابیبہن ، ذلك أدنی أن یعرفن فلا یؤذین ، ذلك
 أقرب إلى الصیانة ، وأدنی أن یعرفن بالکرامة ، فلا یؤذین بالبذاءة . کما أمرهن
 بغض الأبصار حتی لا یطمعن مرضی القلوب فقال : « قل للمؤمنات یغضضن
 من أبصارهن ، كذلك حفظهن من شره العیون ، وطلّح الأنظار . فأرشد
 أصحاب الضمائر الحیة من الأخیار إلى ما ینبغی لهم ، ویجمل بهم من غرض البصر ،
 وأذکر المنافقین والفجار ، الذین یعرضون بالأذى وإرجاف السوء للمحصنات
 العفیفات بسوء المصیر ، فقال سبحانه لنبيه « قل للمؤمنین یغضوا من أبصارهم ،
 وقال : « لئن لم ینته المنافقون والذین فی قلوبهم مرض ، والمرجفون فی المدینة
 لنُغْرِینک بهم » ثم أبان عاقبة الحملة الصادقة علیهم من الطرد واللعن والتقتیل
 فقال : « ثم لا یجاورونک فیها إلا قلیلا ، ملعونین أینما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتیلا ،
 وإذا كانت هذه صیانة الاسلام للمرأة الکریمة وکرامتها ، فما أجد
 المؤمنة الکاملة بأن تعتر بهدی القرآن ، وتحتمی بحماه ، فتسبغ ثیابها ، وتدفی
 جلابیبها ، وتصون رأسها وصدرها وأطرافها عن عیون المتطفلین ، وسهام
 الناظرین ، ما أجدرها بأن تجعل من بیتها جنة وارفة یاوی إلیه زوجها وأبنائوها
 ثم یشیکون بیتها أفضل أstarها .

نعم : إن من حقها الخروج لحاجتها من علم وعمل ، وخیر وبر .

من حقها التزویح عن نفسها بالرياضة

من حقها صلة من شاءت من خیرات الصدیقات

کذلك من حقها التحشم والتصون والستر .

من حقها وحق كرامتها عليها سبوغ الثياب ، ووفاء الجلباب .
 من حقها وحق كرامتها عليها أن تكون ملء القلب بالاجلال والصيانة
 والرعاية ، لاملء الجسد بالشهوة والإسفاف والبغى .
 فهمى بالاجلال أمّ تنبع منها الحياة .
 وهى بالصيانة أخت وزوجة يُحفظ لها وبها الشرف .
 وهى بالرعاية بنت يُضاعف لها الحنان والعطف .
 ولكنها بالشهوة فتنة تسعى .
 وبالإسفاف لفظة تؤذى .
 وبالبغى عرض يُستهك .
 ينظرها الرجل فتلوى فيذكر أخس مافيه وأحقره .
 يراها غوى الرجال عارية فتشوقه ولكن بالحيوان فيه ، كما تشوق الطفل دميته
 التى يريدّها ناهية ، ثم يلقىها بعد السامة منها محطمة .
 وبراهم الرشيد مائلة بميلة ، فتثير اشتزازهم وامتعاذه وتحقيره وسخطه .
 فى الحديث الشريف : صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : نساء كاسيات عاريات
 مائلات بميلات ، على رءوسهن كأسنمة البخت ، لايرين الجنة ولا يجدن ريحها ،
 ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ،
 هؤلاء يفسدون الناس بالإذلال والقهر .
 وأولئك يفسدونهم بالشهوة والعهر .

* * *

لن تكون المرأة كريمة على الرجل لأنها تزامله فى كرسى البرلمان ، أو
 تماثله على مكتب الديوان ، أو تراقصه فى حلبة المجون والمجون ، أو تتعرى له

على شاطئ البحر، أو تعرض فتنها عليه، فتشغله وتلهيه، أو تأسره وتصديه ١١ .
 إنما تكون كريمة على الرجل متى كانت كريمة على نفسها ، ولن تكرم على
 نفسها ما لم تعرف حقيقة أمرها ، فتعلم أنها في الحياة مستودع الحياة ومجراها
 وأما مكلمة الرجل في رسالته ، وأنه مكلمها في رسالتها . ومن الخير لها — إن
 استطاعت — أن يكفيها العمل الخارجى على أن تكفيه البيت وشئونه ، فإن
 اضطر إليها أمدته بعونها ورفدها، وإن فرغ من واجبه أعالها على أعبائها وأثقالها .
 لقد شاركت المرأة المسلمة في مواقف الإسلام الكبرى ، وشهدت مشاهد
 الجلى ، وأعانت الرجل في حروبه ومعاركه ، فلم يكن على الرجل بأس أن
 يشارك في بعض أعباء البيت تخفيفا وترفيا .

وهذا هو السيد الأعظم صلوات الله وسلامه عليه كان — أحيانا — يقيمُ
 بيته ، ويخيط ثوبه ، ويخصف نعله .

كذلك رغب لآله ما رغب لنفسه فقد جاءته فاطمة رضى الله عنها تسأله
 خادما فأرشدوها إلى ما هو خير لها منه — روى البخارى بسنده عن على كرم الله
 وجهه أن فاطمة أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحا ، وبلغها
 أنه جاءه رقيق ، فلم تصادفه . فذكرت ذلك لعائشة . فلما جاء أخبرته عائشة
 قال : فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا نقوم . فقال على مكانكما . فجاء
 فقعد بيني وبينها حتى وجدت برد قدميه على بطنى فقال : ألا أدلكما على خير
 مما سألتما ؟ إذا أخذتما مضاجعكما وأويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين ؛
 واحدا ثلاثا وثلاثين . وكبرا أربعاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم —
 قال على فما تركتها بعد . قيل ولا ليلة صفين ؟ قال ولا ليلة صفين .

وروى البخارى كذلك عن أسماء بنت أبى بكر قالت : تزوجنى الزبير وواله

من مال ولا مملوك ولا شيء غير ناضح فرسه ، فكنت أعاب فرسه ، وأستقي الماء ، وأخرز غربه ، وأعجن ولم أكن أحسن أخبز ، وكان يخبز جارات لي من الأنصار ، وكن نسوة صدق ، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعها رسول الله ﷺ على رأسى ، وهو منى على ثلثي فرسه — فجئت يوما والنوى على رأسى . فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار ، فدعاني ثم قال : إخ إخ — أى لناقة — ليحملني خلفه ، فاستحييت أن أسير مع الرجال وذكرت الزبير وغيرته ، وكانت أغير الناس ، فعرف رسول الله ﷺ أنى استحييت فمضى ، فجئت الزبير فقلت لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسى النوى ومعه نفر من أصحابه فأناخ لأركب ، فاستحييت منه . وعرفت غيرتك . فقال والله لملك النوى كان أشد على من ركوبك معه — قالت حتى أرسل إلى أبوبكر بعد ذلك بخادم يكفيني سياسة الفرس فكأنما أعتقني .

فالمرأة في بيتها تبني نفسها وزوجها — وليس معنى ذلك أن تحشن ككفا ، وتصلب عودا . وتشبه الرجل في قوته وفتوته ، فما خلقت المرأة على نحو آخر غير الصلابة والخشونة والفتوة ، إلا لهذا الحنان واللين والعطف تسبغه على زوجها ، وتفيض به على وليدها الذي تجرى له الحياة من أئدائها — ولكنه العمل يبارك الحياة ويزينها ويحفظ الصحة ويصونها ، ويملا فراغ المرأة فلا تحس بالضيق والضجر ، ولا تنفق وقتها في غير نفع وثمر .

والمرأة أستاذة البيت وربته تعين زوجها، وتحفظ مالها، وترعى لها أولادها وتكون خير قدوة لهم ، تطعمهم — إن شاءت — على مناهج الخير ، وترضعهم — لو أرادت — لبان الاستقامة، وهى على ذلك أقدر، إذ بها تنعقد أبصارهم وتعلق قلوبهم . إن على الآباء حقا واجبا أن يكونوا مثلا صالحة لأبنائهم في أداء الواجب ورعاية الأمانة، وحسن المعاملة، وجميل الخلاق، وأن يتحلوا بكامل صفاتهم

أمام أطفالهم ، فاذا عاملوا أجملوا ، وإذا قالوا صدقوا ، وإذا وعدوا وفوا —
 نادى امرأة صديا لها يلعب قائلة يا عبد الله : تعال حتى أعطيك ، فقال ﷺ :
 وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمراً ، فقال : أما إنك لو لم تفعل لكتبت عليك كذبة .
 ورعاية الأبناء والبشاشة لهم من خير ما يطبعهم على البشاشة والنظرة السليمة
 المتفائلة فهمما شقت الأعباء على الأبوين فليكونوا محتلى السرور والحب لأبنائهم
 ولا يملئوا قلوب الصغار بالآلام الحياة ، ولا يقسو عليهم رغبة في المبادرة بتكليفهم .
 كذلك لا ينبغي أن يسرفوا في تدليلهم ، ففي المبالغة في إحدى الناحيتين إيذاء
 لهم ، وإتلاف لأخلاقهم ، وليكن لنا من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه
 أعظم القدوة وأجمل الأسوة ، فلقد بلغ رفقته بأبنائه وأحفاده وأبناء المسلمين
 وأحفادهم المبلغ الأسى — تعلق به بنت لأحدى بناته وهو خارج إلى الصلاة
 فحملها ، وصلى بالناس وهي على عاتقه فاذا ركع وضعها ، وإذا قام رفعها —
 روى البخارى ومسلم عن أبى قتادة الأنصارى قال . رأيت النبي ﷺ وأمامه
 بنت أبى العاص وهي ابنة زينب بنت النبي ﷺ على عاتقه ، فإذا ركع وضعها
 وإذا رفع من السجود أعادها .

وروى البخارى فى جملة روايات ما مؤداه أنه ورد إلى النبي ﷺ ثياب وفيها
 خيصة صغيرة سوداء ذات أعلام ، فقال من ترون نكسوه هذه ؟ فسكت القوم ، قال : هـ
 اتوني بأمر خالد بنت خالد بن سعيد فأتى بها صغيرة تحمل فأخذ الخيصة بيده
 فألبسها ، وأشار إلى أعلامها فقال : يا أم خالد هذا سنة سنة وهى بالحبيشة حسنة
 قالت أم خالد : فذهبت ألعب بخاتم النبوة ، فزبرنى أبى : فقال : دعها ، ثم قال
 لها : أبلى وأخلقى ثم أبلى وأخلقى ؛ فعمرت طويلاً .

ويكون ﷺ فى صلاة الجماعة فيسمع بكاء الصبي فيتجوز فيها شفقة بالطفل
 وأمه ؛ وروى ابن أبى شيبه أن رسول الله ﷺ قرأ فى الركعة الأولى من

الصبح بسورة نحو ستين آية ؛ فسمع بكاء صبي فقراً في الثانية بثلاث آيات وروى النسائي أن رسول الله ﷺ كان يزور الانصار ؛ فيسلم على صبيانهم . ويمسح على رؤوسهم ويدعو لهم

ومع هذا اللطف البالغ . والرفق العظيم . فقد كان يؤدب أهله بما أدبه به ، فإذا أخذ على أحد منهم كذبة هجره حتى يرى أنه أحدث توبة . وتناول الحسن ابن علي تمر من تمر الصدقة فجعلها في فيه . وكان صغيراً فقال له : كخ كخ لرم بها إنا لاتحل لنا الصدقة . وأخذها من يده ، ويقول في حديثه : مانحل والد ولده نخلة أفضل من أدب حسن .

هذا : ولودهبنا تنقصى مبادئ التربية الخلقية العالية في آداب الإسلام لطلال بنا المقام . وإنه إلى القلوب حبيب .

فإلى الإسلام أيتها المسلمة . تمسكي بكتابها . وتأدبي بآدابها ، واحتمي بحماها . إلى الإسلام أيتها المسلمة ؛ أعيدى لنا مجد المسلمات الأوليات ، وصلى من تاريخنا ما انقطع ، وارفعى من حاضرنا ما اتضع .

إلى الإسلام أيتها المسلمة . لا يلفتك عن أجدادك الأصيلة مفتون من الغرب بشهواته ، يفر من الأسرة ، ويتحلل من قيودها ؛ ويريدك لنزواته . إلى الإسلام أيتها المسلمة ، كافحي التجارة بجسمك ، والعدوان على حيائك في هذه الصور الخليعة ، والصحف المستهتر ، والأفلام المسمومة (والأفلام) الماجنة ، والتكشيف والتبرج في الشوارع والطرقات ، والتعري الفاضح في الشواطئ (والبلاجات) .

إلى الإسلام أيتها المسلمة أستبيني الذي يدعوك إلى الله ، ممن يدعوك إلى الشيطان . ومن يرجو لك الصيانة ، ممن يريدك على الهوان .

إلى الإسلام أيتها المسلمة ، إلى الله ، فربك أبر وأرحم ، وشرعه أكرم وأحكم

طريقه أحفظ لك وأسلم .

والله يتولاك ، وبفضله يرعاك ، وبتوفيقه يسدد خطاك ، وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

ونسأله جلّت قدرته ، وتعالّت حكمته ، أن يهبنا البصيرة في دينه ، والقوة في يقينه ، والعمل بهديه ، والإخلاص لوجهه ؛ والعزة في الحياة والخير في لقاءه ، وأن يجمع شمل المسلمين ، ويوفق ولاية الأمور لما فيه خير مصر والعروبة والاسلام والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، وآله الطيبين الطاهرين ؛ وأمّهات المؤمنين ، والتابعين والتابعات لهم بإحسان إلى يوم الدين . آمين .

استدراك لأهم الأخطاء

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	الخطأ	صواب
٢١	٥	وقبائلهم	وقبائلهم	٧٢	١٩	بايمانهم	بايمانهم
٢٢	١٠	ويكسنيها	ويكسنيها	١٠٧	١٩	والمنافقون	والمنافقون
٢٦	٧	أنه في بني تميم	أنه وجد في بني تميم	١١٢	١٦	وما يطلع	وما لا يطلع
٤٤	١٠	فيعنف	فيعنف	١١٣	٥	البدوى	البدو
٤٥	ها مش	الخمر	الحسمر	١٢٤	١٦	ولينتصرن	ولينصرن
٤٩	{ ١٥ ١٨ }	ما يضحكك	ما يضحكك	١٣٨	٦	هل ويعلمها	هل يعلمها
٦٥	٦١	واللاني	واللاني	١٨٨	١٠	ويتفاهم	وتتفاهم

(فهرس الكتاب)

مقدمة : بقلم فضيلة الأستاذ محمد فوزى خشبه

١ الإهداء :

٢ تمهيد : القضية الخالدة المصرية الحديثة . تأليف الكتاب . مصادره

١٢ المرأة فى التاريخ : مبالغات المؤرخين . فى الملك . فى التوراة والانجيل .
اليابانيون وأبنائهم .

٢٠ المرأة العربية : كرامتها فى قومها . لم يكن الوأد قاشيا . العرب أنسب البيئات للإسلام

٣٠ هل تساوى المرأة الرجل فى القوى الجسمية ؟ الفروق بينهما لصالح الجنس

٣٧ المرأة والدعوة : منذ اللحظة الأولى وقبلها . جهاد الموايلة ، وموقف المعادية ، فى
مكة والمدينة ، وعصر الخلفاء

٥١ مكانة المرأة فى الإسلام : الحق الأول والأخير . شخصية المرأة كاملة . اقامة البيت

المسلم . بعد المسلمين عن منهج الدين . درجة الرجل طبيعية . قوامته ضرورية شورية

٦٩ تعدد الزوجات : الكتاب والسنة والعمل . موقف الصحابة . موقف النبي فى رعايته

للدولة الناشئة . أمهات المؤمنين . زواج زينب والاختفاء حوله . تشريع خالد .

الغرب وتعدد الزوجات . اتحاد القوانين التقييد المحرود .

٦١ مشروعية الطلاق : علاج كل من الزوجين لصاحبه . التحكم . الطلاق عملية

لإنقاذ . النهى عن التحليل . حق المرأة فى حل الزوجية . بعد الفراق . المسرفون على

أنفسهم . كلمة خاتمة .

١٠٧ المرأة فى الميراث والشهادة : نصيب المرأة ضعف نصيب الرجل . الشهادة . ضعف

شهادة المرأة وقوتها . وضعف شهادة الرجل وقوتها

١١٦ المرأة والحجاب : بالنسبة لأمهات المؤمنين . بالنسبة لغيرهن . محنته الحاضرة .

واجب ولاية الأمور

﴿ تابع الفهرس ﴾

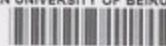
- ١٢٥ المرأة والمسجد : مشروعية الجمعة والجماعة والعيدين . التخفيف على المرأة . شهودها المسجد في عهد النبي والخلفاء . شبهة بعض الباحثين . الحيلة تغلب قوما صالحين . اصلاح الامة في الهدى النبوى
- ١٤٠ المرأة والازهر : رغبة كثيرين . ضرورة ذلك لصلاح المرأة والامة
- ١٤٦ المرأة والحياة العامة : التعليم بدؤه للفتاة . الأمل فيه . المصرية تؤثر العمل الخارجى أثر ذلك فى الأنباء . ازمة الزواج . لا يصلح لنا التقليد . رسالة المرأة
- ١٦٠ المرأة والحياة السياسية : وجهات النظر . فتوى لجنة الازهر ومناقشتها . هل فى دخول المرأة البرلمان خير هام ؟ التاريخ قديما وحديثا أصدق شاهد . لماذا لانرحب بدخول المرأة البرلمان ؟ اسراف دعاة الانتخاب . المصرية اكثر نساء العالم حقوقا المعتصمات .
- ١٨٠ المرأة والشواطىء : قدم المصايف . العرى على الشواطىء ودعاة الاباحية . علماء النفس والعادة . العرى بعيد عن أى دين وإنسانية . الاباحية داء قديم . ضرورة الصدق فى الاصلاح . الاباحية شيوعية . فوضى الشواطىء تقضى على كل اصلاح . التبعة عامة وخاصة . رجاء
- ١٩٥ المرأة والأقلام المسمومة : نماذج . وبعد . لطفي السيد ومراقبة النشر . واجب المثقفة . احذرى
- ٢٠٧ فى رياض القرآن : المثل الأعلى . المثل العالى . كرامة المرأة فى أدبها . المرأة والبيت الى الاسلام أيتها المسلمة .

396:A96mA:c.1

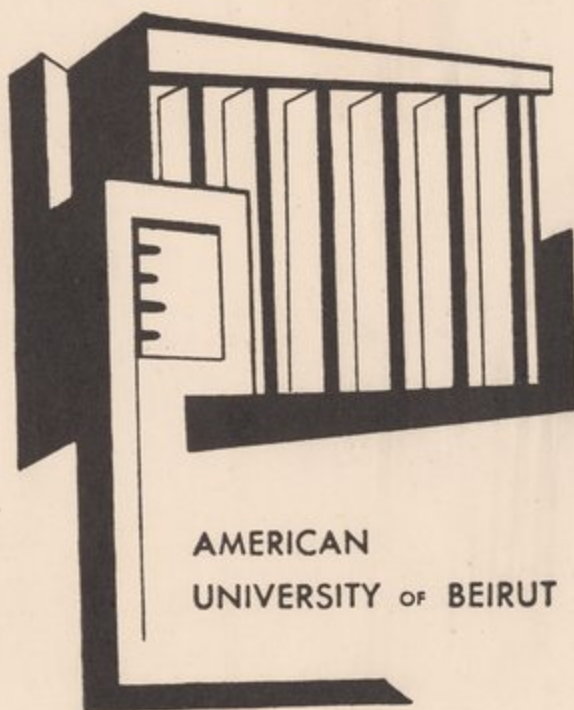
عون، كمال احمد

المرأة في الاسلام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01023962



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

